كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

سلسلة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ١
بصائر المعرفة القرآنية ٢٢

المدخل إلى
علم السنن الربانية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

المدخل إلى
علم السنن الربانية

EL-MADHAL Fİ ÂLEM

EL-SUNEN EL-RABANÎYE

PROF. ABDULSALAM ALMAJEEDY

1. Baskı: İstanbul

2024 - 1446

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

سلسلة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ١
٢٢ بصائر المعرفة القرآنية

المدخل إلى علم السنن الربانية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

المدخل إلى علم السنن الربانية

عبد السلام مقبل المجيدي

القياس: 17 X 24 سم | عدد الصفحات : 280 ص

ISBN: 978-625-8063-82-0

الطبعة الأولى ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التحكيم العلمي

أ.د/ رمضان خميس

كلية الشريعة/ جامعة قطر

أ.د/ عزيز البطيوي

أستاذ بقسم العقيدة والدعوة - كلية الشريعة/ جامعة قطر

المراجعون

الشـيخ / العزي سـليمان

أ.د / سعيد بن دحباج   د / حمود ردمان

د / عامر الخميسي   أ / أميرة ردمان

مكتبة الأسرة العربية

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طبـاعـة ونشـر وتوزيع

إصدارات مُختـارة للأسـرة العربيـة

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATI® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ رمضان خميس

حمدًا لله ربِّ العالمين، وصلاة وسلامًا على سيِّد الخلق وخاتم المرسلين سيِّدِنا محمد، وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

اللَّهمَّ إنا نبرأ من حولنا وطَوْلنا وقوَّاتنا، ونلوذ بحولك وطَوْلك وقوَّتك؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها، يا أرحم الراحمين.

اللَّهمَّ إنا نسألك أن تجعل أقوالنا وأعمالنا وحركاتنا وسكناتنا فيك لك خالصة، إنك على كل شيء قدير.

اللَّهمَّ إنا نسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، وقرَّة عين لا تنقطع، ونسألك مرافقة نبيك ﷺ في الجنة. **أما بعد:**

فقط درج بعض العلماء أن يكتب لهم شيوخهم تقديمًا لكُتُبِهم؛ على سبيل التقريظ أو التهيئة.

لكني فوجئت بأخي الأسبق علمًا وفضلًا، والأعظم عبادة ونبلًا (أحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا أزكِّيه على الله) العالم الرباني الجليل فضيلة الشيخ الحبيب الأستاذ الدكتور عبدالسلام المجيدي يطلب مني أن أقدِّم لكتابه هذا الماتع النافع: (المدخل إلى السنن الربانية).

لقد تهيبت هذا المقام تهيبًا شديدًا ودفعته ودافعته عن نفسي مرارًا لمعرفتي بنفسي أوَّلًا، ومعرفتي بأخي الأحبِّ فضيلة الدكتور عبد السلام ثانيًا؛ ذلك أنه رجل قرآنيٌّ ربانيٌّ، القرآن على لسانه وفي أنفاسه غدوَه ورواحَه، وعملَه ومستراحَه، وهو شغله في ممساه ومصبحه، إذا تحدَّث فَعَنْهُ، وإذا ترنَّم فَبِهِ، وإذا حَاضَرَ فَحَوْلَهُ، وإذا خَاطَر فمن فَيضه، تسمعه أو تقرأ له فإذا

بك لا تكاد تلتقط أنفاسك من سرعة قَرْعه لقلبك، وطَرْقه لوجدانك حتى يملك حديثه عليك نفسك، وهو يريد أن يصل إلى أعماق أعماقك دون أن يغادرها حتى يضع فيها روحه، وينفث فيها لوعته وهَمَّهُ؛ لعلَّ واحدًا يشاركه ما يتولَّه به، وما ينوء بحَمله من همِّ الدعوة وهِمَّتِها وشرفها وثقلها في آن.

ودعني أبثك أيها القارئ الكريم سرًّا شخصيًّا أنني لا أسمع الشيخ الجليل أو أقرأ له إلا وأتوقَّف مرَّات ومرَّات سماعًا أو قراءة من ضعف تَحَمُّلِي لهذه المطارق الشديدة التي تتواتر وتتوالى على قلبي ونفسي، وأقول في نفسي: سامح الله! الشيخ أَقَضَّ المضاجع، وأسال المدامع، ثم أعاود القراءة بعد أن استجمعت من نفسي شيئًا فأعود إلى الحالة ذاتها، وكم تكلَّفت أن أقرأ له وأسمع فتطول قراءتي وسماعي للقدر اليسير، وأرى أن هذا الوَهَج الذي يضيئ ليس وَهَجَ البيان وروعته، ولا اللسان وفصاحته، ولا اللفظ ودِقَّتِه، بل هو قبل هذا كلِّه ومعه وَهَجُ الرُّوح التي يبثُّها في سامعيه وقارئيه، وهذا أَثَرُ نَفْسِهِ المُلْتاعة الحَرَّى التي تكاد تنادي الناس عموم الناس في الطرقات والأسواق، وليس فقط في قاعات الدراسة: أَنْ عُودوا إلى ربِّكم، وثُوبوا إليه فأنا لكم النذير العريان، الذي يخاف عليكم الرَّدى والهوى، ويرجو لكم السداد والرشاد.

ولقد طال معي هذا الكتاب فترة قراءته أكثر من المعتاد لهذا السبب، وهو كما سيرى القراء الكرام كتاب حوى من المزايا الكثير، ومن الفضل العظيم والخير العميم.

ومن أهمِّ ما تميز به:

١) **خصوصية الموضوع** الذي طرقه الشيخ الحبيب، فهذا ميدان خصيب، وهو قليل من الحُرَّاس المحرِّرين، والكُتَّاب الواعين الواعبين لهذا الثغر العظيم، الذي شغل به الرواد من المصلحين المجددين تطبيقًا أو تأصيلًا، حتى جعله الأستاذ الإمام محمد عبده ﵀ المرتبة

العليا في فَهْمِ تفسير القرآن الكريم، وتفسيره لا يتمُّ إلا بأمور من أهمِّها: **(علم أحوال البشر أو علم السنن الإلهية،** (فقد أنزل الله ﷻ القرآن وبيَّن فيه كثيرًا من أحوال الخلق وطباعهم والسنن الإلهية في البشر؛ فقصَّ علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها، فلا بدَّ للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر وأطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم؛ من قوة وضعف، وعزٍّ وذلٍّ، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالَمِ الكبير عُلْوِيِّهِ وسُفْلِيِّهِ، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمِّها علم التاريخ بأنواعه. وأَجْمَلَ القرآن الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكلِّ شيء علمًا، وأَمَرَنا بالنظر والتفكر والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاءً وكمالًا، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة)[1].

٢) **ألق البيان،** ولِمَ لا! وهو رجل القرآن، وربيب جامعة (الإيمان) قولًا وعملًا، وتأثير القرآن على بيانه ولسانه وقلمه لافت لا يحتاج إلى دليل، وكما يقولون: من ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ومن حرم انحرف.

لَا يُـدْرِكُ الشَّـــوقَ إلَّا مَـنْ يُـكَـابِـدُهُ ولَا الصَّـــبَـابَـةَ إلا مَـنْ يُـعَـانِـيـهـا

٣) **إشراق العبارة،** وإشراقها غير فصاحتها فقد تكون العبارة عند بعضهم لامعة وهَّاجة لكنه وهج ولمع أخذ شكله من طلائه لكنه خلا من روائه وبهائه، وفي بعض بلادنا العربية يقولون لمن كانت ملامحه جميلة لكنه غير مليح، **جماله ليس فيه السر، وكما يقولون: ليس كلُّ ما**

(١) انظر: تفسير المنار، جـ١ صـ٢٠، ٢١، بتصرف يسير.

يلمع ذَهَبًا، أما عبارات الشيخ فَقُوَّتُها من حقيَّتها وثباتها، من رسوخها، وكما يقول المفسِّر المخبت ﷺ: «إن الكلمة لتولد ميتة وتنبعث هامدة ما لم تنبعث من قلب صاحبها وروحه؛ إن كلماتنا عرائس من شمع إذا متنا في سبيلها دَبَّتْ فيها الروح، وكتبت لها الحياة».

٤) **الروح اللاهبة في البيان**، فلا يكتفي الشيخ الجليل بعمق المعنى ووفرته، وغنى البيان وروعته، بل تكاد تسمع صوته في كتابته، وتشعر بأنفاسه بين سطور ما يكتب، وتكاد ترى صورته وأنت تسمع صوته، كأنه يتحدث إليك من داخل نفسك، فلا تحتاج إلى تكلُّفٍ في القبول والإرعاء.

٥) **المزج بين عطاءات القرآن الكريم والخبرات الحياتية العملية**، فالرجل ليس عالم وَرَقٍ وقرطاس، بل فارس ميدان ورائد برهان، **(والرائد لا يكذب أهله)**؛ القلم في يده سلاح مجاهدٍ، والكلمة لديه قذيفة حقٍّ، يحطم الباطل ويدمغه، والميدان أمامه ميدان عمليٌّ؛ فمنذ صباه وهو يتقلَّب في ربوع الدنيا داعية ومعلِّمًا، ومُرَغِّبًا ومُرَهِّبًا، من أقصاها إلى أقصاها، فهو الشابُّ المكتهل الذي صحب الكبار، وقبس من أضوائهم **فسمعهم بعينه**، وآثر أن يكون رسول الصدق لهم؛ لأنهم فرسان ميدان.

٦) **قرب الأسلوب من نفوس القارئين للمزج بين التمكُّن العلمي وروح الداعية**، وهذا التزاوج لا يُعْطَى لكلِّ كاتب أو عالم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٧) **الجانب العملي المبني على تماس حقيقي واشتباك قوي مع الواقع** بناء على ممارسات دعوية، واجتماعية عالية.

٨) **المزج السلس بين علوم متنوعة** من التحليلي إلى توجيه القراءات، إلى نماذج من الواقع الغربي، إلى تمكُّن لغوي، كلُّ هذا صاغ الفكرة بصورة مميزة وفريدة.

٩) **توظيف القراءات القرآنية في هذا الحقل الخصيب**، ولم لا! والشيخ فارس هذا الميدان قراءة وإقراء.

وإني لأنتبه الآن من غفوتي بل غفلتي فأقول لنفسي: كيف سمحت نفسي لنفسي أن تقدَّم أو تكتب هذا التقديم لهذا العلم الجليل؟ فلا أرى له تخريجًا إلا أن يكون من باب كتابة الأصاغر للأكابر، وحُبًّا في أن أنال دعوة صالحة، وشفاعة من أهل القرآن نافعة، وكلُّ شفاعتهم نافعة.

أسأل الله تعالى لأخي الأحبِّ فضيلة الأستاذ الدكتور عبد السلام أن يقوِّي ظهره، وأن يبارك عمله، وأن يبلِّغ عنه، وأن يعينه على إتمام رسالته، وإكمال مهمَّته التي حملها على كاهله، رغم ثقل العبء، وقلة الظهير، وضعف النصير، ومشغلة الأقران، وتشعُّب الوديان، لكن كما قال أبو الطيب في بيته الفذِّ:

وإذا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا   تَعِبَتْ في مُرَادها الأجْسَامُ

وعند الصَّباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى.

كتبه الفقير إلى عفو مولاه:

رمضان خميس

كلية الشريعة- جامعة قطر

صبيحة يوم الثلاثاء

٢٠ من ذي القعدة ١٤٤٥هـ

٢٨من مايو ٢٠٢٤م

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ عزيز البطيوي

الحمد لله حقَّ حمده، أنزل الكتاب تبيانًا وتفصيلا لكل شيء، فكان عمدة الشريعة في الأحكام، وصوان الحكمة في بيان سنن الله ﷻ في تقلب الأيام، والصلاة والسلام على خير خلقه وخاتم رسله، بعثه الله ﷻ رحمة للعالمين؛ فبيَّن أصول الدِّين، ونهج سُنَن الله ﷻ في إقامة العمران المكين، وورثت عنه أمَّته ذلك فكانت بحقٍّ وسطًا شاهدة على الناس أجمعين.

شكَّل القرآن الكريم لحظة فارقة في تاريخ الإنسانيَّة، وافتتاحًا لعهد جديد من المعارف والعلوم، وكان بحقٍّ النصَّ المؤسِّس للعلوم في المجال التداولي الإسلامي في دوائرها الثلاث: الشرعيات (العلوم الشرعية)، والإنسانيات (العلوم الإنسانية والاجتماعية)، والكونيات (العلوم المادية والتطبيقية)، وقدَّم للعقل المسلم منهجًا جديدًا في تعقُّل الواقع، وفَهْمِ العالم، متجاوزًا كلَّ الأطر المفهومية والمرجعية والمعرفية للأنساق العلمية والفلسفية السابقة.

وينبِّؤنا تاريخ العلم أنَّ ثمة معطياتٍ حضاريةً، وشروطًا نفسية واجتماعية وثقافية وسياسية تتشابك مع النصِّ، وتتفاعل مع كلياته لتسهم في تأسيس العلم وتشكل نسقه الداخلي وبنيته المعرفية، فكان العلم، وبتوجيه من النصِّ، يتأسَّس بحسب حاجة المجتمع إليه، فظهرت تبعًا لذلك علوم شتى ملأت ساحة الحضارة الإنسانية، وأشعَّت بأنوارها على العالمين، وظلَّت معارف أخرى لم تتحول إلى علم قائم بذاته إما بسبب غياب الحاجة إلى ذلك، أو بسبب عدم اكتمال الشروط البنيوية والتاريخية للتأسيس النظري والمنهجي للعلم، أو بحكم ارتباط الأمة بقضايا ذلك العلم عمليًّا أكثر منه نظريًّا؛ من ذلك ما يسمى اليوم بعلم السنن الإلهية.

ومهما تصفحت كتب علماء الإسلام الأوائل في تصنيف العلوم؛ من الفارابي إلى ابن خلدون إلى طاش كبرى زاده، لن تجد ذكرا لهذا العلم، ليس لغفلتهم عنه أو جهلهم به، بل لأنَّ تهممهم بالمسألة السُّننية كان على مستوى الوعي والممارسة. لقد كان انشغالهم عمليًّا تطبيقيًّا تجلَّى فيه المنظور القرآني السُّنني على مستوى الوعي والممارسة الثقافية والإنجاز الحضاري العالمي، مع أن ثمة لحظات ضعف حضاري تراجع فيها منسوب الثقافة السُّننية، لكنها كانت لحظات إبداعات متميزة تقف على حقيقة الضعف الحضاري للأمة، فكان ذلك الجهد المعرفي والمنهجي للإبداع الخلدوني المتمثِّل في تلك النقلة الفكرية المتعلِّقة بالتقعيد والتأصيل لعلم سننيٍّ عمرانيٍّ. ولايمكن اعتبار هذا الإبداع الخلدوني قطيعة معرفية بحال من الأحوال إنما هو استجابة حضارية طبيعية لحركة الكسب المعرفي والمنهجي للعلم.

لقد فَهِمَ السلف في العهود الأولى المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وأدركوا أنه تضمَّن خلاصة السُّنَن التي تحكم حركة التاريخ والاجتماع البشري، فاتخذوه مصدرًا أساسا لمعرفة السُّنن، واكتشافها، واستنباطها، والوقوف على كيفية استثمار ميزانيتها التسخيرية وطاقتها الاستخلافية؛ إذ بها يحصل الاعتبار، وتُعْرَف أسباب النصر والهزيمة، وبإحكامها تتصدَّر الأمَّة قيادتها لأمم الأرض، وتنجو من التيه المنهجي والمعرفي والقيمي الذي أصاب النموذج الحضاري المعاصر.

وقد كانت مدرسة المنار من خلال جهدها التفسيري السُّنني للقرآن الكريم رائدة في مجال تأصيل علم السنن، والدعوة إليه، واتخاذه علمًا شرعيًّا مستقلًّا بنفسه تستنبط قواعده ومبادئه الكبرى من القرآن المجيد، وأداة منهجية معتبرة في فَهْمِ النصِّ القرآني، حتى تستعيد الأمَّة دورها الحضاريَّ موقع الوسط والشهادة على العالمين، وتحقِّق مقاصد أمانة الاستخلاف وعمارة الأرض.

ولايظن ظانٌّ أن الكتابة في موضوع السُّنن أمر متاح لكلِّ باحث أو كاتب، إذ هو صعب المرتقى، عزيز المنال؛ عقبة كؤود لايجوزها إلا صاحب علم تكامليٍّ متين وانتماء رساليٍّ مكين، وأما من قعدت به نفسه وضعفت همَّته عن خوض عرصات الحياة، فانزوى في زاوية مكتبه يرصع كلمات في السُّنن لا روح لها فيكون كمن استسمن ذا ورم، ونفخ في عير ضرم فأنى له ذلك، وإن طبع ونشر فإنما هو زبد يذهب جفاء.

وقد سعدت بقراءة كتاب: (المدخل إلى عِلم السُّنَن الرَّبَّانيَّة) للزميل الأستاذ الدكتور عبدالسلام المجيدي الذي أحسبه واحدًا من الأعلام المعاصرين في الدراسات القرآنية عمومًا، والباحثين في موضوع السُّنن الربانية على وجه الخصوص، لا تخفى كتاباته ومؤلَّفاته عن الباحثين والقراء المتابعين، ولا ينكر أثرها العظيم في ميدان التأصيل والتجديد، وهو الذي خطَّ لنفسه خطًّا مَيَّزَه عن غيره كما تدلُّ على ذلك مؤلَّفاته الماتعة في تفسير القرآن الكريم بمنهجية لم يسبق إليها قط.

وجاء كتابه في "علم السُّنَن الرَّبَّانيَّة" دقيقًا في إشكاليته، أصيلًا في موضوعه، لا يرتاب في جلالته وعظيم أمره، سواء من جهة وثوق دلالته أو من جهة شرف ثمرته، ولا تستسهل دقة متناوله وصعوبة مُتَهَمَّمِهِ؛ سواء من جهة ضبط الأسس المنهجية والمعرفية لعلم السُّنَن الرَّبَّانيَّة، أو من جهة الكشف عن أثر هذا العلم في فهم الخطاب الشرعي وتنزيله.

وقد تحقَّق المؤلِّف ببغيته في التكشيف عن مقصود "عِلم" السُّنَن الرَّبَّانيَّة، فسرح بنا بمهارة بيانية فائقة، ومكنة علمية رائقة، في بيان أهمِّيَّة هذا العلم، ودلالاته، وأسسه، ومصادره، وما تعلَّق بخصائص السُّنَن وأقسامها ووسائل التعرُّف عليها، مقدِّمًا نماذج تطبيقية لاستثمار السُّنَن في البناء ومعالجة الأزمات، فكان بحقٍّ لبنة أساس في صرح "عِلم" السُّنَن الرَّبَّانيَّة الذي هو المدخل لاستئناف المَسِير، واستعادة وظيفة الشهود الحضاري للأمَّة الإسلامية؛ تسديدًا

وتأييدًا، وسيجد فيه القارئ العادي بغيته، ويبلغ به الباحث المتخصِّص غايته، وسيكون، بإذن الله ﷻ، مرجعًا في باب السُّنَن لأهل الفكر والدعوة والإصلاح، فجزى الله مؤلِّفه خير الجزاء وتقبَّله منه بقبول حسن، والحمد لله العالمين.

د. عزيز البطيوي

أستاذ بقسم العقيدة والدعوة

رئيس وحدة البحوث والدراسات الإسلامية

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية/ جامعة قطر

مقدِّمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه بالحقِّ، وجعله أقوم قيلًا، وبعث به محمَّدًا ﷺ للأنام أهدى سبيلًا، وأقام خَلْقَهُ وأَمْرَهُ على سُنَنٍ ثوابتَ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّه الأعظم، ورسوله الأكرم ﷺ، من أعزَّنا الله ﷻ به من الذِّلَّة، وكثَّرنا به من القِلَّة، وهدانا به إلى خير مِلَّة.

أما بعد:

فإن الله ﷻ قد خلق الخلق ودبَّره على سَنَنٍ من القوانين والنَّواميس الدَّائرة بمقتضى حكمته البالغة، وعلمه السَّابق، وقضائه المبرم، وهذه السَّننيَّة المطَّردة كما نجدها جليَّة في حركة الخلائق والأفلاك المحسوسة المنظورة بالأعين، فإننا نبصرها في العوالم الحيَّة وحركة تاريخ الأجيال البشريَّة وتقلُّبات الأيام ببني الإنسان بين إيمان وكفران، وقوَّة وضعف، واجتماع وافتراق، وهزيمة وتمكين، ولكلِّ عالَمٍ من هذين العالَمَين في كون الله ﷻ الفسيح (الماديِّ، والاجتماعيِّ) قوانينُهُ الحاكمة بأمر الله ﷻ، ومقتضى حكمته البالغة، عَلِمَها من عَلِمَها، وجَهِلَها من جَهِلَها.

والنَّاظر بعين قلبه وبثاقب بصيرته يدرك أن الفَلَاحَينِ الدنيوي والأخروي مُناطان بمراعاة هذه السُّنَن، والأخذ بمقتضاها، والعمل بلوازمها، ولا يأخذنَّك العجب في أوديته إن قلنا لك إنَّ جموعًا من أهل الكفر قد أدركوا هذه الحقيقة في شِقِّها الأوَّل (المادِّيِّ) ففاقوا غيرهم وتقدَّموهم في مضمار الحياة والحضارة، وصارت لهم الحُظوَة والسَّطوة، ولا تعجب كذلك إنْ قلنا لك إنَّ ما تعيشه أمَّتُنا من ضعف وتأخُّر وتفرُّق وتقهقر حتى تسلَّط عليها عدوُّها الألدُّ، وتَغَوَّل عليها خصمها، إنما مردُّه لاطِّراحها سَنَنية التَّفكير وسُنَنية الفعل والتَّأثير.

والنَّاظر المتأمِّل المتدبِّر في كتاب الله العظيم والذِّكر الحكيم يجد أن الله ﷻ قد تكفَّل لهذه الأُمَّة ببيان المحجَّة، والسَّبيل السَّالك الآخذ بها إلى مدارج العزَّة، وذلك بما ضمَّنه فيه من قوانين الفلاح والنَّجاح الدُّنيويِّ والأخرويِّ، ونواميس التَّمكين وسُنَنِه الكفيلة -إن أخذت بها الأُمَّة- أن تأخذ بها إلى مراقي مجدها، فضلًا عمَّا ينتظرها من فضل الله ﷻ العميم، ونواله الكريم في الآخرة.

ولما كان الأمر كذلك فقد جدَّ العزم، وتوفَّرتِ الهمَّة -بتوفيق من الله ﷻ وإعانة- على كتابة هذه الدِّراسة المؤصِّلة لعلم السُّنَن الرَّبَّانيَّة برؤية قرآنيَّة، وقد عنونت لها بـ (**المدخل إلى عِلم السُّنَن الرَّبَّانيَّة**)؛ لتكون توطئةً منهجيَّةً بين يدي سلسلة دراسات تطبيقيَّة ستتلوها -إن شاء الله- من بينها:

١) كتاب (**عاقبة المنذَرين.. من السُّنَن الإلهيَّة التَّطبيقيَّة في تداول الأيَّام**).

٢) كتاب (**واصنع الفلك.. سُنَّة التَّدافع والخروج من عقبة الاستضعاف، رؤية قرآنيَّة لصناعة التَّوازن والسَّلام العالميين**)، وقد طبع هذا الكتاب باسم (اقتحام العقبة).

نسأل الله ﷻ أن يعجِّل بخروج جميع إصدارات هذه السِّلسلة المباركة، وأن ينفع بها.

أيُّها القارئ الكريم:

إنَّ مِنْ شأن إعمال السُّنَن الرَّبَّانيَّة في تفسير الواقع المعاصر، وتقديم الرُّؤى القرآنيَّة السُّنَنية لتقلُّبات الأيَّام، وتعاقب الأحوال بالأمم والمجتمعات، أن تَنتشلَ الأُمَّة من وَهْدة ضعفها، وتَصِلَها بكتاب ربِّها الهادي.

لقد كان من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أنْ تَضَمَّنَ وَحْيُه إلى الناس نَمَطِين من المفاهيم لا يَستغني عن أيٍّ منهما العقل البشري:

مفاهيم تتعلَّق بالمبدأ: فَصَّلَت نظام القِيَم في الإسلام وبيَّنت مضامين الرِّسالة التي جاء بها سيِّدُنا محمَّد ﷺ، وتجسيدات تلك الرِّسالة في ميادين السِّياسة والاقتصاد والاجتماع .. فهي مفاهيم تتعلَّق بـ"ماذا"؟ لا بـ"كيف"؟

ومفاهيم تتعلق بالمنهج: بيَّنت طرائق التَّطبيق ومناهج التَّغيير وسُنَنية الإصلاح والبناء، إمَّا من خلال قواعد منطوقة أو ضِمْنيَّة في النَّص ، أومن خلال الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ.. فهي تتعلَّق بـ"كيف"؟ لا بـ"ماذا" ؟

لمَّا أخذ الرَّعيل الأول من صالح سلف أمَّتنا بسُنَن التَّمكين ومقتضياته رفع الله ﷻ شأنهم وأعزَّهم ومكنهم من ناصية الحضارة فإذا ما نظرت إلى المسلمين في هذا العصر، وقد ضلُّوا سواء السَّبيل في الأخذ بسُنَن الخروج من أَسَنِ الاستضعاف.. ألفيت مجموع المشهدين كافيًا -وعزَّة ربِّنا- لبحث موضوع السُّنَن الإلهيَّة في الخروج من حالة الاستضعاف، كيف لا؟ وهو الذي يتعلَّق به النَّظر في تصاريف الحياة، وتقلُّب الدَّهر، والعلاقة بين الطُّرق الكسبيَّة في صنع عِزَّة الأمم، والحُلى الإيمانيَّة بما جرى في اللَّوح وخَطَّهُ القلم.. ولقد كان ذاكم همًّا يقضُّ مضجعي.. وما برحت أتقلَّب على جَمْر الغَضَا أتأمَّل فيه والخَلِيُّون هُجَّعٌ؛ إذ ترى الارتباك الواسع في معرفة كيفية المدافعة لجحافل الباطل المتوحِّشة؛ فإنَّ المدافعة لا تعني البتة التَّهور والاندفاع في غير آنه، ولا تعني الرُّضوخ والانكسار في غير زمانه.. كَلَّا! فالمدافعة توفيقٌ حقيقيٌّ لوضع كلِّ شيءٍ في موضعه بقَدْره.

ها أنت ترى استفحال الدَّاء، وكيف استغلَّت القوى المتوحِّشة هذا الارتباك في قلب موازين الحقِّ والباطل في الأرض، وحسبك أن ترى كيف لاثت نظرية (الفوضى الخلَّاقة)[1] التي أعلنت عنها (كونداليزا رايس) وعاثت.. لقد سمع العالم تلك الخطَّة الاستراتيجيَّة، فكأنَّهم لم يسمعوا شيئًا؛ إذ أنبتت أشواكها القاتلةَ من خلال المليشيات المتعدِّدة التي تعيث في الأرض فسادًا ما بين النَّهرين إلى عَدَن، والأبرياء حائرون!!.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] **طريق لاحبٌ وسبيل سالك لدرء الخطر، واستجلاب الظفر:**

انظر في الخريطة الجيوسياسيَّة للعالم لترى سيطرة رهيبة لأكثر القوى التي مرَّت على الإنسانيَّة توحُّشًا في التَّاريخ، بل بلغ توحُّشها أن تؤسِّس لنفسها منظَّماتٍ تقدِّم "الشَّرعيَّة" التَّامَّة لما كان يفعله فرعون ببني إسرائيل، وهنا يطرح الحائرون الباكون سؤالهم بألسنتهم

(١) مفهوم "الفوضى الخلاقة" اقرب إلى مفهوم "الإدارة بالأزمات" في المجال الاستراتيجي مع اختلاف الآليات والوسائل، ويعد (مايكل ليدين) العضو البارز في معهد " أمريكا انتربرايز" أول من صاغ مفهوم "الفوضى الخلاقة" أو "الفوضى البناءة" أو "التدمير البناء" في معناه السياسي الحالي، وهو ما عبر عنه في مشروع "التغيير الكامل في الشرق الأوسط" الذي أُعِدَّ عام٢٠٠٣م . وارتكز المشروع على منظومة من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الشاملة لكل دول المنطقة وفقا لإستراتيجية جديدة تقوم على أساس الهدم، ثم إعادة البناء.

وتعتمد نظرية " الفوضى الخلاقة" في الأساس على ما أسماه الأمريكي "صموئيل هنتجتون" بـ"فجوة الاستقرار" وهي الفجوة التي يشعر بها المواطن بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، فتنعكس بضيقها أو اتساعها على الاستقرار بشكل أو بآخر. فاتساعها يولد إحباطًا ونقمة في أوساط المجتمع مما يعمل على زعزعة الاستقرار السياسي، لا سيما إذا ما انعدمت الحرية الاجتماعية والاقتصادية، وافتقدت مؤسسات النظام القابلية والقدرة على التكييف الايجابي. ينظر: الفوضى الخلاقة بين الفكر والممارسة، ياسر ثامر، مقال بتاريخ ٣١/ ١/ ٢٠١١م.

رابط المقال: https: //nashwannews.com /oldarticles /159641/

المرتجفة، وقلوبهم الملتاعة، وأفئدتهم الواجفة، فيقولون: متى تتحقَّق العدالة، ويأتي النَّصر للمستضعفين؟

حينما تأتيك البصائر القُرآنِيَّة لتربط على قلبك، وتخبرك بنظام السُّنَن في الكون، وتنبئك بأن مصارع الظَّالمين، والقوارع التي تكفُّ بغي المعتدين لها أنظمتها، ومن أنظمتها التَّمكين التَّامُّ غير المنقوص للمجرمين لينالوا حظَّهم في الاختبار الدُّنيويِّ.. ستسمع الله -جلَّ ذكرُه- ينير لك الطُّرق لفهم الدُّنيا، وتقلُّباتها عندما يقول لك: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ [هود: ١٠٩]، وستسمعه تعالى جدُّه يقرِّر لك قانون الأجل المحدَّد الذي لا يغيِّره استفزازُ القوى المعتدية، ولا استهزاءُ الأحزاب الماكرة، فيقول لك: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

إن واقعًا كهذا بحاجة لكتابات علميَّة تنتقد دون تحامل، تُراجِع المسيرة دون تنكُّر لعطاءات أهل السَّبق، تستحضر ماضي الكسب والجهود المؤسِّسة، لكنها لا تقع أسيرة لها، أو تفتتن بها عن واقع الحال واستشراف المآل.

ويقيننا أنَّ الأُمَّة يوم أن تلتفت لهذا الكمِّ الزَّاخر من الكنوز القرآنيَّة من علم السُّنَن الرَّبَّانيَّة وتأخذ بها بقوَّة سيغيِّرُ الله ﷻ حالَها إلى أحسن حال وأجلِّه وأجمله؛ ذلك أن بصائر كتاب الله ﷻ وهداياته هي المنقذ الوحيد من وَهدة الضَّعف والاستكانة، والتأخُّر والغياب الحضاريِّ الذي تعيشه.

هذه الدراسة بسم الله مجراها ومرساها:

هذه الدِّراسة اقتضت وِجهةُ تأليفها المنهجيَّة أن تُقَسَّم إلى تسعة فصول، تهدف إلى تعريف السُّنَن الإلهيَّة، وبيان أنواعها، وأهمِّيَّتِها، ووسائل التَّعرُّف عليها، خصائصها بحسب الآتي:

الفصل الأول: تمهيدٌ: بين دراستين للسُّنَن التي تحكم النُّفوس الإنسانيَّة.

الفصل الثاني: التَّعرُّف إلى (السُّنَن).. إنها عَمَد قيام الحياة (ترونها).

الفصل الثالث: من أنواع السُّنَن التي تحكم حركة الحياة.

الفصل الرابع: أهمِّيَّة علم السُّنَن الإلهيَّة.

الفصل الخامس: معرفة العلوم المتعلِّقة برصد السُّنَن، والاستثمار المعرفيِّ.

الفصل السادس: وسائل معرفة السُّنَن الإلهيَّة.

الفصل السابع: خصائص السُّنَن الإلهيَّة.

الفصل الثامن: الأسس القيمية الكبرى لجريان السُّنَن الاجتماعيَّة والكونيَّة.

الفصل التاسع: قوانين عمليَّة تطبيقيَّة لإعمال السُّنَن في البناء، ومعالجة الأزمات، وصناعة النَّصر والعاقبة.

هذا، وإننا لنبتهل إلى الله ﷻ في كبريائه بكريم صفاته، وعظيم أسمائه، أن يهيئ لهذه الأُمَّة من أمرها رشدًا، وأن يسلك بها خير المسالك، لتعود إلى سالف عهدها هادية مهدية، عزيزة مهابة، إنه جواد كريم، عزيز حكيم.

عبد السلام مقبل المجيدي
s1435y@gmail.com
٨ ربيع الآخر ١٤٤٥هـ

٢٣ أكتوبر ٢٠٢٣م

المدخل إلى علم السُّنَن الرَّبَّانيَّة

الفصل الأول: تمهيدٌ: بين دراستين للسُّنَن التي تحكم النُّفوس الإنسانيَّة.

الفصل الثاني: التَّعرُّف إلى (السُّنَن).. إنها عَمَد قيام الحياة (ترونها).

الفصل الثالث: من أنواع السُّنَن التي تحكم حركة الحياة.

الفصل الرابع: أهمّيّة علم السُّنَن الإلهيَّة.

الفصل الخامس: معرفة العلوم المتعلّقة برصد السُّنَن الإلهية.

الفصل السادس: وسائل معرفة السُّنَن الإلهيَّة.

الفصل السابع: خصائص السُّنَن الإلهيَّة.

الفصل الثامن: الأسس القيمية الكبرى لجريان السُّنَن الاجتماعيَّة والكونيَّة.

الفصل التاسع: قوانين عمليَّة تطبيقيَّة لإعمال السُّنَن في البناء، ومعالجة الأزمات، وصناعة النَّصر والعاقبة.

عبد السلام مقبل المجيدي

الفصل الأول

تمهيدٌ ملتهب بين دراستين للسُّنَن التي تحكم النُّفوس الإنسانيَّة

الدِّراسة الأولى للتكوين الآدمي الذي سيصنع طبيعة الإنسان: الدِّراسة الإبليسيَّة المبكِّرة المستقصية:

قد تشعر بالتعجُّب عندما تعلم أن العدوَّ الأوَّل للإنسانيَّة (إبليس)، بادر إلى دراسة عدوِّه (آدم عليه السلام)، دون تردُّدٍ أو غفلةٍ أو إبطاء، بادَر إلى ذلك فور علمه بقدوم هذا الكائن الجديد، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لـمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ، تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يَطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلما رَآهُ أَجْوَفَ، عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ»[1].

فانظر لمحاولة تطبيق سُنَن النَّصر والظَّفر: فأول ما فعله المبادرة إلى دراسة ما أمامه، فما تباطأ ولا تثاقل ولا تأخَّر، ثم درس آدم عليه السلام دراسة ميدانيَّة مباشرة، «فجعل يَطِيفُ به»، ويجمع إلى فكره ما يمكنه أن يستنبطه «ينظر ما هو»، وطوافه بآدم عليه السلام يدلُّ على تأمُّلٍ متأنٍ حاذقٍ وفحصٍ دقيق وصبرٍ في الدِّراسة.. فهو يريد أن يدرك نقاط ضعفه، وقد قيل: (قبل الرَّمي يُرَاشُ السَّهمُ)، ثم لـما رآه أجوف، علـم أن له نقاط ضعف تمكِّنه من الفوز عليه في معركته التي يسعِّرها منذ وقتٍ مبكِّر، وقبل الوجود البشريِّ الكامل؛ ولذا استشرف نتائج الـمعركة الدُّنيويَّة مع الإنسان قبل أن يخلق.

كيف تعرف إبليس على ضعف آدم عليه السلام ؟

(١) مسلم (٢٦١١).

قال في بعض روايات هذا الحديث: «ظفرت!»[١]، وسبب شعوره بنشوة النَّصر: أنه رأى أن خلق آدم عليه السلام أجوف، فدلَّ على أنه ضعيف الصَّبر من وجهين:

أحدهما: أنه لا يثبت ثبوت ما ليس بأجوف، فهو خالٍ من الدَّاخل، وبه سُمِّي الجوف وكلُّ مقعر أجوف، وجوفُ كلِّ شيء قعرُه وداخله.

والثاني: أنه مفتقرٌ إلى الغذاء، لا يصبر عنه، فيطمع فيه إبليس من الوجهين[٢]، ففيه منافذ تمكن الشَّيطان من اختراقها، والسَّيطرة على البشر من خلالها، ثم وصل إلى النَّتيجة الحاسمة في معرفة نقطة الضَّعف المركزيَّة، فـ«عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالك» والتمالك: التماسك، أي: لا يتماسك عن ما يسد جوفه، ويجعل فيه أنواع الشهوات الداعية إلى العقوبات، ولا يحبس نفسه أمام أهوائه، بل يضعف عن السيطرة عليها، فلا يملكها عن الشهوات، ولا يدفع الوسوسة عنها عند الشبهات، ولا يتقوى بعضه ببعض، ولا يثبت أمام الإغراءات والتغيرات، بل يكون متزلزل الأمر، متغير الحال، مضطرب القال، مُعَرَّضًا للآفات، فكان الأمر كما ظنه، واستبان أن هذا المخلوق لَا يَمْلِك دَفْع الْوَسْوَاس عَنْهُ، ولَا يَمْلِك نَفْسه عِنْد الْغَضَب[٣].

وهذه دراسةٌ إبليسيَّةٌ دقيقة مدهشة، والنَّتيجة التي توصَّل إليها تدلُّ على قيمة فحص السُّنَن وأهمِّيَّته، والأنظمة التي تحكم النفس الإنسانيَّة، وتوجه سيرها.

وبهذا يحقُّ لنا إذن أن نبحر في عباب الكلام عن السُّنَن الإلهيَّة في الإنسان، والكون، والحياة؛ إذ يبصِّرنا ذلك بالدُّروع السَّابغات التي يجب أن تكسو عقول الإنسانيَّة وأفكارها؛ لتحصِّنها من الطَّواف الإبليسيِّ.

---

(١) مسند أبي يعلى (٦ / ٦٨)، قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي (١/ ٨٧١).

(٣) شرح النووي على مسلم (٨ / ٤٣٦)، فيض القدير شرح الجامع الصغير (٥ / ٣٧٩).

الخطَّة الإبليسيَّة المدروسة جعلت (الفراغ) المعرفيَّ والشُّعوريَّ والعاطفيَّ بابًا يغرس من خلاله سيوف الإلحاد، ويرمي به بأسْهُمِ التَّشكيك، ويزرع عبره كمائن الفسق التي تعصف بالعالم.

الدِّراسة الثانية: الدِّراسة النَّبويَّة المدهشة لبعض السُّنَن الاجتماعيَّة الحاكمة للمجتمعات البشريَّة:

وفي مقابل ذلك تجد نفسك تشعر بالدَّهشة والإعجاب البالغين عندما تلمح جزءًا يسيرًا من جوانب العظمة النَّبويَّة لشخصيَّة النَّبيِّ ﷺ، حيث تجد فيها مقابلة الدِّراسة الإبليسيَّة للنَّفس الإنسانيَّة بدراسةٍ للسُّنَن الحياتيَّة، ففي حوارٍ جرى بينه وبين ربِّه ﷻ في بدايات تكليفه بمهمة إنقاذ العالم، قدَّم دراسة مختصرةً تشخِّص الواقع لكنَّها تتَّسم بالوفاء والدِّقة والإبهار من حيث إدراك السُّنَن الإلهيَّة في الطَّبيعة البشريَّة.. ولنسمع لهذا الحوار يحكيه النَّبيُّ ﷺ في إحدى خطبه، فيقول: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أمرني أَنْ أُعَلمكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا علمني يومي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلالٌ، وإني خَلَقْتُ عبادي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بي مَا لـم أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الماءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ»، ثم بين أن الله ﷻ كلفه بمهمة إنقاذ العالم، والبدء في ذلك بتبليغ قريش.. وينبغي أن تسمع تعبيره عن ذلك؛ إذ قال في بيانٍ لافتٍ: «**وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا**»[١].

(١) مسلم (٢٨٦٥).

هنا تشعر بمدى إدراك النَّبيِّ ﷺ لصعوبة مهمته، وتعارضها مع السُّنَن (العُرفيَّة) [١] التي صنعتها العقول البشريَّة لتغطِّي على الفطرة الإنسانيَّة السَّويَّة، لقد أمره الله -جلَّ وعزَّ- بتبليغ الرِّسالة التي حدَّد هدفها الإنقاذيَّ العظيم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وذلك لا يعني إحراق قريش؛ بل يعني فِعْلَ أجمل ما تحتاجه قريش، وتقديم المصالح العظيمة التي تحقِّق لقريش مجدها الدُّنيويَّ والأخرويَّ، ولذا ورد في رواية ابن حبَّان رحمه الله: «**أمرني أن أخبر قريشًا**»[٢]، فما سر هذا التَّعبير المخيف؟ لماذا قال النَّبيُّ ﷺ ذلك؟

إنه أعظم البشريَّة مقامًا وإدراكًا لطبيعة السُّنن الحاكمة للنُّفوس البشريَّة بعد أن غيَّرت فطرتها شياطين الإنس والجنِّ، علم مقدار تأصُّل السُّنَن المنحرفة الحاكمة لعقولهم، فلمَّا أمره الله ﷻ بأن يتدارك قريشًا والبشريَّة من حمأة السوء التي يعيشون فيها، لمَّا أمره أن ينتشلهم من القوانين البائسة التي يرزحون تحتها، والقِيَم الطَّائشة التي يتحاكمون إليها، شعر ﷺ أنَّ تبليغه لقريشٍ بما ينفعهم لن يجد منهم شعورًا سلسًا، ولن يصادف ترحيبًا، بل سيوجد ردَّة فعلٍ عنيفة عنف البراكين، ثائرة ثورة النِّيران المشتعلة، سيظنُّون أنه سيحرقهم عندما ينتشلهم من تلك القوانين الظَّالمة التي أَلِفوها واعتادوها، تخيَّل كيف يمجِّدون قوانين عبادتهم لحجارة لا تضرُّ ولا تنفع، وتصوَّر ردَّة فعلهم عندما يقال لهم: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

---

(١) السنن العرفية: أي الأعراف والعادات الاجتماعية التي صنعها البشر ضمن مجتمع واحد، مثل العادات القبلية أو عادات قريش والعرب في عبادة الأصنام مثلًا، واعتبار ذلك إرثًا ثقافيًا.

(٢) صحيح ابن حبان بتحقيق الأرناؤوط (٦٥٣)، قال الأرناؤوط: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير العلاء بن زياد، فقد روى له النسائي، وابن ماجه، وهو ثقة».

وهنا جاء التَّعبير البليغ الذي يصوِّر حالتهم الثَّائرة الملتهبة عندما يدعوهم البشير النذير والسِّراج المنير، لتستمع معي لـمقدار الإدراك النَّبويِّ العظيم لثقل تبليغهم بما يقيم العدل في الكون، يقول: «**فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رأسي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً**»، فاستبان أنَّ الإحراق الـمذكور هو التَّبليغ؛ إذ سيولِّد ردَّة فعلٍ عندهم تساوي هذا القدر من الوحشية.

إنها كلمات الإدراك النَّبويِّ لواقع السُّنَن الاجتماعيَّة التي تحكم البشريَّة، يعبِّر بها النَّبيُّ ﷺ عن ردَّة فعلهم الـمتوقَّعة، ويبيِّن من خلالها مقدار الانحراف الذي حكم العالـم، حتى أصبح مجرَّد تبليغهم بأنَّ هناك إلهًا واحدًا ينظِّم الكون ويدبِّر أمره، يكفي لأن يقوموا عليه قومة الوحوش، ويحاربوه الحرب العبوس الضَّروس، ويأخذوا الصَّخرة فيرموا بها رأسه، يا له من تعبيرٍ مذهل! وذلك ما حدث حرفيًّا في الـمستقبل؛ إذ كان أوَّل من جافاه وعاداه، ورماه بسهم الغدر الجارح عمُّه أبو لهب، فقال له: «تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ: أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟»[1].. يا لَلشُّعور بالـمرارة والألـم، هذا عمُّه، فكيف غيره؟!

وهنا يبيِّن النَّبيُّ ﷺ أن الله -تعالى ذكره- يرسم لنبيِّه ﷺ عددًا من السُّنَن التي يغالب بها من ناوؤوه أو ناوؤوا الدَّعوة الوليدة، ومنها:

«اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ[أي: نعينك]، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِق عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ...»[2].

(١) البخاري (٤٧٧٠).

(٢) مسلم (٢٨٦٥).

السُّنَن التي بيَّنها النَّبيُّ ﷺ بصورة تطبيقيَّة:

تأمَّل لهذه السُّنَن التَّطبيقيَّة الـمذهلة.. إنها تكفل أن تنقلب الصُّورة الـمخيفة التي استشعرها النَّبيُّ ﷺ ذاكرًا جبروت الاعتداء الـمتوقَّع على دعاة الحقِّ والعدل والإحسان:

السُّنَّة الأولى: «اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ»، ومن الصُّوَر الدَّاخلة في استخراجهم: معاملتهم بالـمثل ليتمَّ الرَّدع.

السُّنَّة الثانية: «وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ»، أي: لا تكن في موقف الدِّفاع الدَّائم حال إصرارهم على الاعتداء الـمجرم.

السُّنَّة الثالثة: «وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ»، هل يمكنه أن ينفق إن لـم يتاجر، ويعمل على إشاعة الجوِّ الـمناسب للاستثمار، ونموِّ الأموال؟ إن هذا الكلام يدلُّ على مقدار اهتمام الإسلام بإنشاء التَّنافس الـماليِّ، والتِّجارة النَّامية، والجو الآمن الذي يكفل ذلك، وهنا تعلم لماذا قال الموفَّق من أصحابه عندما وصلوا إلى المدينة النَّبويَّة: «دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ»[1].

السُّنَّة الرابعة: «وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ»، فهذا أمرٌ باتِّباع سُنَّة من سُنَن المغالبة، وهي سُنَّة يقدر عليها البشر تتمثَّل في تجميع الأنصار والحشود، ولو كانوا أقلَّ من العدوِّ الـمقابل، وانتظار البركة الإلهيَّة لتجعلهم أضعافًا في الفعل، وإن كانوا قليلًا في أعين العالـمين.

وإنَّ نظرة متأمِّلة في مجريات الواقع يجد نشاطًا محمومًا لدى عصب الفجور والضَّلال في التَّحشيد والتَّكتيل يقابله تراخٍ وترهُّل في جموع المحقِّين، وتواكل مهين في فئام حملة المنهج الحقِّ المبين.

---

(١) البخاري (٣٩٣٧).

ثم يختم النَّبيُّ ﷺ هذا الحديث الـماتع ببيان القوانين التي تحكم الفلاح الأخرويَّ القائم على تحقيق الفلاح الدُّنيويِّ، فيقول: «وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِم، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ. وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لا زَبْرَ لَهُ -لا عقل له- الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لا يَتْبَعُونَ أَهْلًا وَلا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِى لا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ»، وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ، «وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ».

لاحِظ أنَّ مدار الفلاح الدُّنيويّ والأخروي في ذكر أهل الجنة وأهل النار يقوم على مدى الصِّدق والعدل والرَّحمة والخُلُق الإنسانِيِّ النَّبيل، وهو أمرٌ يكثر في القرآن تقريره ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، وهذه العظمة النَّبويَّة تذكِّرنا بقول (غاندي) في ساعة صفاء نادرة مبينًا القيمة الحقيقية التي قدَّمتها النُّبوَّة الخاتمة لإصلاح الإنسانيَّة:

"The sayings of Muhammad are a treasure of wisdom not only for Muslims but for all of mankind"

ومعناها: إن تعاليم (محمَّد) كنزٌ من الحكمة، ليس فقط للـمسلـمين، بل لكلِّ البشريَّة(١).

---

(١) ينظر هذا الكلام في الرابط:

https://consultquran.com/page/٣٤/famous-sayings-about-islam-quran-prophet-muhammad-pbuh

نقلًا من كتاب (Young India) أي: الهند الفتية أو الشابة لـ (Mahatma Gandh).

"عاقبة المنذرين" يذكّر بالنَّفسيَّة المزَّمّلة وبالرُّوح المثابرة المدَّثرة:

أما النَّفسيَّة المزَّمّلة، فتربطك بالمزَّمِّل ﷺ؛ إذ ناداه الله ﷻ ليصلح نفسه بالتَّبتل إلى الله ﷻ تبتيلًا، علَّمه ألا يخاف من المكذِّبين أولي التَّنعم الماديِّ الطَّاغي، والتَّباهي العسكريِّ الفاتن، ألَّا يخاف من أولي السَّطوة المخابراتيَّة المرعبة، أمره ألَّا يخاف من أولي الدَّجل الإعلاميِّ الذي يقلب الحقَّ باطلًا، اقرأ الآيات، واسمعها كأنَّما تتنزَّل عليك اليوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾– إلى أن قال– ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ –اقرأ كلامه إلى أن قال جلَّ في علاه– ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل: ١ – ١١].

إن النَّفسيَّة المزَّمّلة تذكِّرك بالتَّوكل على القوَّة الغيبيَّة التي تحكم هذا الكون، إنها قوَّة الله العليِّ المقتدر، والتَّعلُّق بهذه القوَّة الغيبيَّة يبقي يقين التَّغيير في النُّفوس المكسورة، والقلوب المتألِّمة ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

وأما الرُّوح المثابرة المدَّثرة فتجعلك تعتصم بحبل المدَّثر ﷺ؛ ليذكِّرك دومًا بوجوب العمل، واتِّباع السُّنَن المادِّيَّة دون تباطؤ ولا كلل: فتقوم متحرِّكًا لا نائمًا ولا فاترًا؛ لتنذر العالم من عواقب الكفر والفسوق والعصيان، لتنذرهم من الانهيار المتوقَّع بسبب الطُّغيان المادِّيِّ والغرور والتَّجبُّر الإلحاديِّ، وتجمع إلى الإنذار، أن تكبِّر الله ﷻ فتعظِّمه على أوسع ما تستطيع من الإظهار، لتمتلئ القلوب من تكبيره، وأن تطهِّر الثِّياب الظَّاهرة، والقلوب الباطنة، وأن تقاطع الرُّجز غير هيَّاب من عُبَّاد الذَّات الذين جعل الله ﷻ لهم مالًا ممدودًا، وسخَّر لهم البنين في الأرض ليشكِّلوا القوات ويُسَخِّروا الثَّروات.. فإذا هم يسخِّرونها في عناد آيات الله ﷻ، ومعارضة أمره في الأرض، واسمع لآيات النَّفسيَّة المدَّثرة يناديها باريها لكأنَّما أنزلت علينا اليوم، فيقول جلَّ في علاه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦﴾ [المدثر: ١ - ١٦].

دور الخلايا المجرمة النَّشطة في استجلاب الدَّمار الحضاريِّ لمن يتجاهل "النُّذُر"، والغفلة عن استشراف مخاطر المستقبل:

"ثمود" حضارة ضخمة ما زالت آثارها قائمة إلى يومنا يراها كلُّ من مرَّ عليها من النَّاس..

قام ببناء هذه الحضارة الضَّخمة قبيلة بأكملها، فكيف هلكت هذه الحضارة العظيمة؟

ينبئك القرآن عن النَّبأ العظيم الذي أحلَّ بثمود هذا الدَّمار؛ فقد قادَ النَّشاط الأوَّلَ للإفساد قُدَارُ بن سالف الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢﴾ [الشمس: ١٢]، بذل قُدَار بن سالف جهده في تزييف الوعي، وخاطب قبيلته كأطفال يتلاعب بعقولهم، فحدَّث القبيلة عن صالحٍ عليه السلام ودعوته، وأثار فيهم حميَّة الجاهليَّة، فمالأه على ذلك ثمانية نفرٍ من النَّاشطين في بثِّ الإجرام في الأرض، فأصبحوا تسعة من القيادات المجرمة النَّشطة، وحدَّثنا الله ﷻ عنهم فقال: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ۝٤٨﴾ [النمل: ٤٨]، فحرَّك التِّسعة في ثمود طغواها المستترة، فبدأت تظهرها، فلمَّا آتاهم الله ﷻ النَّاقة آية مبصرة يرونها معجزة تغلب كلَّ منطقٍ أعوج يتكلمون به، تآمر الحزب التُّساعيُّ الأشقى على صالح عليه السلام، وتعاونوا على الإثم والعدوان لإبطال آثار بيِّناته، ومنعه من بثِّ الوعي التَّغييريِّ الذي يقودهم نحو الحقِّ المبين، وهنا تقدَّم صالحٌ عليه السلام ليحذِّر قومه من طاعة القيادات النَّشطة المستكبرة، فقال لهم: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ۝١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢].

لكنَّ القوى المستكبرة أبت الانقياد للحقِّ، وأرادوا التَّخلُّص من صالحٍ عليه السلام وصُلَحاء قومه، بيد أنهم لم يتجرَّأوا على ذلك لظهور معجزة حسِّيَّة بينهم هي النَّاقة التي طلبوا أن تظهر لهم على غير المعتاد، وكان لا بدَّ من قيادة جريئة تقوم بما لم يستطع غيرها القيام به، فأثاروا أسوأهم ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ هنا ترى "عاقبة المنذَرين"، ويصف الله سبحانه وتعالى ذلك فيقول: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٢٩ - ٣١].

> **إن الأشقى ينبعث دومًا ليقود قومه نحو هلاكٍ محتَّم، فانظر إلى أشقى هذه الأمَّة هذه الأيام كيف يعربد في الأرض، ويظنُّ نفسه في منأى عن دمدمة ثمود.**

الرِّضا بالحياة الدُّنيا والاطمئنان بها يحطِّم صيحات المنذِرين، ويجعل المجرمين يخاطبون الشُّعوب كأطفال:

لم أر تحطيمًا للنِّذارة المشفقة التي تهتف بها حناجر المنذِرين مثل الزَّهو بالمعرفة المستغنية.. أن يفرح المخاطَب بأنَّ عنده من العلم ما يكفي لفهم أمور الحياة، فتكون النَّتيجة وخيمة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

ما زلت أعجب من بعض الإسلاميين في هذه الأيام أكثر من عجبي من غيرهم؛ إذ أسفر التحكم الطاغي لزعمائهم عن ردٍّ لكل تواصٍ بالحق، ونصيحة بالخير يقدمها من لا ينتمي إلى أحزابهم، عَشَوْا عن معرفة الصواب في التعامل مع الأحداث؛ فإن وجدوا نصحًا ممن هو خارج دائرة نفوذهم الحزبية –حتى ممن ينتمي لهم– فرحوا بما عندهم من الرأي، فما أنجاهم فرحهم من الخسران والألم.

وقد شخَّص الأكاديميُّ البريطانيُّ الأستاذ بجامعة أوكسفورد: عبد الحكيم مراد ظاهرة التَّجافي والتَّعالي الفكريَّ لدى بعض الإسلاميين فدعاها "فقر التَّعصُّب" the poverty of fanaticism" في حين وسمها بعضهم بأنه "مذهب الاكتفاء والانكفاء"؛ ذلك أن التَّعصب وليد إحساس بالكبرياء الفكريِّ والاقتناع الزَّائف بعدم الحاجة إلى ثقافة الآخرين وعلومهم. ومن المعلوم في التَّاريخ الثَّقافيِّ أن التَّعصب يؤدِّي إلى الفقر الفكريِّ والجدب الرُّوحيِّ[1].

أليست الغفلة عن "عاقبة المنذرين" تجعل الأمم ترى مصارعها قريبة دانية، وتبصر نفسها تسير في طريق الموت، ثم تأبى إلا أن تسير فيه؟

لقد ذكر (نعوم تشومسكي) عشر وسائل يستخدمها الإعلام ليغسل بها عقول الشُّعوب في مقال له بعنوان: "10strategies of manipulation by the media" (عشر استراتيجيَّات التَّلاعب من قبل وسائل الإعلام) كشف فيه بكثافة كيف يقوم الوحوش اللَّاعبون المحترفون الكبار بالعبث بالبشريَّة الغافلة.

---

(١) ينظر: "فقر التعصب والتدين اليابس"، مقال لمحمد مختار الشنقيطي، بتاريخ ٢١/ ١٢/ ٢٠١٩م، رابط المقال: https://www.ajnet.me/opinions/2009/12/21/%D9%81%D9%82%D8%B1-

واعتمد (تشومسكي) في كشفه لتلك الاستراتيجيَّات على وثيقة يعود تاريخها إلى مايو ١٩٧٩م، وتمَّ العثور عليها سنة ١٩٨٦م، و تحمل عنوان: "الأسلحة الصَّامتة لخوض حرب هادئة"، وهي جديرة بالنَّظر، وفيها نذارة حقيقية للملهاة القائمة في العالم اليوم، ولكن كيف كان "عاقبة المنذرين"؟

وهذه الاستراتيجيَّات العشر تتلخَّص:

١) استراتيجيَّة الإلهاء.

٢) اخلق المشكلة ووفِّر الحلَّ.

٣) التَّدرُّج: لتحقيق ما يمكن قبوله من تدابير يمكنك تسويقه تدريجيًّا قطرة بقطرة، فخلال الثَّمانينات والتِّسعينات من القرن الماضي تمَّ فرض عدد من الظُّروف الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة الجديدة والمختلفة بشكل جذريٍّ عن سابقتها تدريجيًّا... والعديد من التَّغييرات الجذريَّة التي كانت ستتسبَّب في ثورة لو تمَّ تطبيقها دفعة واحدة.

٤) التَّأجيل: لتمرير قرار غير مقبول شعبيًّا قدَّمه على أنه "موجع، ولكنه ضروريٌّ"، فكأن المقصود تأجيل القرار الصَّحيح مقابل الضَّروريِّ.

٥) خاطب العامَّة كأنَّهم أطفال، والحقيقة أن كثيرًا من الأنظمة يخاطبون شعوبهم كأنهم أطفال، أما ذوو الوعي، فيتكفَّل بهم "المخدَّرون من المنذَرين" ليغيِّبوهم في السُّجون أو القبور.

٦) استخدم الجانب العاطفيِّ بدلًا من الجانب التَّأمليِّ.

٧) إبقاء العامَّة في حالة من الجهل والغباء.

٨) تشجيع العامَّة على الرِّضا بجهلهم.

٩) تحويل التَّمرُّد إلى شعور ذاتيٍّ بالذَّنب: من خلال جعل كلِّ فرد يشعر بأنه السَّبب في تعاسته وسوء حظِّه، وذلك بسبب قصور تفكيره وذكائه وضعف قدراته، وقلَّة الجهود المبذولة من جانبه، وهكذا بدلًا من أن يتمرَّد ضدَّ النِّظام، ينغمس في الشُّعور بالتَّدنِّي الذَّاتيِّ الذي يؤدِّي لحالة من الاكتئاب تحبط أيَّ محاولة للفعل لديه.

١٠) معرفة الأشخاص أكثر مما يعرفون أنفسهم: فبفضل علوم الأحياء والأعصاب وعلم النَّفس التَّطبيقيِّ، تمكَّن (النِّظام) من معرفة الكائن البشريِّ جسديًّا ونفسيًّا، فالنِّظام يستطيع معرفة الشَّخص العاديِّ بشكل أفضل مما يعرف هو نفسُه، وهذا يعني أن النِّظام -في أغلب الحالات- هو الذي يملك أكبرَ قدر من السَّيطرة والسُّلطة على الأفراد أكثر من الأفراد أنفسهم.

الفصل الثاني

التَّعرُّف إلى (السُّنَن).. إنها عَمَد قيام الحياة (ترونها)

أولًا: تعريف السُّنَّة في اللغة والاصطلاح:

١) التعريف اللغوي:

إن أردنا التَّعرُّف إلى المعنى القرآني لكلمة (سُنَن) فلا بدَّ من الرُّجوع أولًا إلى اللِّسان العربيِّ المبين الذي نزل به القرآن الكريم، فللسان العربيِّ الأهمِّيَّة المركزيَّة في إدراك دلالات الكلمات والمصطلحات، فهو الأصل في فَهْم الكلام، وفي استبانة المعاني العظام، وعند الرُّجوع إلى كلمة: (سُنَّة) مفرد: (سُنَن) في أصلها اللُّغويِّ[(١)] نجدها مشتقَّةً من: (سَنَّ) التي تعني: «عَمِل عملًا يتمُّ به الاقتداء، ويصبح فيه أنموذجًا لغيره، فيتابعونه عليه، سواء أكان حسنًا أم قبيحًا»، وكأنه شقَّ طريقًا يسير فيه الآخرون؛ إذ السُّنَّة في الأَصْل: الطَّرِيق، فيقال: هُوَ طريقٌ سنه أَوَائِل النَّاس، فَصَارَ مَسلكًا لمن بعدَهم، وسَنَّ فلانٌ طَرِيقًا من الْخَيْر يَسُنُّه: إِذا ابْتَدَأَ أمرًا من البِرِّ لم يَعرِفه قومُه، وكذا من الشَّرِّ، فاستَنُّوا بِهِ وسلكُوه، وَهُوَ يَسْتنُّ الطَّرِيقَ سَنًّا وسنَنًا؛ قَالَ نُصَيب بن رباح أبو محجن:

كــأنِّي سَــنَنْتُ الحُــبَّ أَوَّلَ عاشِــقٍ ... مــن النَّــاسِ أَوْ أَحْبَبْــتُ بَيــنهم وَحْــدي[(٢)]

---

(١) المصطلحات كالأعلام المنقولة يراعى فيها لمحُ الأصل المنقولِ عنه، والأصل اللغوي يبين لنا سبب رغبة المسمِّي في التسمية. انظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٢١١)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ٢١٣٩)، مقاييس اللغة (٣/ ٦٠)، المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٤١٧)، لسان العرب (٣/ ٢١٢٣).

(٢) نسبه الأزهري في تهذيب اللغة لنُصَيب، ومثله صنع ابن منظور في اللسان والمرتضى في تاج العروس. ينظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٢١٥)، لسان العرب (١٣/ ٢٢٥)، وتاج العروس (٣٥/ ٢٤٣).

والسَّنَن والسُّنَّة: الطَّريقة المستقيمة، يقال: استقام فلان على سَنَن واحد، وسَنَّ اللهُ ﷻ سُنَّةً: أي بَيَّن طَرِيقًا قويمًا.

وجاءت لغة لمعانٍ متعدِّدة بينها قاسم مشترك، منها: الطَّريقة، والسِّيرة، والمنهج، والشَّريعة، والبيان القويم، والوضع، والاتِّباع، والعادة، والاقتداء، وكلُّها تشترك في معنى أصليٍّ واحدٍ كما ترى.

وجمع "السُّنَّة": سنن، ولها الوجوه اللَّفظيَّة الآتية: السُّنَنُ، والسُّنُن، والسَّنَنُ، والسَّنِنُ.

٢) تعاريف السُّنَّة العرفيَّة حسب العلوم المختلفة:

فالسُّنَّة في اصطلاح المُحَدِّثين: ما أُثر عن النَّبيِّ ﷺ من قولٍ، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خَلْقيَّة، أو خُلُقيَّة[1]، والسُّنَّة في اصطلاح الأصوليِّين مثل ذلك إلا أنهم اقتصروا على ما قاله رسول الله ﷺ، أو فعله، أو قرَّره[2]، وهذا التَّعريف يكاد يكون مطابقًا للتَّعريف الحديثيِّ إلا في الصِّفة التي لهم فيها تفصيلٌ، وعرَّف السُّيوطيُّ رحمه الله السُّنَّة في (الكوكب السَّاطع) بزيادة (هَمِّ النَّبيِّ ﷺ) فقال[3]:

قَوْلُ النَّبِيِّ وَالْفِعْلُ وَالتَّقْرِيْرُ   سُنَّتُهُ وَهَمُّهُ المَذْكُوْرُ

والسُّنَّة في عرف الفقهاء: مرادف للمستحبِّ.

فما الذي تراه في كلِّ هذه التَّعاريف؟

---

(١) شرح علل الترمذي (١/ ١٥٦).

(٢) الإبهاج في شرح المنهاج (٥/ ١٧٤٩)، نهاية السول شرح منهاج الوصول (ص: ٢٤٩).

(٣) الكوكب الساطع (ص: ٢٤٥).

إنه الاشتراك في كون السُّنَّة هي الـمنهج، أو النِّظام، أو العادة، أو الطَّريقة التي عاش عليها النَّبيّ ﷺ؛ ولذا **فالسُّنَّة في عرف الشَّرع بصفةٍ عامَّة: الطَّريقة الـمشروعة في الدِّين**، ضدَّ البدعة، وبذلك تشمل كلَّ مسائل الدِّين.

وأما (السُّنَّة) في سياق ما نحن بصدده فإنها تأخذ معنى أخصَّ، وقبل أن نخلص إلى وضع تعريف ضابط لها وَفْقَ قصد هذا البحث وغرضه نقف مع ما سطَّره أساتيذ ومحققو مَنْ كتب في سُنَنِيَّة الخلق وتدبير الأحوال:

لنستمع أولًا إلى تقي الدِّين أبي العبَّاس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن تيميَّة (٦٦١- ٧٢٨هـ) رحمه الله يعرِّف السُّنَّة فيقول: «كلُّ عادةٍ كانوا عليها، فإن السُّنَّة هي العادة، وهي الطَّريق التي تتكرر لنوعٍ من الناس مما يعدونه عبادة، أو لا يعدونه عبادة»[١]، ويستنبط رحمه الله حكم السُّنَّة: «والسُّنَّة: هِيَ الْعَادة فِي الْأَشْيَاء الـمتماثلة... وَالسُّنَن، وأَسْنَان الـمشْط، وَنَحْو ذَلِك بِلَفْظ السُّنَّة، يدلُّ على التَّمَاثُل؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إذا حكم فِي الْأُمُور الـمتماثلة بِحكمٍ، فَإِنَّ ذَلِك لَا ينْتَقض، وَلَا يتبدَّل، وَلَا يتحَوَّل، بل هُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُفَوِّت بَين الـمتماثلين، وَإِذا وَقع تَغْيير، فَذَلِك لعدم التَّمَاثُل، وَهَذَا القَوْل أشبه بأصول الجُمهُور الْقَائِلين بالحكمة فِي الْخلق وَالْأَمر، وَأَنه سُبْحَانَهُ يُسَوِّي بَين الـمتماثلين، وَيفرِّق بَين الـمخْتَلِفين، كَمَا دلَّ الْقُرْآن على هَذَا فِي مَوَاضِع، كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ٣٥﴾ [القلم: ٣٥]، وَمن هَذَا الْبَاب صَارَت قصَص الـمتَقَدِّمين عِبْرَةً لنا، وَلَوْلَا الْقيَاس، واطراد فعله وسُنَّته، لـم يَصحَّ الاعتبار بهَا، والاعتبار إِنَّمَا يكون إذا كَانَ حكم الشَّيْء حكم نَظِيره»[٢].

---

(١) اقتضاء الصراط الـمستقيم لـمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٢٥٤).

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٥٥).

فقد تركز الفكر التَّيميُّ في تعريف السُّنَّة:

حول ذاتها، فهي عنده العادة.

وحول حكمها، فهي لا تتخلَّف، وإلا لزم تفاوت أصحابها.

وحول الاستفادة منها، فإنها بذاتها وحكمها تبثُّ لنا مجالًا للاعتبار بما حدث لأصحابها؛ إذ يحدث مقتضاها لكلِّ مماثلٍ لهم، وكما ترى فإنَّ العادة الدَّائمة نظامٌ مستقرٌّ، وهنا تلمس جمال قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: ٤٣].

وقد مضى على الفكر ذاتِه صاحبُه أبو عَبد الله محمَّد بن أبي بَكر بن أيُّوب الزَّرعيُّ الشَّهير بابن قيِّم الجَوزيَّة (٦٩١- ٧٥١هـ) رحمه الله، فهاهو يعطي مثالًا جزئيًّا على هذه العادة الإلهيَّة الدَّائمة في الأشياء المتماثلة، فيقول: «سُنَّته سبحانه: عادتُه المعلومة في أوليائه، وأعدائه؛ بإكرام هؤلاء، وإعزازهم ونصرتهم، وإهانة أولئك، وإذلالهم وكَبْتِهم»[1].

ثم وجدنا بعض المعاصرين حاولوا ذكر تعريف مركَّز لها، من خلال بيان واقع الوجود البشريِّ في الأرض، فقالوا: «هنالك وحدة أو تناسق بين النَّواميس التي تحكُم الأرض - وتحكُم الكون كلَّه- والنَّواميس التي تحكُم هذا المخلوق وقُوَاه وطاقاته، كي لا يقع التَّصادم بين هذه النَّواميس وتلك، وكي لا تتحطَّم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضَّخمة!»، والنَّواميس غير مشهورة لغة لتكون رديفة السُّنَن، لكنني وجدت محمد بن أحمد البلخيَّ الخوارزميَّ (ت٣٨٧هـ) رحمه الله صاحب (مفاتيح العلوم) استخدمها في هذا المعنى، فقال عن

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٩٩).

النَّواميس: «هي السُّنَن التي تضعها الحكماء للعامَّة؛ لوجهٍ من المصلحة، واحدها: ناموس»[(١)].

والتَّعريف يجمع بين السُّنَن الكونيَّة، والسُّنَن الاجتماعيَّة الفعليَّة، ويزيد الأمر إيضاحًا تعريف راشد سعيد شهوان السُّنَن بأنَّها: «آيات الله (وقوانينه) في كونه، وخلقه، وعاداته في سالف زمانه، ومنهجه التَّشريعيُّ القائم في عباده»[(٢)].

وهذا تعريف محكم، ولا بد أن نوضح هنا أمرًا يتعلق بمصطلح (سنة) عند الفقهاء، فالوضوء مثلًا منهجٌ تشريعيٌّ قائم، وهو سنة بلغة الفقهاء أي طريقةٌ سار عليها النبي ﷺ بواجباتها وأركانها ومستحباتها، لكنه ليس سُنَّة كونيَّة، ولا يدخل بذاته ضمن السُّنَن التَّشريعيَّة، إلا أن يقال: سُنَّة الصَّلاة الطَّهارة (أي: نظام الصَّلاة قائم على الطَّهارة، وليس المراد المصطلح الفقهيَّ للسُّنَّة).

ويمكننا أن نعيد تعريف السُّنَّة بالنَّظر إلى ماهيتها وخصائصها بأنها:

«القانون الكونيُّ أو التَّشريعيُّ المهيمن المطَّرد، مُثْمِرًا عاقبةً جزائيَّة، بناء على سلوك الخلق».

والاطِّراد قد يكون اطِّرادًا كونيًّا فطريًّا قهريًّا، وقد يكون اطرادًا تشريعيًّا مطلوبًا أو مرهوبًا.

---

(١) مفاتيح العلوم (ص: ١٦١)، مع أنني لم أجد فيما راجعته من معاجم اللغة كلمة (الناموس) بهذا المعنى، بل هي واردة في صاحب السِّرِّ في الخير، ويقابله الجاسوس صاحب السِّرِّ في الشَّرِّ، ونجد هذا التَّعريف القطبيُّ قد نسج نحوَه غيرُه من المعاصرين، فيعرِّف د/ الغمراوي السُّنَن في كتابه (سنن الله الكونيَّة) (ص: ٦): بأنها: «النُّظُم التي فطر الله ﷻ عليها الخلق، فهو علم الفطرة، ويقابله علم الطَّبيعة أي ما طبعت عليه الأشياء»، ويعرف السُّنَّة د/ رمضان خميس في كتابه (مفهوم السُّنَن الرَّبانية) (ص: ٣٣) بأنها: «القانون الضَّابط المهيمن، والفعل النَّافذ الحاكم، الذي يجري باطِّراد وثبات، وعموم وشمول مرتَّبًا على سلوك البشر».

(٢) تأصيل علم السُّنَن (ص: ١٧، ١٨).

ألا ترى أنَّ الله ﷻ قرن السُّنَن بالجزاء المتوقع على العمل الواقع فقال -جلَّ مجده-: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(١)، والاتِّباع هو الاقتفاء والاستنان، فمن عمل بشيءٍ من سَنَنهم، فقد اتَّبع سُنَّة جاهليَّةً(٢)، ويفهم منه أنه يحلُّ به ما حلَّ بالجاهليِّين.

يمكن أن تقرِّر بأن السُّنَن طرقٌ سببيَّة يكون بها الإعمار أو الدَّمار للواقع الفرديِّ والجماعيِّ في الحياة الدُّنيا، وكما تعبِّر عن الوسيلة والجزاء الدُّنيويين، فإنها موضِّحة للمصير الأخرويِّ المتوقَّع، فهي المقدمّة التي تؤدِّي إلى الجزاء الأخرويِّ.

ثانيًا: الاستعمال القرآنيُّ لكلمة (سُنَّة):

شاع ورود لفظ (السُّنَّة) ومشتقَّاتها وكثر دورانها في القرآن الكريم حتى ليصحُّ أن تعدَّ مصطلحًا قرآنيًّا، وباستقراء المواضع التي ورد فيها نجدها لا تخرج عن المعاني الآتية:

- فقول الله ﷻ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي: هذا حُكمُه وأمرُه وطريقته المستقيمة في إنقاذ المظلومين، أو تدمير الظَّالمين.

-وقولُ الله ﷻ: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، قيل: متغيِّر، وقيل: مَصْبوب على سُنَّة الطَّرِيق.

وفيما يأتي استقراء للمواضع التي وردت فيها لفظ (السُّنَّة) في القرآن الكريم، والكنور المعرفية التي تبصِّرنا بها:

---

(١) البخاري (٧٣٢٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٢٥٤).

الكنز المعرفيُّ الذي يقدِّمه الاستعمال القرآنيُّ لكلمة (سُنَّة)

الكنز المعرفي الذي يقدِّمه الاستعمال القرآنيّ لكلمة ﴿سُنَّة﴾

الموضع الأول ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137]

تلكر الآية التَّقعيد العامَّ للحياة، وأنها تتكوَّن من سُنَنٍ سار عليها الأقدمون بناء وهدمًا، وتعميرًا وتدميرًا، ونصرًا وهزيمة.

الموضع الثاني ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: 26]

ذُكر في هذه الآية المقاصد العظمى للشريعة في حماية الأسرة والمجتمع الإسلاميّ.

الموضع الثالث ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38]

هذه الآية تتكلَّم عن معركة بدرٍ، كلماتها تَجْمَعُ الْوَعِيدَ، وَالتَّهْدِيدَ، وَالتَّمْثِيل بِمَنْ هَلَكَ مِنَ الْأُمَمِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ بِعَذَابِ الله عز وجل.

الموضع الرابع ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٢.. لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾ [الحجر: 10 – 13]

تتحدَّث هذه الآيات عن سُنَّتَين تاريخيَّتَين: سُنَّة التَّكذيب الفاشية في المبطلين أمام حقائق الحقّ، وسُنَّة التَّعذيب اللَّاحقة بالمجرمين

الموضع الخامس ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 77]

يبين الله عز وجل في الآية سُنَّة التَّدافع المبدئي والمواجهة بين أصحاب الحق، وقوى الباطل.

الموضع السادس ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: 55]

تتحدث الآية عن شبهة يكثر ترديدها، وهي: إن كنت أيُّها الرُّسول على حقٍّ، فأتنا بأنواع من العذاب.

الموضع السابع ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]

ذكر الله عز وجل هذه السُّنَّة في صدد بيان القانون الشَّرعي الثابت الذي يتضمَّن تبليغ الرِّسالة بغضِّ النَّظر عن العواقب.

الموضع الثامن ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62]

هذه الآية جاءت في سياق الحفاظ الصارم على الأمن العام، وهي تحمل تهديدًا واضحًا للعابثين بالأمن والسِّلم الاجتماعيين.

الموضع التاسع ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ..﴾ [فاطر: 43]

وردت كلمة: سُنَّة هنا في صدد تقرير الإحاطة بالماكرين، وارتداد المكر السَّيئ على أهله مهما كانت احتياطاتهم.

الموضع العاشر ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: 85]

السُّنَّة هنا واردة في صدد بيان قانون كونيٍّ شرعيٍّ يشرح لنا فيه: أنه لا تُقبل التوبة عند معاينة العذاب.

الموضع الحادي عشر ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23]

الآية تحكي سُنَّة تولِّي الكفار الأدبار عند المواجهة إن تحقَّقت شروطها.

عبد السلام مقبل المجيدي

إننا نجد أنفسنا ونحن نطالع كتاب الله، أو نقرأ سُنَّة رسوله ﷺ بإزاء تأكيدات عديدة، آيات وأحاديث، تضع الجماعة البشريَّة المؤمنة في قلب العالم والطَّبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التَّنقيب عن السُّنَن والنَّواميس(١).

وممَّا يلفت النَّظر تكرُّر ذكر هذه الكلمة (سُنَّة) في القرآن المجيد مفردةً ومجموعة في عشر سُوَرٍ قرآنيَّة ستَّ عشرة مرَّة:

مرةً واحدةً مقطوعة عن الإضافة في سورة آل عمران، ومرةً واحدة في سورة النِّساء بالجمع: (سُنَن) بالإضافة إلى الذين من قبلنا، ووردت في المواضع الباقية مفردةً مضافةً إما إلى اسم الجلالة الظَّاهر، وهو الكثير، وإمَّا إلى المضمر، وهو القليل، وإمَّا إلى السَّابقين الأوَّلين من الأنبياء والمرسلين والأمم السَّالفة، وهو أقلُّ، أفلم يهد للذين يقرأون الكتاب أن يحاولوا البحث العميق حول سرِّ هذا التَّكرار؟

وذكر المحقِّقون أنَّ على «المفسِّر أن يتعرَّف عادات القرآن من نَظْمِه وكَلِمِه»(٢)، وأنَّ «من تتبَّع مجاري الحكايات في القرآن عَرَفَ مداخِلَها، وما هو منها حقٌّ مما هو باطل»(٣).

فمن خير المسالك في تطلُّب معاني الألفاظ كثيرة الدَّوران في كلام الرَّحيم الرَّحمن استقراء مواضعها، وتتبُّع مواطن ورودها؛ لنقف على عُرْف القرآن في توظيفها؛ فإنَّ ممَّا «يجب تنزيل كلام الشَّارع على عُرْفه؛ إذ الغالب منه أنَّه إنما يناطقنا فيما له فيه عُرْف بعُرْفه»(٤).

وإليك استعراضًا سريعًا لهذه المواضع:

---

(١) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، (ص: ٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٤).

(٣) الموافقات (٤/ ١٦٣):

(٤) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، (ص: ٨٧).

الموضع الأول: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]:

هذا هو الموضع الأول الذي تذكر فيه كلمة: (سُنَن) حسب التَّرتيب المصحفيِّ للقرآن الكريم، كما ترى! إنه في سورة (آل عمران)، **والآية تذكر التَّقعيد العامَّ للحياة، وأنها تتكوَّن من سُنَنٍ سار عليها الأقدمون بناء وهدمًا، وتعميرًا وتدميرًا، ونصرًا وهزيمة.**

لقد اقتضى الإحكام الإلهيُّ لكلمات القرآن المجيد أن يكون ذكر هذه الكلمة في هذا الموضع لشِدَّة الأهمِّيَّة ولظهور المناسبة، فلهذا الموضع مَزِيَّتُه الواضحة من حيث سورتُه التي ورد فيها، ومن حيث بيئتُه القُرآنِيَّة ضمن آيات السُّورة، هلمَّ إليَّ لنتدبَّر ذلك:

فمن حيث سورتُه: تجد أنه ورد في سورةٍ تتكلَّم عن العلاقات الدَّوليَّة والمحلِّيَّة مع أهل الكتاب، وخاصَّة العالم المعظِّم لآل عمران وهم النَّصارى، ينبغي أن نستحضر الاسم ثانية: سورة (آل عمران).

ألا ترى أن في هذا إشارةً واضحةً لدراسة (علم السُّنَن الإلهيَّة) من مصادره؛ لجعل النَّجاح والتَّفوُّق هو النَّتيجة المتوقَّعة من العلاقات الدَّوليَّة والمحلِّيَّة؟

كيف لمن ينتسب للإسلام أن يحقِّق النجاح في علاقاته الخارجيَّة أو الدَّاخليَّة دون أن يبحث في سورة آل عمران عن سنن الاتِّصال النَّاجح مع الآخرين، ويدرس بعمقٍ سُنَنَ الاتِّصال الفاشل الذي يؤدِّي إلى هيمنة الذين يقولون: ليس علينا في الأميين سبيل؟!

ومن حيث البيئة القُرآنِيَّة لهذا الموضع ضمن آيات السُّورة: تأمَّل السِّياق سِباقًا ولِحاقًا لتجد أن الآية واردةٌ في الكلام عن سُنَن النَّصر والهزيمة في النَّواحي الحياتيَّة عامَّة، وفي

النَّواحي العسكريَّة خاصَّة، فهي واردة في الكلام عن غزوة أحد التي صَاحَبها انكسار في تقدُّم النُّور الإسلاميّ أمام القوى الوثنيَّة، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾، إنها السُّنَن ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمَّد: ٤].

ومن أعظم قوانين النَّصر والهزيمة في التَّجاذبات بين الأمم: القوانين السُّننيَّة في معالجة الأخطاء، إنها الكنز المفقود الذي فقد كثيرٌ من المسلمين حسن الاستمداد منه على المستوى الفرديِّ والجماعيِّ، ما بالهم يبحثون عن المدارس الغربيَّة والشَّرقيَّة ثم لا يفقهون نور كتابهم إلا قليلًا؟!

تتوالى الكوارث التي لا تهدِّد الإسلاميين فقط ولكن المجتمعات بأسرها، وتكلِّف الوقت والجهد والمال والأرواح وفرص التَّقدُّم على المجتمعات.. ولكن لا أحد يتوقَّف للمراجعة.. ليست سَنَة ولا سَنَتين، ولا عقدًا ولا عقدين، إنه قرن كامل منذ ميلاد المشاريع العربية للتَّحديث سواء بوجهها الإسلاميِّ أو العروبيِّ أو اليساريِّ، وحال الأمَّة في تردِّي، والكلُّ يلقي باللائمة على الأطراف الأخرى.. ولكن لا مراجعة للذَّات(١).

تعال نسمع الإمامَ الطَّبريَّ ﷺ إمام الدُّنيا في التَّفسير وهو يذكر معنى واحدًا ضمن المعاني الواسعة التي تتضمَّنها المفاهيم السُّننيَّة الواردة في هذا الموضع فيقول:

«﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم يا معشر أصحاب محمد ﷺ وأهل الإيمان به، من نحو قوم عادٍ وثمود وقوم هود وقوم لوط، وغيرهم من سُلاف الأمم قبلكم ﴿سُنَنٌ﴾، يعني: مَثُلات سِيرَ بها فيهم، وفيمن كذَّبوا به من أنبيائهم عليهم السلام الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهلَ التَّكذيب بهم، واستدراجي إيَّاهم، حتى بلغ الكتاب فيهم

---

(١) أزمة التنظيمات الإسلامية (ص: ٢٥).

أجله الذي أجَّلته لإدالة أنبيائهم عليهم السلام وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، وأنزلتُ بساحتهم نِقَمي، فتركتهم لـمن بعدهم أمثالا وعِبرًا»[1]، **وأنت بصير أن الطَّبريَّ رحمه الله ذكر السُّنَّة الكلِّيَّة في الـمكذِّبين، بينما الآية تشير إلى سُننٍ متعدِّدة ترجع إلى هذه السُّنَّة الكلِّيَّة، كما أن بداية الآية عامَّة في الـمكذِّبين، وفي غيرهم:** ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾**، فالسُّنَن تشمل الـمصدِّقين والـمكذِّبين، إلا أن ختامها خصَّ الـمكذِّبين لأمرين:**

مناسبة السِّياق، ولإجرائها على هيئةٍ تشبه (الاحتباك)، وهو الأسلوب العربيُّ الفذُّ الذي يظهر إعجازه حسب استعماله، فالـمقصود: فانظروا كيف كان عاقبة الـمكذِّبين والـمصدِّقين، ولكنَّه ذكر الـمكذِّبين؛ ليعلـم الـمصدِّقون أن طريق بناء الحياة، وتشييد الخيريَّة للعالـمين لا يتمُّ بالأحلام الورديَّة، بل إن الـمكذِّبين بالـمرصاد للنِّيَّات الخيِّرة، والأفعال الإيجابيَّة الصَّالحة الحسنة.

هنا سترى الطَّبريَّ رحمه الله قد عاد بعد هذا التَّقعيد الكلِّيِّ، فذكر سُنَّة الهزيمة التي تَحْدُث للـمسلـمين أحيانًا في معركةٍ حيويَّةٍ، كما حدث في أُحُد، وأنها لا تعني الهزيمة الكلِّيَّة في الحرب، ولا في الحياة، وسار ابن كثير رحمه الله[2] على الفهم ذاته.

ويذكر ابن عاشور رحمه الله الحكمة من التَّعبير بـ(قد) التي تفيد تأكيد الخبر، وذلك «لَمَّا ظَهَرَ عليهم من انكسار الخواطر مِنْ جَرَّاءِ الهزيمة الحاصلة لهم من المُشرِكِينَ، مَعَ أَنَّهُم يُقَاتِلُونَ لنصر دين الله عز وجل، وبعد أن ذاقوا حلاوة النَّصْرِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبَيَّنَ اللهُ عز وجل لَهُمْ أَنَّ الله جل جلاله جعَلَ سنَّة

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٦).

هَذَا العالم أن تكون الأَحوَالُ فِيهِ سِجَالًا وَمُدَاوَلَةً، وَذَكِّرْهُمْ بأحوال الأمم الماضية... لئلَّا يَغْتَرَّ مَنْ يأتي بعدَهم من الـمُسلمين، فَيَحْسَبُ أَنَّ النَّصرَ حَلِيفُهُم»[1].

ملمح آخر في هذا الموضع جديرٌ بالوقوف عنده مليًّا، هو قوله سبحانه: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ فهذان أمران صريحان من لدن الحقِّ لنا بالسَّعي لاكتساب علم السُّنَن، وتسخير الوسائل والقدرات لاستكشاف سُنَنِه في الأوَّلين ومطالعة أخبار الماضين، والعجب يتعاظم من مسلم يهتمُّ لأوامر الله ﷻ في جزئيَّات العبادات وشؤون المعاملات -وهذا مطلوب مرغوب دون ريب- ولكنه لا يرفع رأسًا بأوامر الله ﷻ وتعاليمه المُوَجِّهة المرشِّدة للسَّير الاستهدائيِّ الكلِّيِّ في الحياة. والأعجب من ذلك أن نرى فئامًا من أمم أخرى تَقْدَمُ إلى بلادنا، وتجول في نواحي الأرض الأخرى طولًا وعرضًا سياحة وتفكُّرًا وتدبُّرًا في أحوال الأمم والحضارات الأخرى، وربَّما أَتْبعوا ذلك بتسجيل مذكِّرات، ووضع دراسات جادَّة رصينة في نشوء الحضارات والدُّوَل وعوامل نهضتها وسقوطها، وكان الأولى بأبناء الإسلام السَّبق إلى مثل ذلك وما هو خير من ذلك.

الموضع الثاني: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٦]:

وهذا هو الموضع الثاني لذكر كلمة: (سُنَن)، وهو موضع شديد التَّميُّز أيضًا بصورةٍ مدهشة، فقد ورد في سورة النِّساء، وهي السُّورة التي تنظِّم مبادئ الحقوق والواجبات على المستوى الاجتماعيِّ والأُسَريِّ وَفْقَ بيانٍ معجزٍ مذهلٍ.

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٩٦).

فَذِكْرُ علم (السُّنَن) في سورة آل عمران ارتبط ببيان العلاقات الدَّوليَّة والمحلِّيَّة مع غير المسلمين، وخاصَّةً النَّصارى، واتصل ببيان سُنَن النَّصر والهزيمة في المعارك العسكريَّة، وتعلق بالمنهج القرآنيِّ في علاج الأخطاء.

وحينما يقول جلَّ ذكره: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ويجعل تعليمَ الخلقِ السُّننَ، وتبيين مسالكها، ومسارح إعمالها منوطًا به ﷻ، فإنه بهذا يُعْلِي من شأن علم السُّنَن، ويؤكِّد على وجوب التَّعمُّق في تلقيه وفقهه.

هذا الكنز المعرفيُّ السَّننيُّ الذي بين أيدينا يلفتنا إلى النَّقلة النَّوعيَّة (الحضاريَّة والفكريَّة) التي أحدثها القرآن الكريم في العرب الأوائل، وهم مادَّة الإسلام الأولى، هؤلاء القوم «لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم- قبل الإسلام- لتسمح لهم بمثل هذه النَّظرة الشَّاملة. لولا هذا الإسلام- وكتابه القرآن- الذي أنشأهم به الله ﷻ نشأة أخرى، وخلق به منهم أمَّة تقود الدُّنيا.. وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزَّمان! إنَّما حملتها إليهم هذه العقيدة. بل حملتهم إليها! وارتقت بهم إلى مستواها، في ربع قرن من الزَّمان. على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التَّفكير العالي إلا بعد قرون وقرون ولم يهتدوا إلى ثبات السُّنَن والنَّواميس الكونيَّة، إلا بعد أجيال وأجيال».

أما ذكر (السُّنَن) في هذه السُّورة، فقد ارتبط ببيان الحقوق والواجبات التي تشكِّل النِّظام الاجتماعيَّ، وتقيم السَّعادة الأُسريَّة، وتحمي المستضعفين في الأرض، فتحقِّق بذلك السِّلم الاجتماعيَّ، والتَّماسك المجتمعيَّ، وتبني الأمَّة المترابطة.. سترى أن الله ﷻ ذكر في هذه الآية **المقاصد العظمى للشَّريعة في حماية الأُسرة والمجتمع الإسلاميِّ، ولنأخذ شيئًا من تفصيل ذلك:**

المناسبة والاتصال (البيئة القُرآنِيَّة):

ذكر الله ﷻ في سورة النِّساء قبل هذه الآية الأحكام والتَّشريعات السَّابقة المتعلِّقة بتثبيت الحقوق الإنسانيَّة العالميَّة، وإنصاف الفئات المستضعفة على وجه الخصوص، وبدأها بذكر حقوق المرأة، وردَّ الاعتبار لها باعتبار الكرامة البشريَّة، ثم تخلَّل ذلك حقوق اليتامى، وفَصَّل حقوق السُّفهاء على المجتمع، وانتقل إلى حقوق الرِّجال والنِّساء في الفرائض والمواريث، وبيَّن بعد ذلك حقوق البناء الأُسريِّ، وضمنه بيان العلاقات الأسريَّة وقيامها على أسس محدَّدة، فربما طرأ سؤالٌ عن أسباب هذه التَّشريعات الدَّقيقة المتناهية في التَّنظيم والتَّفصيل، فجاء الجواب في هذه الآية ببيان قواعد الشَّريعة الكلِّيَّة، وحِكَمها العامَّة، ومقاصدها العظمى في حماية الأُسَر والمجتمع وإرادة الخير للمجتمعات البشريَّة، وهنا تظهر مكانة هذه الآيات المباركات، ولمعرفة مكانة هذه الآيات الثلاث يكفي أن تستمع إلى ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وهو يبيِّن للنَّاس ما نزِّل إليهم فيقول: «ثَمَانِ آيَاتٍ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ هِيَ خَيْرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النِّساء: ٢٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النِّساء: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: ١١٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النِّساء: ٤٠]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النِّساء: ١١٠]، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]»[1].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٦٧٤٤)، وقال المحقِّق (الدكتور عبد العلي عبد الحميد): إسناده ضعيف.

المقاصد الغائيَّة التي لأجلها أنزل الله ﷻ القرآن الكريم:

وقد ذكر الله ﷻ في الآية الأولى منها ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أربعة مقاصد غائية أنزل الله ﷻ القرآن لأجلها، وهي:

الـمقصد الأعظم الأول: يبصِّرنا به قوله جلَّ مجده: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، فمن مقاصد التَّنزيل القرآنيِّ: التَّبيين الإلهيُّ لـما تحتاجه البشريَّة مما لا تستطيع أن تدركه بنفسها بسهولة:

وربما لا تستطيع إدراكه أبدًا، وهذا الـمقصد هدفٌ عظيمٌ من التَّشريعات الإلهيَّة ليتمَّ التَّكريم الرَّبانيُّ للإنسان ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.. أن يـُمَلِّككم الـمعرفة الحقيقيَّة لِـمَا تجهلونه، ويخبركم عن العلـم الحقِّ لـما لـم تعلـموه، **فاللَّام في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ تدلُّ على محذوفٍ يبيِّن قوَّة التَّعبير القرآنيِّ**، والتَّقدير: أنزل الله ﷻ لكم هذه الآيات، ووضع لكم هذه التَّشريعات ليبيِّن لكم، والخطاب هنا وإن كان عالـميًّا، لكنه يخصُّ المؤمنين بمزيد عناية، فما كان الله ﷻ ليضلَّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبيِّن لهم ما يتقون، وعندها يتَّبعون النَّافع، ويتركون ما يحذرون.

فإن قلت: فما الأثر المترتِّب على هذا المقصد؟

الجواب: إن أهمَّ أثرٍ يترتَّب على هذا الـمقصد هو حصول الكفاية بالتَّوجيهات الرَّبَّانيَّة لسعادة الحياة البشريَّة، لا تعبأ بمن يزعم عدم قدرة الشَّريعة الإسلاميَّة على إصلاح الأوضاع العالـميَّة.

واستحضر شاهدًا على أهل الكتاب من أنفسهم، **هو الكاتب الإنجليزي (برنارد شو)** الذي قال: «إن رجال الدِّين في القرون الوسطى، ونتيجة الجهل أو التَّعصُّب، رسموا لدين محمَّد صورة قاتمة، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحيَّة، لكنني اطلعت على أمر هذا الرَّجل، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصَّلت إلى أنَّه لم يكن عدوًّا للمسيحيَّة، بل يجب أن يسمَّى منقذ

البشريَّة، وفي رأيي أنه لو تولَّى أمر العالم اليوم، لوُفِّقَ في حلِّ مشكلاتنا بما يؤمِّن السَّلام والسَّعادة التي يرنو البشر إليها، لو تولَّى العالَمَ الأوروبيَّ رجلٌ مثل محمَّد لشفاه من عِلَلِه كافَّة»[1].

نحِّ جانبًا ادِّعاء القوى الجاهلة المتعصِّبة بأن الإسلام يحتاج أن يتعلَّم من ظلمات الأنظمة التي أورثت الإنسانيَّة هذا الشَّقاء المريع الذي ترزح البشريَّة تحت وطأته.. **إنهم قومٌ لا يعلمون!**

ولنستحضر هنا نقل ابن الوزير رحمه الله **(ت٨٤٠هـ) في الرَّدِّ على** من زعم أن الإسلام بحاجة إلى تقريراتٍ بشرية تعدل من جوهر أنظمته الفكريَّة والعملية:

أَوَليسَ كان المصطفى بتمامِهِ ... وبيانِه أولى، فَلِمْ لَمْ يُخبِرِ؟
ما بالُهُ حتى السِّواكَ أبانَهُ ... وقواعدُ الإسلامِ لَمْ تتقرَّرِ
إن كان ربُّ العرشِ أكملَ دِينَهُ ... فاعجبْ لمُبْطِنِ قولِه والمُظهِرِ
أو كان في إجمالِ أحمدَ غُنْيَةٌ ... فَدَعِ التَّكلُّفَ للزِّيادةِ واقصِرِ
ما كان أحمدُ بَعدَ مَنْعٍ كاتمًا ... لهِدايةٍ كلَّا وربِّ المَشْعَرِ
بل كانَ يُنْكِرُ كلَّ قولٍ حادثٍ ... حتى الممات فلا تَشُكَّ وتَمْتَري
وكذا القرابةُ والصَّحابةُ بَعْدَهُ ... ما بين راوٍ ضابطٍ ومُفَسِّرِ
أو بَيْنَ هادٍ للأنامِ بِعِلْمِهِ ... أو مُوردٍ لغريبةٍ أو مُصْدِرِ[2]

---

(١) ذكر ذلك في كتاب له أسماه (حياة محمد)، وقد أحرقته السلطة البريطانية. ينظر: أقوال بعض المستشرقين عن الحبيب في هذا الرابط: https://islamonline.net/archive

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٣/ ٤١٠).

إننا نستطيع القول بكلِّ ثقة أنَّ «القرآن يطرح على العقل البشريِّ -إذًا- ولأوَّل مرَّة، مسألة "السُّنَن" و"النَّواميس" التي تُسَيِّرُ حركة التَّاريخ وَفْقَ منعطفها الذي لا يخطئ، وعَبْرَ مسالكها "المقنَّنة" التي ليس إلى الخروج عليها سبيل»[1]، وما على الأمَّة المستهدية المتطلِّعة للفَكَاك من أَسْرِ الجمود والكبوة الحضاريَّة سوى العودة الحقَّة للمَعِينِ المدرار بكلِّ هداية ورشد.

المقصد الأعظم الثاني: يبصِّرنا به قوله تعالى ذكره: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وهذه الكلمات النَّيِّرة تهدينا إلى أن من مقاصد التَّنزيل القرآنيِّ: تكوين المعرفة التَّاريخيَّة المتراكمة من خلال إدراك سُنَنِ الأوَّلين في الجوانب الإيجابيَّة والسَّلبيَّة:

ومن هداية الله ﷻ لنا سُنَن من كان قبلنا أن نعلم أنَّ الدِّين عند الله واحد، وهو الإسلام، وهو الدِّين الذي جاء به كلُّ الأنبياء ﷺ، وأنَّ معظم ما جاء به الأنبياء ﷺ من تشريعات أنظمةٌ متَّحدة؛ ومن هنا تعجب من هذه النَّبرة العدائيَّة التي يشنُّها المتعصِّبون من أصحاب الملل الأخرى، كما تنظر بعين الرِّيبة إلى تحالفهم مع المنافقين، والقوى الباطنية التي تريد تفجير الإسلام من داخله.

وترى في البيان الإلهيِّ لسُنَن من كان قبلنا هدفًا معرفيًّا يصلنا بدراسة الحضارات السَّابقة في جوانبها الإيجابيَّة والسَّلبيَّة، فالله ﷻ يريد لنا تحصيل معرفة الخير والشَّرِّ، وليس أن يحجب عنَّا المعرفة، كما تروِّج الخرافات الغريبة التي زُرِعتْ في قلب بعض الملل عن الخوف من أن يأكل آدم عليه السلام من شجرة معرفة الخير والشَّرِّ.

ومن المعرفة التي يريد الله ﷻ أن نتعلَّمها: المعرفة بتجارب الآخرين؛ ليتمَّ التَّراكم المعرفيُّ، وتنضج الخبرة البشريَّة، ويستفيد الناس من الإيجابيَّات، ويجتنبوا السَّلبيَّات.

---

(١) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، (ص: ٣٤).

وبذا يتعلَّم الـمسلـمون من رصيد الخبرة البشريَّة الـمتراكمة في الجوانب الإيجابيَّة، ليستطيعوا الاستفادة من أحسن ما آلت إليه التشريعات والتجارب السَّابقة، وليتقوا ما وقعت فيه الأمم من الخلل والزلل قبل مجيء النبي الخاتم ﷺ.

ومن الإرادة الإلهيَّة التي تهدينا سُنَن الذين من قبلنا أن نعرف ما شرعه لنا من الأحكام في ليبصِّرنا بالطُّرق التي بها تصلح الـمجتمعات، وتنمو عن طريقها السَّعادات، ومن ذلك: تنظيم الـمسائل الحقوقيَّة، والأمور الاجتماعيَّة، والـمسائل الفَرَضيَّة الإرثيَّة، وإنصاف الفئات الـمستضعفة في الـمجتمع، كاليتامى، والنِّساء، ولا يعزب عنك أن سبب نزول السُّورة في الـمقام الأول هو: إنصاف الأيتام والنِّساء، فعن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: مَرِضْتُ مَرَضًا فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي وَأَبُو بَكْرٍ، وَهُمَا مَاشِيَانِ، فَوَجَدَانِي أُغْمِيَ عَلَيَّ فَتَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ صَبَّ وَضُوءَهُ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي؟ كَيْفَ أَقْضِي فِي مَالِي؟ فَلم يُجِبْنِي بِشَيْءٍ، حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الـمِيرَاثِ(١)، وكان له تسع أخوات، حتى نزلت آية الـميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦](٢).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى جِئْنَا امْرَأَةً بِالأَسْوَافِ، وَهِيَ جَدَّةُ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَزُرْنَاهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَرَشَتْ لَنَا صَوْرًا، فَقَعَدْنَا تَحْتَهُ بَيْنَ نَخْلٍ، وَذَبَحَتْ لَنَا شَاةً، وَعَلَّقَتْ لَنَا قِرْبَةً مِنْ مَاءٍ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَتَحَدَّثُ، جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنَتَيْنِ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَاتَانِ بْنَتَا ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، أَوْ قَالَتْ: سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدِ اسْتَفَاءَ عَمُّهُمَا مَالَهُمَا وَمِيرَاثَهُمَا كُلَّهُ، فَلم يَدَعْ لَهُمَا مَالًا إِلَّا أَخَذَهُ، فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ؟

---

(١) البخاري (٥٦٥١).

(٢) الترمذي (٢٠٩٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

فَوَاللهِ مَا تُنْكَحَانِ أَبَدًا إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ؟ فَقَالَ: «يَقْضِي اللهُ فِي ذَلِكَ»، فَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ وَفِيهَا: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١] إِلَى آخِرِ الآيَة، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ادْعُوا لِيَ الـمَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا»، فَقَالَ لِعَمِّهِمَا: «أَعْطِهِمَا الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَلَكَ»[١].

فكانت هذه السُّورة المباركة أهمَّ دستور حياتيٍّ، تمَّ من خلاله التَّوزيعُ الحقوقيُّ للفئات المجتمعيَّة المختلفة، وأنصف النِّساء على وجه الخصوص، وسبق أدعياء العالم في وضع القوانين الحقوقيَّة التي يجب على المجتمع رعايتها بالنسبة لهنَّ، وهذا الإنصاف الحقوقيُّ أوصى الله ﷻ بقريبٍ منه فيمن كان قبلنا، ففي التَّوراة الحاليَّة بعض ذلك، فقد ورد في سفر العدد ممَّا يظهر لنا بارقةً عن السُّنَن التَّشريعيَّة لمن كان قبلنا:

٢٧: ١ فتقدَّمت بنات صَلُفْحَادَ بن حافر ...

٢٧: ٢ ووقفن أمام موسى، وأَلِعَازَارَ الكاهن، وأمام الرُّؤساء، وكلِّ الجماعة لدى باب خيمة الاجتماع قائلات:

٢٧: ٣ «أبونا مات في البريَّة، ولم يكن في القوم الذين اجتمعوا على الرَّب في جماعة قُورَح، بل بخطيته مات، ولم يكن له بنون».

٢٧: ٤ لماذا يحذف اسم أبينا من بين عشيرته؛ لأنه ليس له ابن؟ أعطنا مُلكًا بين إخوة أبينا.

٢٧: ٥ فقدَّم موسى دعواهن أمام الرَّبِّ.

---

(١) الدارقطني (٥ / ١٣٧)، و(فرشت): يعني نصبت، والصَّور: النَّخل الصغار التي يستظلُّ بها. (وأصل الحديث في أبي داود [٢٨٩١]، والترمذي [٢٠٧٩]، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٦/ ١٢٢)، وقال الأرناؤوط: «إسناده محتَمل للتحسين من أجل عبد الله بن محمد بن عقيل، وقد صحَّح الترمذي الحديث من طريقه. إلا أن قوله هنا: بنتا ثابت بن قيس، خطأ، والصحيح: بنتا سعد بن الربيع كما أشار المصنف بإثر الحديث. وقد صحَّحه ابن الملقن في "البدر المنير" [٧/ ٢١٣]».

٢٧: ٦ فكلم الرب موسى قائلًا:

٢٧: ٧ «بحق تكلمت بنات صَلُفْحَادَ، فتعطيهن مُلكَ نصيبٍ بين إخوة أبيهن، وتنقل نصيب أبيهن إليهن».

٢٧: ٨ وتُكَلِّمُ بني إسرائيل قائلًا: «أيُّما رجل مات، وليس له ابن، تنقلون ملكه إلى ابنته.

٢٧: ٩ وإن لم تكن له ابنة، تعطوا ملكه لإخوته... » إلى آخر ما ذكر في تلك التَّشريعات(١).

المقصد الأعظم الثالث: يبصِّرنا به قوله تعالى مجده: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فالتَّوبة مفتوحة عند حدوث الإخفاقات، أو ارتكاب السَّيِّئات، فلا تظنُّوا أن وقوعكم في حُفَر الذُّنوب، أو الإخفاقات يمنعكم من النُّهوض مرَّة أخرى:

فهو سبحانه يريد التَّوبة علينا، ولا يريد الانتقام منَّا، وقد يسر سبيل التَّوبة، فجعلها تتمُّ إما عن طريق إقامة الحدِّ والعقوبة لمن بلغت جنايته أن يعاقب، ورغب في التَّطهير، وإما أن يطهِّر نفسه بالتَّوبة المباشرة بينه وبين ربِّه ﷻ، دون أن يفشي ذنبه لأحد.

المقصد الأعظم الرابع: يبصِّرنا به قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦﴾ [النساء: ٢٦]، وهذا المقصد يعني إيجاد الثِّقة بمصدر التَّشريع:

فالله ﷻ عليمٌ بالجوانب الإصلاحيَّة للحياة البشريَّة في الأمور الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وهو حكيمٌ يضع الأمور في مواضعها، ويقيمها في مراتبها، حكيم في تنزيل ما يعلمه صالحًا لكم في وقته المناسب، ومكانه المناسب، دعني أضرب لك مثلًا عجيبًا هنا حول إحكام الأحكام الشَّرعيَّة، ومدى السَّبق الإسلاميِّ في تقرير ما ينفع الناس:

---

(١) ينظر: سفر العدد: الإصحاح ٢٧، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية (ص: ١٤٤).

فقد نُشِرَ مؤخَّرًا حول شكل جديد وغريب من العلاج النَّفسيِّ يدعو إلى علاج مدمني الشَّراب والمخدِّرات والجنس عن طريق ضربهم بعصًا كبيرة، حيث يمكنهم الآن مقابلة مستشار للحصول على ما يصل إلى (٦٠) جلدة بعصًا، وأعلن عن العلاج بالضَّرب الشَّديد بالعصا في علم النَّفس من قبل خبراء خلال محاكمات في (سيبيريا بروسيا)، ففي موعدٍ خاصٍّ يتمُّ منح المرضى علاجًا بالضَّرب الشَّديد، قبل أن يخضعوا لجلسات تقليديَّة، يتم خلالها الكلام والتَّعبير عن مشاعرهم بطريقة بسيطة وعادية، وتمَّ اقتراح هذا العلاج من قبل الدُّكتور (سيرجي سبيرانسكي)، مدير الدِّراسات البيولوجيَّة في معهد (نوفوسيبيرسك) للطِّب، والذي أقرَّ أن الضَّرب كعلاج يمكننا اعتباره مضادًّا للنَّوبات المعبِّرة عن الاكتئاب، مضيفًا أن المرضى يرون أن هذا العلاج فعَّال، إذا فشلت كلُّ الطُّرق الأخرى في العلاج.

الموضع الثالث: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ [الأنفال: ٣٨]:

هذه الآية تتكلَّم عن معركة بدرٍ، وكلماتها -كما يقول القرطبيُّ ﷺ-: «عِبَارَةٌ تَجْمَعُ الْوَعِيدَ، وَالتَّهْدِيدَ، وَالتَّمْثِيلَ بِمَنْ هَلَكَ مِنَ الْأُمَمِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ بِعَذَابِ الله ﷻ»[1]، وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ﴾ أي: طريقة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وجدت وانقضت ونفذت، فلا مردَّ لها، بدليل ما سُمِعَ من أخبار الماضين، وشُوهد من حال أهل بدر؛ ممَّا أوجب القطع بأن الله ﷻ مع المؤمنين، وعلى الكافرين، ومن كان معه نُصِر، ومن كان عليه خُذِل وأخذ وقُسِر[2]، والسُّنَّة المُتَحدث عنها هنا هي: سُنَّة النَّصر للمؤمنين، والهزيمة للظَّالمين المعتدين.

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٤٠٤).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٢٨٠).

والـمراد إيصال إعلان عامٍّ للقوى الـمسلـمة تثبيتًا لها، وزيادة لإيمانها، وتقوية ليقينها، وللقوى الـمشركة الـمتربِّصة تحذيرًا لها، ولتفكّر وتقدِّر قبل أن تُقْدِم على الاعتداء مرَّة أخرى.

والمعنى: إن تَعُدْ قوى البغي والعدوان للقتال بعد يوم بدر، فقد مضت سنَّة في الأولين منهم في بدر، وفي غيرهم من القرون الخالية، ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ١١ - ١٤]، فسيحلُّ بالـمجرمين الـمتجرئين على حرب الحقِّ وأهله ما حلَّ بالسَّابقين ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [الـمجادلة: ٢١]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٩]، وقد ذكر الشاعر ما حلَّ ببعض الأمم الخالية من قبل فقال:

وأخو الحَضْرِ إذ بناه وإذ دِجْـ ـلةُ تُجبَى إليهِ والخَابُورُ
شَادَهُ مَرْمرًا وجلَّله كِلْـ ـسًا فللطَّيرِ في ذُراه وُكُورُ
لم يَهَبْه رَيبُ المَنونِ فبادَ الـ ـمُلْكُ عنه فبابُه مهجورُ
أين كسرى كسرى الملوك أنوشروان أم أين قبله شابورُ؟
وبنو الأصفرِ الكرامُ ملوكُ الـ ـرُّومِ لم يبقَ منهم مذكورُ
أيُّها الشَّامتُ الـمُعَيِّرُ بالدَّهرِ أأنت الـمُبَرَّأُ الموفُورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيَّام بل أنت جاهلٌ مغرورُ

أم رأيت الممنونَ أبقين أم من ذا عليه من أن يُضامَ خَفيرُ
ثم بعد الفلاحِ والخيرِ والإمّـ ـةِ وارتهم هناك القبورُ
ثم صاروا كأنهم ورقٌ جفّ وألْوَتْ بها الصَّبا والدَّبورُ[1]

الموضع الرابع: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر: ١٠ - ١٣]:

هذه الآيات تحلل النَّفسيَّة المكذِّبة بالقرآن، فلمَّا ذكر الله ﷻ قبل هذه الآيات أنه حفظ الذِّكر، الذي عنى به القرآن، ظنَّ بعضهم أن ذلك يعني أن الخلق كلَّهم سينقادون له، فأراد الله ﷻ أن يبيِّن -بجوار الكلام عن سُنَّة حفظ الذِّكر- سُنَّتَين تاريخيَّتَين مرتبطتين:

سُنَّة التَّكذيب الفاشية في المبطلين أمام حقائق الحقِّ، وأقوال الصَّدق، وسُنَّة التَّعذيب اللَّاحقة بالمجرمين ولو بعد حين، وبذا لا يحلم أهل الحقِّ بأن الأرض مفروشة بالورود، فبمجرَّد ظهور نور الحقِّ أمام الخلق ستراهم يقبلون إليه مذعنين.. كلَّا، فالتَّكذيب سُنَّة الأوَّلين، والسُّنَّة الأولى مقرِّرة لحقيقة يتوجَّب على المؤمنين تهيئة نفوسهم للتُّعامل معها، إنها حقيقة الجحود المرتكزة في نفوس أقوام مَرَدُوا على تكذيب الحقِّ وصدِّه وردِّه، والسُّنَّة الثَّانية مطمئنة لهم أن عاقبة المناوئين المكذِّبين معلومة سلفًا حسب سُنَّة الله ﷻ التي لا

(١) البدء والتاريخ (٣/ ٢٠١) والحَضْر «مدينة بإزاء تكريت، مبنية بالحجارة المهندمة بيوتها وسقوفها وأبوابها، غزاها جيش من فارس بقيادة (سابور) فقضى على ملكهم، ويقال: إن الحضر بناه الساطرون بن أسطيرون الجرمقي، وإنه غزا بني إسرائيل في أربعمائة ألف فدعا عليه أرميا النبي، ﷺ، فهلك هو وجميع أصحابه». معجم البلدان (٢/ ٢٦٧).

تتخلَّف عن أمثالهم، وبهذا نجد السُّنَن تقوم بدور رائع في حفظ سكينة نفوس المؤمنين، وملئها رضًا، وإدراكًا عميقًا بمجريات الحياة والأحياء.

ومعنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر: ١٢]: كذلك نولجه في عقولهم، فيسمعونه، ويعونه؛ إِذْ هُوَ مِنْ جنس كَلَامِهِمْ، فسيُدْرِكُونَ خَصَائِصَهُ، وتروعهم عظمته، لكنهم لا يؤمنون به؛ لأنَّ التَّكذيب جزءٌ من نفسيَّتهم المجرمة، ونزواتهم الآثمة، وهم لا يقاومون شرور أنفسهم بل يصرُّون على قتال الخير والرَّحمة عِنَادًا وَجَهْلًا، وتمنعهم الغطرسة والكبرياء من تطبيق أحكامه العادلة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التَّوْبَة: ١٢٤- ١٢٥]، فلما كان التَّكذيب سلكًا في قلوبهم يصاحب سماعهم للقرآن، كافأهم بالختم على قلوبهم، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أخذًا منهم بسنة أسلافهم من قوى الاستكبار الخالية.

الموضع الخامس: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٧]:

هنا يبيِّن الله ﷻ سُنَّته في التَّدافع المبدئيِّ والمواجهة السِّياسيَّة والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة بين أصحاب الحقِّ، وقوى الباطل، ويبيِّن ذلك بتفصيلٍ مدهشٍ.

وحتَّى تتمَّ الاستفادة التَّامَّة من المواقف المذكورة لا بدَّ من أن نستحضر أن هذه الآيات وردت في سورة الإسراء أي في سورة بني إسرائيل، ولهذا الورود أثره التَّامُّ في معرفة سُنَن التَّدافع المبدئيِّ بين الطَّرفين.

ولخطورة المكر الكُبَّار الذي يتعرَّض له أهل الحقِّ هنا خاطب الله ﷻ نبيَّه ﷺ مباشرة مبيِّنًا له المؤامرة الكبيرة التي يتعرَّض لها بعد زمنٍ لا بأس به من انطلاق دعوته ونجاحها، لقد مرَّ نحو عشر سنوات عند نزول هذه السُّورة المباركة منذ أن بدأ النَّبيُّ ﷺ بدعوته المشرقة على العالم بنورها الحاني.

فارجع بصرك في الآيات قبلها لتجد البيان القرآنيَّ الصَّادر عن ملك الملوك يحدِّثك عن سُنَّةٍ دائمة لقوى الباطل.. محاولة اختراق أهل الحقِّ ليغيِّروا مبادئهم: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥]، فهذا هو الموقف الأوَّل الذي تتعلَّق به آية السُّنَّة:

إنه موقف أصحاب الرِّسالات الإلهيَّة من الإغراءات التي تريد تذويب المبادئ الرِّساليَّة التي تحرِّر الإنسان من عبوديَّة الأنظمة والدُّول والناس، وتخرجه ليعيش في كرامة، ينظِّم نفسه وَفْقَ عبوديته لله ﷻ، فترى المجرمين إذ أعيتهم الحيلة في مواجهة أنوار الرِّسالة يلجأون إلى الإغراء والإغواء والإضلال العقليِّ... ربما أظهروا له اللِّين والمنطق، وأنهم مستعدون للتَّفكير في حقائق الحقِّ الذي معه إن هو تزحزح قليلًا عن بعض ما يزعجهم في رسالته، وليس بالضَّرورة أن يلغيه بل يُطلب منه أن يؤخِّر الكلام في القضايا الفكريَّة العقديَّة موضع الخلاف إلى وقتٍ آخر، وربَّما فكَّر هو بالاستجابة لذلك لا على أساس تغيير أساليبه، ولكن لتأخير التَّفكير في بعض مبادئ الحقِّ الذي يعمل له.

ولعلك تسأل: ما المفاهيم التي توضح هذه السُّنَّة؟

الجواب: هنا تسمع عدَّة مفاهيم توضِّح لنا السُّنَّة من الطرفين:

أولًا: سُنَّة قوى الباطل المعاندة المتطرِّفة عدم الاستجابة، واللُّجوء الدَّائم إلى فتنة أهل الحقِّ عن مبادئهم إن لم يكن بالقوَّة فبالإغراء، وإظهار العلاقات الوديَّة (اتخاذ صاحب الحقِّ خليلًا): ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ [الإسراء: ٧٣].

ثانيًا: أمام المكر الكُبَّار الذي تبرمه قوى الشَّرِّ ضد أصحاب الحقِّ لأجل استيعابهم وتذويبهم ربَّما احتار أهل الحقِّ فذابوا في حيِّز ذلك الإغراء وركنوا إلى المجرمين دون شعورٍ منهم وذلك لقوَّة المكر فيها، ولظنِّهم أنَّ ركونهم إلى المجرمين ليس إلا في أمورٍ قليلة، ويظنُّون أن ذلك يدلُّ على مقدار العقليَّة السِّياسيَّة والنَّظر البعيد الذي يتمتَّعون به ممَّا لا يوجد عند المتشدِّدين من أصحابهم، ويبصِّرنا بذلك قوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾ [الإسراء: ٧٤- ٧٥].

ثالثًا: التَّثبيت الحقيقيُّ أمام تلك الإغراءات يكون من الله ﷻ ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤].

رابعًا: نتيجة الموافقة على المداهنة والتَّدجين والتَّنازلات المتتابعة ليس انتصار أهل الحقِّ، ولا حصولهم على بعض الأمور الإيجابيَّة، بل زيادة البلاء العامِّ، والمزيد من الخسائر: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾ [الإسراء: ٧٥].

خامسًا: تأتي سُنَّة أخرى في حال ثبات أصحاب الحقِّ هي سُنَّة الاضطهاد الشَّديد الذي يتعرَّض له الأنبياء وأتباعهم، حيث يستخفون أهل الحقِّ ويزعجونهم بكثرة الاضطهاد

الموجَّه لهم، ليضطروهم إلى اتخاذ قرارات صعبة، أخفُّها أن يخرجوا من أرضهم لتخلو ساحة البلاد إلا من الفُسَّاق ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾.

سادسًا: إن ثبت أهل الحقِّ على مبادئهم فسُنَّة الله ﷻ أن يزيل الظُّلم وقُواه بعد ذلك في مدَّة زمنيَّة قليلة بالنَّظر إلى عُمْر الدُّول، وذكر الله ﷻ هذه السُّنَّة فقال: ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾.

سابعًا: وهنا يبيِّن الله ﷻ أن كلَّ ما سبق جزء من سُنَّته التي تجري على الرُّسل، أي وعلى أتباعهم، ولا يمكن تغيير هذه السُّنَّة ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧].

لو وصل الاضطهاد الذي يتعرَّض له أصحاب الحقِّ إلى أن يبدأوا في الخروج من أرضهم مع تمسُّكهم بحقِّهم، فإن ذلك يكون بداية زوال ملك أعدائهم.

ويبيِّن قتادة رحمه الله ذلك في تأمُّله لهذه الآية، فيقول: «أي: سُنَّة الأمم والرُّسل كانت قبلك كذلك، إذا كذَّبوا رسلهم وأخرجوهم، لـم ينظروا أن الله ﷻ أنزل عليهم عذابه»، يَعْنِي أَنَّ كُلَّ قَوْمٍ أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ مِنْ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَسُنَّةُ اللهِ ﷻ أَنْ يُهْلِكَهُمْ(١).

فعندما عجز الـمشركون عن استدراج الرَّسول ﷺ إلى فتنته عمَّا أوحى الله ﷻ إليه، حاولوا استفزازه من الأرض-أي: مكَّة-، ولو فعلوا لـم يلبثوا بعده إلا قليلًا حتى يعمَّهم العذاب، ولكن الله ﷻ أوحى إليه أن يخرج مهاجرًا، فلـم تصبْهم العقوبة الـمقرَّرة؛ لـما سبق في علـمه من عدم إهلاك قريش بالإبادة. ولو أخرجوا الرسول ﷺ عنوة وقسرًا؛ لحلَّ بهم الهلاك، ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء: ٧٦]، فهذه هي سُنَّة الله ﷻ النَّافذة:

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٥١٢)، وانظر: تفسير الرازي (٢١/ ٣٨١).

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾ [الإسراء: ٧٧]، ولقد جعل الله ﷻ هذه سُنَّة جارية لا تتحوَّل؛ لأن إخراج الرُّسل كبيرة تستحقُّ التَّأديب الحاسم. وهذا الكون تُصَرِّفه سُنَنٌ مطَّردة، لا تتحوَّل أمام اعتبارٍ فرديٍّ. وليست المصادفات العابرة هي السَّائدة في هذا الكون، إنما هي السُّنَن المطَّردة الثَّابتة.

ولك أن تقرِّر بأن المعنى: السُّنَّة العامَّة جرت بأن يُكذَّب الرُّسل عليهم السلام ويُؤْذَوا، ثم يُخْرَجوا؛ وإذا ما حدث ذلك فسيأتي العذاب أقوامهم المعتدين، فيوشك أن يزول ملكهم عن الأرض التي أخرجوا منها نبيهم.

لكأنَّ القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نتكهَّن ونرتِّب على مجموعة معينة من الوقائع التَّاريخيَّة، سلفًا، نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها الصَّميم بمقدِّماتها اعتمادًا على استمراريَّة السُّنَن التَّاريخيَّة ودوامها[1]، وهذه من أهمِّ الثَّمرات اليانعة لفقه السُّنَن والتَّحوُّلات في الحياة البشريَّة.

ولكن ما معنى كلمة: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ التي جاءت في الآية السَّابقة لهذه الآية: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ [الإسراء: ٧٦]، ورتَّب الله ﷻ عليها هذه الآية؟

الجواب: هنا نجد الرَّاغب رحمه الله مال إلى أن الاستفزاز يعني: الإزعاج، ومن ذلك قوله -جلَّ مجده-:

---

(١) ينظر: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، (ص: ٣٤).

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾، أي: أزعج، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يزعجهم، وفَزَّني فلان، أي: أزعجني[1].

ترى أن لهذه الكلمة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ صَرَّةً بتكرُّر ذكرها ثلاث مرَّات في سورة الإسراء، وهذه الصَّرَّة لا تصكُّ الوجه لكنها توقظ مكامن التَّدبُّر.

أَفَتَرى أن يكون معنى هذا الـموضع -وهو الـموضع الثاني-: وإن كادوا ليزعجونك؟ وهل ينطبق ذلك على الـموضع الثالث، كما ذكر الرَّاغب ﷺ، فيكون الـمعنى: فأراد أن يزعجهم من الأرض؟ كيف وهو قد منعهم الخروج؟ بل لـما خرجوا طاردهم ليقتل من شاء، ويعيد استعباد من شاء.

ربَّما يحلُّ الإشكال أن نرجع إلى أصل الكلـمة (استفزَّ)، حيث نجدها تدلُّ على معنى: أغضب غيرَه، وأثاره، وأزعجه، وطَيَّر فؤادَه، وهيَّجه، وختله حتى أَلقاه في مَهْلكة[2]، وَالِاسْتِفْزَازُ: طَلَبُ الْفَزِّ، وَهُوَ الْخِفَّةُ، وَالِانْزِعَاجُ، وَتَرْكُ التَّثَاقُلِ، وَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْجَعْلِ النَّاشِئِ عَنْ شِدَّةِ الطَّلَبِ وَالْحَثِّ الَّذِي هُوَ أَصْلُ مَعْنَى السِّينِ وَالتَّاءِ، أَي: اسْتَخِفَّهُمْ وَأَزْعِجْهُمْ[3].

وبذا يكون معنى الـموضع الأول: أزعِجْ يا إبليس إزعاج مخاتلة من استطعت منهم بصوتك، وهيِّجه، واستخفَّ عقله، وأَطِرْ فؤادَه، حتى تلقيه في مهلكة خداع أصواتك التي

---

(١) الـمفردات في غريب القرآن (ص: ٣٧٩).

(٢) لسان العرب (٥/ ٣٤٠٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٥٣).

تثيره بها، والصوت إمَّا مستعار للوسوسة بإظهارها بمظهر المحسوس، وإما مستعار للأصوات الحقيقيَّة، التي هي كلُّ ما يرضي الشَّيطان، ويستغفل الإنسان، ويغضب الرَّحمن.

ويكون معنى الموضع الثاني: وإن كادوا ليغضبونك ويخيفونك حتى يطير فؤادك، ويزعجونك بما يثيرونه من مؤامرات وإرعاب وتعذيب، فتخرج منها، «وَالِاسْتِفْزَازُ: الْحَمْلُ عَلَى التَّرَحُّلِ، وَهُوَ اسْتِفْعَالٌ مِنْ فَزَّ بِمَعْنَى: بَارَحَ المكَانَ، أَيْ: كَادُوا أَنْ يَسْعَوْا أَنْ تَكُونَ فَازًّا، أَيْ: خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ»(١)، وعندها لا يلبثون خلافك إلا قليلًا، ثم تعال نتلُ ما قصَّه ربُّنا ﷻ في هذه الآية لنبصر به ما جاء في سورة الإسراء، التي نزلت ضمن أواخر السُّوَر نزولًا في العهد المكِّيِّ -فيما يظهر-، وقد خرج النَّبيُّ ﷺ من مكَّة على إثرها إلى المدينة مكرهًا، وبذا تحقَّقت شروط السُّنَة المذكورة بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]، وهم حقًّا لم يلبثوا بعدها إلا قليلًا.. لكن العذاب لم يعمَّهم؛ لأن خروج النَّبيِّ ﷺ اشترك فيه تضييقهم عليه، وإذن الله تعالى له بالهجرة، فلم يكن إخراجًا محضًا؛ ولذا صاروا بعده بين قتيلٍ ومهتدٍ تائب بحمد الله..

والسؤال: لماذا هدَّدهم بذلك كالذي يحذِّرهم عاقبة إخراجه؟

الجواب: لعل ذلك كان تهيئةً لخروجه من مكة تمويهًا، فالآية المهدِّدة توهمهم أنه لن يخطط للهجرة والخروج؛ إذ مضمون التَّهديد يحذِّرهم عاقبة خروجه، ويمكن القول: بأن الله ﷻ أراد أن يجعلها لهم آية محققَّة تضاف إلى معجزاته، ولعل ذلك سبب ذكر آية ثمود

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٧٨).

المبصرة في سورة الإسراء، فقد هدَّد نبيُّها صالح عليه السلام قومه بعد ذبحها بأنهم لن يتمتعوا أكثر من ثلاثة أيام، وتحقَّق ذلك.

وقَوْلُهُ: ﴿سُنَّةَ﴾ نُصِبَ عَلَى المصْدَرِ المؤَكِّدِ، أَيْ: سَنَنَّا ذَلِكَ سُنَّةً فِيمَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ، وَجُمْلَةُ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا؛ لِبَيَانِ سَبَبِ كَوْنِ لُبْثِهِمْ بَعْدَهُ قَلِيلًا[1].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾، وَالمعْنَى: أَنَّ مَا أَجْرَى اللهُ تَعَالَى بِهِ الْعَادَةَ لم يَتَهَيَّأْ لِأَحَدٍ أَنْ يَقْلِبَ تِلْكَ الْعَادَةَ[2]، وَكَذَلِكَ وَقَعَ؛ فَإِنَّهُ لم يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، بَعْدَ مَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ، إِلَّا سَنَةٌ وَنِصْفٌ، حَتَّى جَمَعَهُمُ اللهُ ﷻ وَإِيَّاهُ بِبَدْرٍ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُمْ، وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، فَقَتَلَ أَشْرَافَهُمْ، وَسَبَى سَرَاتَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ بأن جعلنا وجودهم بين ظهراني قومهم رحمة لقومهم، فإذا أخرجوهم عاجلنا من رضي بإخراجهم بالعقوبة، أَيْ: هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِنَا وَآذَوْهُمْ: يَخْرُجُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَيَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ.

لكنهم خُصُّوا عن الأمم السَّالفة بأنهم لا يعذَّبون عذاب الاستئصال؛ تشريفًا لهم بهذا النَّبيِّ الكريم ﷺ، وَلَوْلَا أَنَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام- رَسُولُ الرَّحمة، لَجَاءَهُمْ مِنَ النِّقَمِ فِي الدُّنيا مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٨٠).

(٢) تفسير الرازي (٢١/ ٣٨١).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ١٠١)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١١/ ٤٩٠).

الموضع السادس: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ [الكهف: ٥٥]:

وردت كلمة: (سُنَّة) هنا في سياق الكلام عن شبهة يُكثر المجرمون المعاندون ترديدها بغرورٍ وصلفٍ وقلَّة عقل، وهي:

إن كنت أيُّها الرسول على حقٍّ، فأتنا بأنواع من العذاب، انظر كيف يتمُّ التَّلاعب بعقولهم من شياطين الإنس والجنِّ.. حقًّا: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾ [هود: ١١٦].

فهل هذا طلبٌ يمكن أن يقوله عاقل؟ ألَّا يتأكد المرء من الحقِّ إلَّا عندما يُعذَّب ويُستأصل؟ وما الفائدة التي سيجنيها وقد حلَّ عليه العذاب؟ وأيُّ عقلٍ يفكر بهذه الطَّريقة المهترئة؟

لقد جاءهم من الهدى ما يكفي للاهتداء، ولكنهم كانوا يطلبون أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالمكذِّبين من قبلهم من هلاك- استبعادًا لوقوعه واستهزاء- أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم. وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون!

أولًا يذكِّرنا هذا المنطق بقريب ممَّا حكاه الله ﷻ عن حماقة قوم قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

ويجوز أن تكون هذه الآية منفصلة عمَّا قبلها مستأنفة، ويجوز أن تكون متَّصلة:

فأما إن كانت منفصلةً مستقلَّة مستأنفة، ففي النَّظم القرآنِيِّ الذي جاءت عليه الآية حذف، يدلُّ عليه السِّياق، وتقديره: وما منع الناس أن يؤمنوا بالقرآن الذي صرَّفناه لهم شيء، فالذي يمنعهم استكبارهم وعنادهم، ولن يؤمنوا إلا أن تأتيهم سُنَّة الأوَّلين، أو يأتيهم العذاب قبلًا.

وأمَّا إن كانت متَّصلة بما قَبْلَهَا، فتُعْتَبَرُ جُمْلَةُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] مُعْتَرِضَةً بَيْنَهُمَا، فيكون التقدير: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ وكان ينبغي لهم وقد سمعوا القرآن أن يؤمنوا لو كانوا عقلاء، و﴿مَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ شيء ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ على تأخُّرهم في الإيمان، ولن يؤمنوا ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، ولن ينفعهم الإيمان حينذاك، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.. وإنما أتى بهذه الجملة معطوفة بالواو؛ لأنه أُرِيدَ أَنْ يَكُونَ مضمونها حَقِيقَةً مُقَرَّرَةً في النُّفُوسِ؛ ولذا عَدل عَنِ الْإِضْمَارِ إِلَى الْإِظْهَارِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾، وَبِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾، دُونَ أَنْ يَقُولَ: وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى؛ قَصْدًا لِاسْتِقْلَالِ الْجُمْلَةِ بِذَاتِهَا غَيْرَ مُسْتَعَانَةٍ بِغَيْرِهَا، فَتَكُونُ فَائِدَةً مُسْتَقِلَّةً تَسْتَأْهِلُ تَوَجُّهَ الْعُقُولِ إِلَى وَعْيِهَا لِذَاتِهَا، لَا لِأَنَّهَا فَرْعٌ عَلَى غَيْرِهَا، عَلَى أَنَّ عُمُومَ (النَّاسِ) هُنَا أَشْمَلُ مِنْ عُمُومِ لَفْظِ (النَّاس) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ [الكهف: ٥٤]، فَإِنَّ ذَلِكَ يَعُمُّ النَّاسَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ فِي أَزْمَانِ مَا بَعْدَ نُزُولِ تِلْكَ الْآيَةِ، وَهَذَا يَعُمُّ النَّاسَ كُلَّهُمُ الَّذِينَ امْتَنَعُوا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ ﷻ.

وَكَذَلِكَ عُمُومُ لَفْظِ (الْهُدى) يَشْمَلُ هُدَى الْقُرْآنِ، وَمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ الإلهيَّة، وَأَقْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهَا، فَكَانَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ قِيَاسًا تَمْثِيلِيًّا بِشَوَاهِدِ التَّارِيخِ، وَأَحْوَالِ تَلَقِّي الْأُمَمِ دَعَوَاتِ رُسُلِهِمْ، فَالمعْنَى: مَا مَنَعَ هَؤُلَاءِ المشْرِكِينَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ شَيْءٌ يَمْنَعُ مِثْلُهُ، وَلَكِنَّهُمْ كَالْأُمَمِ الَّذِينَ قَبْلَهُمُ الَّذِينَ جَاءَهُمُ الْهُدَى بِأَنْوَاعِهِ مِنْ كُتُبٍ وَآيَاتٍ وَإِرْشَادٍ إِلَى الْخَيْرِ[1]، ولا أميل إلى هذا التَّفسير الذي قرَّره صاحب التحرير والتنوير رحمه الله.

ما القراءات الواردة في هذه الآية؟ وما المشاهد التي توضِّحها؟

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٩.

الجواب: في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ قراءتان توضِّحان مشهدين مختلفين[1]:

الأولى: قراءة الكوفيين، وأبي جعفر: بضم القاف والباء، بمعنى أنه يأتيهم ألوانٌ وضروبٌ مِنَ الْعَذَابِ تَتَوَاصَلُ مَعَ كَوْنِهِمْ أَحْيَاءً، فالقُبُل: جمع قبيل، كما تجمع القتيل في القُتُل، والجديد في الجُدُد، والمراد تأتيهم ألوانٌ من العذاب غير المستأصل، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣]، فالقُبُل وصف لتنوُّعه، وتعدُّد أشكاله.

الثانية: قراءة الباقين من العشرة: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قِبَلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، بمعنى: أو يأتيهم العذاب عِيانًا، من قولهم: كلمته قِبَلًا، أي: مَا مَنَعَهُمْ الإيمان إِلَّا طَلَبُهُمْ أَنْ يُشَاهِدُوا الْعَذَابَ الَّذِي وُعِدُوا بِهِ عِيَانًا، فهو وصفٌ لمادِّيَّته، وأنه محسوسٌ، وسيعاينونه، كَمَا قَالَ أُولَئِكَ لِنَبِيِّهِمْ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاء:١٨٧]، وَآخَرُونَ قَالُوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢٩]، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الْأَنْفَال:٣٢]، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الْحِجْر:٦، ٧]، وقد يكون المقصود بالقِبَل المفاجأة، أي: لو فاجأتنا به.

وعند الجمع بين القراءتين يكون المعنى: ما منع الناس أن يؤمنوا إلا أن تأتيهم سُنَّة الأوَّلين أو يأتيهم ألوانٌ متجدِّدةٌ من العذاب المُعاينَة المفاجئة.

---

(١) قال ابن الجزري في «طيبة النشر» في القراءات العشر (ص: ٧٤):

وَقِبَلًا كَسْرًا وَفَتْحًا ضَمَّ حَقْ ... كَفَى وَفِي الْكَهْفِ كَفَى ذِكْرًا خَفَقْ

والآية تتضمَّن تهديدًا واضحًا، وإنذارًا بيِّنًا، وحثًّا على ترك العناد، واللُّجوء إلى ما يقتضيه العقل من الرَّشاد، وهذه الآية المباركة تشبه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يُونُس: ٩٦- ٩٧].

وقد تسأل: ما الفرق بين سُنَّة الأولين وإتيان العذاب قبلًا؟

الجواب: الفرق بين سُنَّة الأولين وإتيان العذاب قبلًا ما يأتي:

الأول: أن سُنَّة الأوَّلين تشمل الضَّلالة والاهتداء، والعذاب يدلُّ على الإهلاك، فيكون المعنى: إلا أن تأتيهم سُنَّة الأوَّلين بالاهتداء بعد حينٍ، أو باستمرارهم على الضَّلالة وممارسة أفعال الخاسرين حتى يفنوا وهم كذلك، أو يأتيهم العذاب فيشاهدونه قِبلًا، أي: بأعينهم، أو يأتيهم العذاب قُبُلًا، فتأتيهم صنوفٌ من العذاب، وألوان مختلفة من العقاب تتابع عليهم دون أن تستأصلهم، كالحرائق التي تشمل الغابات والمدن، والأعاصير التي تدمِّر المنشآت، والهزَّات الاقتصاديَّة، والقوارع الاجتماعيَّة التي تحدث فيها الجرائم التي لا يمكن السيطرة عليها، فسُنَّة الأوَّلين شملت ما حدث مع الأوَّلين من الإقبال أو الإعراض، وكلمة: (قبلًا) دلت على ثلاثة معانٍ في طريقة نزول العذاب بقراءتيها (قِبَلًا وقُبُلًا) لتعبِّر عن ألوان العذاب التي يرونها بأعينهم وتفاجئهم في وقوعها).

الثاني: ويحتمل فرق ثانٍ: هو أن سُنَّة الأولين تدلُّ على نزول العذاب على المكذِّبين في أجله المسمَّى عند الله ﷻ، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤٥]، وأمَّا

مجيء العذاب قِبَلًا: أن يكون فجأة، كما رأى مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، فيرونه عِيانًا بعد أن أُخبروا عنه غيبًا.

الثالث: ويحتمل فرقٌ ثالث هو: أن تكون سنة الْأَوَّلِينَ الإهلاك، وأما الْعَذَابُ فالمراد به عذاب الآخرة، فسُنَّة الأوَّلين كلام عن تعذيبهم الدُّنيويِّ، بينما العذاب يعني به عذاب الآخرة بعد موتهم، وأشار إلى هذا الفرق الزَّمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢)، وكذلك أحوال الظَّالمين والمجرمين، فإمَّا أن يُعذَّبوا في الدُّنيا حذو سُنَّة الأوَّلين، وإمَّا أن يموتوا بعد أن يعيثوا في الأرض فسادًا، فيعاينون العذاب معاينة صنوفًا متعدِّدة.

الرابع: ويحتمل فرق رابع: هو أن سُنَّة الأوَّلين تتعلَّق بالعذاب المعتاد، أما العذاب المعايَن الفجائيُّ، فيراد به عذاب غير اعتياديٍّ، بل هو مختلف عما كان في سُنَّة الأوَّلين، وأشار إلى مثل هذا ابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣).

والمراد أن الأمم ليسوا على طريقة واحدة في القدر الدعويِّ، فبعضهم تأتيهم سُنَّة الأوَّلين، وبعضهم يفجؤهم العذاب، وبعضهم يؤخَّرون فلا يعذبون إلا في الآخرة، وهو العذاب المحيط المتعدِّد الألوان -نعوذ بالله من حال الخاسرين-.

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٤٩).

(٢) تفسير الزمخشري (٢/ ٧٢٩).

(٣) تفسير ابن عطية (٣/ ٥٢٥).

الموضع السابع: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨].

هنا ذكر الله ﷻ السُّنَّة في صدد بيان القانون الشَّرعيِّ الثَّابت الذي يتضمَّن تبليغ الرِّسالة بغضِّ النَّظر عن العواقب.. إنه قانون دستوريٌّ واضح: ينبغي للنَّبيِّ ﷺ أن يبلِّغ الرِّسالة الإلهيَّة لتحقيق المصالح البشريَّة، دون أدنى حرجٍ من الجماعات الأنانيَّة التي تصرُّ على أهوائها وشهواتها، فهذا حكم الحكيم العليم الذي يعلم أين تكمن المصالح البشريَّة، وهو الذي فرض للنَّبيِّ ﷺ، والفرض يعني: التَّحديد والقطع.. فالآية تخبرنا أن النَّبيَّ ﷺ لا يمكنه أن يجد حرجًا في أن يبلِّغ الرِّسالة الإلهيَّة، مهما خالف ذلك أهواء بعضهم، دون أدنى التفات للومة لائم من عدوٍّ أو صديق.. كذلك كان الشَّأن في الذين خلوا من قبل -دعاة ومدعوِّين- .. لا يلتفت الدُّعاة إلى سخط الآخرين ورضاهم، بل إلى مدى قيامهم بالوظيفة التَّبليغيَّة التي تحتاجها البشريَّة.

ويقول بعضهم في سبيل تجلية هذا المعنى: «﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾... فهو أمر يمضي وَفْقَ سُنَّة الله ﷻ التي لا تتبدَّل، والتي تتعلَّق بحقائق الأشياء، لا بما يحوطها من تصوُّرات وتقاليد مصطنعة لا تقوم على أساس.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾..

فهو نافذ مفعول، لا يقف في وجهه شيء ولا أحد، وهو مقدَّر بحكمة وخبرة ووزن، منظور فيه إلى الغاية التي يريدها الله ﷻ منه، ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها».

وكما كان القدر الكونيُّ نافذًا، فينبغي أن يكون الأمر الشَّرعيُّ نافذًا، ولعلَّ هذا هو سرُّ ختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

وببصرٍ نافذٍ نجد الطَّاهر بن عاشور رحمه الله يحذِّرنا من أن تستهوينا الأخبار الضَّعيفة، فقد تحجبنا عن معنى الآية الواضح.. يقول الطَّاهر رحمه الله: «وَقَدْ رُوِيَتْ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَخْبَارٌ مَخْلُوطَةٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَتَسَرَّبَ إِلَى نَفْسِكَ مِنْهَا أُغْلُوطَةٌ.. وَأَنَّ النَّاسَ قَدْ تَمْتَلِكُهُمُ الْعَوَائِدُ، فَتَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِدْرَاكِ الْفَوَائِد.. وَلما جَاءَ الْإِسْلَامُ أَخَذَ يَغْزُو تِلْكَ الْجُيُوشَ لِيَقْلَعَهَا مِنْ أَقَاصِيهَا، وَيُنْزِلُهَا مِنْ صَيَاصِيهَا، فَالْحَسَنُ المشْرُوعُ مَا تَشْهَدُ الْفِطْرَةُ لِحُسْنِهِ، وَالْقَبِيحُ الممْنُوعُ الَّذِي أَمَاتَتْهُ الشَّرِيعة، وَأَمَرَتْ بِدَفْنِهِ»(١).

وَمَعْنَى: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: فيما أوجبه عليه، وشرعه له، وقَدَّرَهُ، ولذا عدَّى الفعل ﴿فَرَضَ﴾ باللام، ولم يُعَدِّه بـ(عَلَى)، كَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وَالْقَدَرُ بِفَتْحِ الدَّالِ: إِيجَادُ الْأَشْيَاءِ عَلَى صِفَةٍ مَقْصُودَةٍ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْقَدْرِ بِسُكُونِ الدَّالِ، وَهُوَ الْكِمِّيَّةُ المحَدَّدَةُ المضْبُوطَةُ، واصطلح علماء الكلام على أن القَدَر: اسْمٌ لِلْإِرَادَةِ الْأَزَلِيَّةِ المتَعَلِّقَةِ بِالْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَيُطْلِقُونَهُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ الْقَدَرُ، وَهُوَ المقْدُورُ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَالمعْنَى: وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مُقَدَّرًا عَلَى حِكْمَةٍ أَرَادَهَا اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ(٢).

الموضع الثامن: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢].

هذه الآية جاءت في سياق الحفاظ الصَّارم على الأمن العامِّ، وهي تحمل تهديدًا واضحًا للعابثين بالأمن والسِّلم الاجتماعيين، والسُّنَّة بمعنى الحكم القانونيِّ المرتبط بالأمر القَدَريِّ،

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٤٢).

وهي توضِّح لنا طبيعة التَّصرُّف السِّياسيِّ مع ثلاثة أصناف خطيرة تحاول زعزعة الأمن القوميِّ الإسلاميِّ.. وتابع ذلك لترى باندهاشٍ كيف يتمُّ التَّصرُّف مع هذه الفئات، حيث قال الله ﷻ: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].

فهؤلاء المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون، إن أصرُّوا على أفعالهم، فإن سُنَّةَ اللهِ ﷻ فيهم مثل سُنَّتِه في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ: أن تقوم السُّلطات القضائيَّة بدورها في التَّعامل العادل معهم بما يؤدِّي إلى المحافظة على استقرار المجتمع وسلامه، وأشار الطَّبريُّ رحمه الله إلى أن هؤلاء الذين كانوا في مدينة رسول الله ﷺ إن هم أظهروا نفاقهم، أي: أظهروا ما يخلُّ بالأمن العامِّ، أو زعزعوا الأمن الفكريَّ بما يؤدِّي إلى الاحتراب والنِّزاع، فحكمهم أن يقتِّلهم تقتيلًا(١)، ولا يقف ابن كثير رحمه الله عند ذلك حتى يؤكِّد أن ذلك أحد أهمِّ واجبات الحكومة والمجتمع، فيقول: «أَيْ: هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي المنَافِقِينَ إِذَا تَمَرَّدُوا، عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَلم يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ، أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَقْهَرُونَهُمْ»(٢)، فالمعنى: سَنَّ اللهُ ﷻ إِغْرَاءَكَ بِهِمْ سُنَّتَهُ في المجرمين السَّابقين الذين يكوِّنون فِرَق الصَّدِّ عن سبيل الله ﷻ كما صنع موسى عليه السلام مع السَّامريِّ، وكما صنع النَّبيُّ ﷺ مع الخونة من بني قريظة.

إن مجال إعمال السُّنَن ممتدٌّ فسيح، وكما يستعان بفقه السُّنَن لفهم وتفسير حركة الآخر الخارجيِّ، ومن ثم ضبط بوصلة التَّعامل معه، فإنه يتوجَّب كذلك إعمال ذات الفقه وتوظيفه لضبط الجبهة الدَّاخليَّة، والاستهداء به في التَّعامل مع الطَّوابير الخفيَّة النَّاخرة في المجتمع

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٣٢٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٨٣).

المسلم زعزعةً للثَّوابت والأصول، وتهييجًا للعواطف لغير ما هدف سوى إشاعة الفوضى والاضطراب، وإنَّ من هذا ديدنه ودأبه لحريٌّ بأن يؤخذ على يده، بل أن تقطع يده قبل أن تتوصَّل إلى خبيث مراده، وبثِّ أحقاده.

الموضع التاسع: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣]:

وردت كلمة: سُنَّة هنا في صدد تقرير الإحاطة بالماكرين، وارتداد المكر السَّيئ على أهله مهما كانت احتياطاتهم الأمنيَّة، وقواتهم العسكريَّة، وقمعهم المحليُّ، وإجرامهم الدَّوليُّ.

والمعنى: فهل ينتظرون إلا أن يأتيهم القانون الذي أتى الماكرين الأوَّلين من قبل: حيث أحاط بهم مكرهم، وارتد عليهم، وقد قيل: «وَمَا ظَالِم إِلَّا سَيُبْلَى بِظَالِم»، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مِنْ جِنْسِهِ ... حَتَّى الْحَدِيدُ سَطَا عَلَيْهِ الْمِبْرَدُ[(١)]

وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ «مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ جُبًّا وَقَعَ فِيهِ مُنْكَبًّا».

وتأتيك الفاء الفصيحة في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، لتعلن للماكر والممكور به أنه مهما بلغ المكر فلن يخرج عن السُّنَن الإلهيَّة في معاقبة صاحبه، مهما اشتدَّ إجرام الماكر فلن يستطيع الفرار من القوانين الإلهيَّة التي يدخل فيها: هذا القانون المحيط ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ويدخل فيها قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، ويدخل فيها -أيضًا- قول الله جلَّ وعزَّ في

(١) لا يعرف قائله، وهو جارٍ مجرى المثل. ينظر: كنز الدرر وجامع الغرر لابن الدَّواداري (٨/ ٩١).

الحديث القدسيِّ: «ودعوة المظلوم تُحمَل على الغمام، وتُفتَح لها أبواب السَّماء، ويقول الرَّبُّ ﷻ: وعزتي لأنصرنَّكِ ولو بعد حين»(١).

هنا ترى حركة (السُّنَّة) في الواقع البشريِّ متناسبة مع حركة المكر، والمؤامرات القذرة التي يقوم بها المفسدون في الأرض، حيث أضيفت كلمة سُنَّة إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وأضيفت في الآية ذاتها، وفي مواضع أخرى إلى لفظ الجلالة: ﴿الله﴾، فأما إضافتها إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فمن باب الإضافة إلى المفعول الذي وقعت عليه السُّنَّة، وأما إضافتها إلى الله ﷻ فمن باب إضافتها إلى الفاعل الذي أجرى السُّنَّة، وبيده تغييرها بالتَّبديل، أو بالتَّحويل.

وهنا يبيِّن الله ﷻ ثبات هذه السُّنَّة، وعدم طروء خرق لنظام السُّنَّة فنفى عنها التَّبديل والتَّحويل، والفرق بينهما: أنَّ التَّبديل تغيير كلِّيٌّ لها إلى أمر آخر، أو إلى قوم آخرين، أما التَّحويل فتغيير جزئيٌّ نِسبيٌّ، يشمل بعض الصِّفات فقط، أو يشمل بعض الأشخاص، «كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٥٦]، فالتَّبديل أَن تبدِّل بِخِلَافِهِ، والتَّحويل أَن تحوِّل من مَحلٍّ إِلَى مَحلٍّ»(٢).

ويعلِّل الجهبذ الذَّكيُّ ابن تيمية ﷺ ضرورة الاطِّراد في السُّنَن وعدم خضوعها للانتقاض تبديلًا أو تحويلًا بقوله: «ومن هذا الباب صارت قصص المتقدِّمين عبرة لنا، ولولا القياس واطِّراد فعله وسُنَّته لم يصحَّ الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشَّيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن»(٣).

---

(١) أحمد (٨٠٤٣) وصحَّحه الأرناؤوط بطرقه وشواهده.

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٥٥).

(٣) جامع الرسائل، ابن تيمية، (١/ ٥٥).

الموضع العاشر: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٥]:

السُّنَّة هنا واردة في صدد بيان قانونٍ كونيٍّ شرعيٍّ يشرح لنا فيه: أنه لا تقبل التوبة عند معاينة العذاب، أي: عند نُزُول مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ المرْء يضطر حينها إِلَى الْإِيمَانِ، إِنَّمَا يَنْفَعُ الإيمان مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى خِلَافِهِ، أي: حال سعة الاختيار لا حال محاصرة الاضطرار، وانظر إلى التَّعبير القانونيِّ في قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ لم يقل: فَلم يَنْفَعْهُمْ إِيمَانُهُمْ؟ وذلك مثل التعبير في قَوْله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾، [مَرْيَم: ٣٥]، وَالمعْنَى: فَلم يَصِحَّ ولم يَسْتَقِمْ أَنْ يَنْفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ(١).

فالبأس هو العذاب الشديد النازل، ومن أنواعه:

أن يكون معتادًا مثل أن يُهزَم المجرمُ في المعركة، فيذعن ويعلن توبته، فينفعه ذلك، كما حدث من مجرمي قريش، وقد هُزِموا ووضعت الحرب أوزارها، فأعلن عامَّتُهم الإسلام، ثم حَسُنَ إسلام صناديدهم كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وأبي سفيان ﷺ،

وقد يكون البأس عقوبةً خارقة نازلةً عليه، مثل غرق فرعون في البحر، فإنه مهما أذعن لا يقبل منه؛ لأنه فعل ذلك في وقتٍ لا تنفعه التوبة، فقد عمَّره الله ﷻ من قبل زمنًا يتذكَّر فيه من تذكَّر، فأبى، «وَمَاذَا يُغْنِي إِيمَانُ قَوْمٍ لم يَبْقَ فِيهِمْ إِلَّا رَمَقٌ ضَعِيفٌ مِنْ حَيَاةٍ، فَإِيمَانُهُمْ حِينَئِذٍ بِمَنْزِلَةِ اعْتِرَافِ أَهْلِ الْحَشْرِ بِذُنُوبِهِمْ، وَلَيْسَتْ سَاعَةَ عَمَلٍ، قَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ فِرْعَوْنَ إِذْ أَدْرَكَهُ

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ٥٣٦)، ومثل ذلك قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ [التوبة: ١٧].

الْغَرَقُ: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونُس: ٩٠، ٩١]، أَيْ: فَلم يَبْقَ وَقْتٌ لِاسْتِدْرَاكِ عِصْيَانِهِ وَإِفْسَادِهِ»، وإنها لنهاية بائسة مريرة يصوِّرها لنا د.سعيد بن دحباج -حفظه الله-مخاطبًا الفرعون وهو مأكول وسط تلاطم الأمواج، فيقول:

كمْ ذا دُعِيتَ إلى سبيلِ هُداكَ ... وأتاكَ داعي الحقِّ منْ مولاكا

كمْ آيةٍ للهِ قامَتْ حُجَّةً ... تهدي إلى الدَّربِ القويمِ خُطَاكا

ورسولُ ربِّكَ كمْ أَتى مُتَلَطِّفًا ... أَنَسِيتَ (لِينَ القَولِ) حِينَ دَعَاكا

فَأَبيتَ إلا الكفرَ تبني صَرْحَهُ ... وجُحُودَ ربٍّ قادرٍ أَنْشَاكا

و(الآنَ) تُؤْمِنُ أَنَّهُ لا غيرَه ... ربٌّ ألا تاللهِ ما أَشْقَاكا

ما كانَ ضرَّكَ لو رَجَعْتَ إلى الهُدَى ... تَخْتَارُهُ باللهِ ما أَحْرَاكا

وَيَؤُوبُ قلبُكَ مُعلنًا إيمانَه ... لا مُكْرَهًا مُتَكَلِّفًا دَعْوَاكا

سُدِلَ السِّتارُ فما مقالُك نافعًا ... (آمنتُ) هَلَّا كَانَ ذَاكَ هناكا

«وَقَالَ تَعَالَى مقرِّرًا ذات المعنى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الْأَنْعَام: ١٥٨]، فَأَشَارَ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ إِلَى حِكْمَةِ عَدَمِ انْتِفَاعِ أَحَدٍ بِإِيمَانِهِ سَاعَتَئِذٍ. وَإِنَّمَا كَانَ مَا حَلَّ بِقَوْمِ يُونُسَ عليه السلام حَالًا وَسِيطًا بَيْنَ ظُهُورِ الْبَأْسِ وَبَيْنَ الشُّعُورِ بِهِ عِنْدَ ظُهُورِ عَلَامَاتِهِ»[1].

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٢٣).

الموضع الحادي عشر: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣﴾ [الفتح: ٢٣]:

وردت هذه الآية بعد قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٢٢﴾ [الفتح: ٢٢]؛ إنَّها تصوِّر لك معركة محدَّدة الملامح، واضحة الأطراف:

طرف فيه المؤمنون الصَّادقون الذين أعدُّوا العُدَّة المناسبة، ودلَّ على صدقهم بيعة الرِّضوان التي قال الله ﷻ عنها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وطرف فيه الذين كفروا الذين يسترون الحقائق.

وفي هذه الحالة فالنَّتيجة معروفة سلفًا، أن يولِّيَ الكافرون الأدبار فينهزموا، ثم لا يكتفوا بهذه الهزيمة القاسية حتى يفقدوا الوليَّ الحميم، والنَّصير المتحالف، وذلك لظهور قوَّة الحقِّ أمام أعين العالم.

إنه قانون باقٍ لا ريب فيه، ولا يتغيَّر مهما تغيَّر الزَّمان: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، ولن تتبدَّل هذه السُّنَّة، فلا تقل: لماذا لا نرى ذلك في الواقع الحاضر المؤلم؟ لأنك سترى -أيُّها المتدبِّر للقرآن الذي لا تصلح الأرض إلا به- أن الآيات السَّابقات لهذه الآية ذكرت شروطًا لتتحقَّق هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة.

شروط تحقُّق سُنَّة تولِّي الكفار الأدبار عند المواجهة:

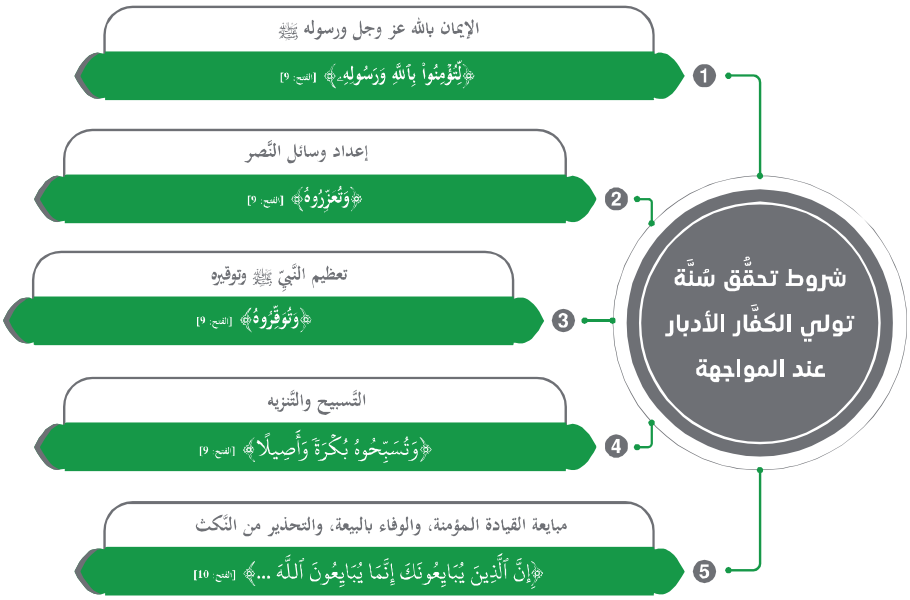

عبد السلام مقبل المجيدي

وهي: أربعة شروط تضمَّنها قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

والخامس وهو: مبايعة القيادة المؤمنة، والوفاء بالبيعة، والتَّحذير من النَّكث، ممَّا تضمَّنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، ويدخل في ذلك ما ذكره من طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ بعد ذلك.. فورد هذا القانون العامُّ: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢]؛ لدفع وَهْنٍ مبنيٍّ على وهْم.. وهو

عدم قدرة المتَّقين على مقاتلة المجرمين؛ بسبب كثرة عددهم وعتادهم، فبيَّنَ الله ﷻ أن المؤمنين إن تشبَّثوا بالشُّروط، فإن سُنَّة هرب الكفار ماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

وقد ذكر الله ﷻ هنا أن الكفر سبب لتولية الأدبار، ولا تتخلَّف هذه السُّنَّة إلا إذا تخلَّفت تلك الشُّروط، وقوله: ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ من التَّولية أي: جعل الشَّيء واليًا، والمراد: لجعلوا ظهورهم والية عليهم، فأروكم إيَّاها، وهي صورةٌ تدلُّ على شدَّة الانهزام.

وقوله ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾: (ثم) في مكانها من التَّرتيب؛ فإنهم عندما يهربون يبحثون عن حلفائهم لينجدوهم، وعن تحالفاتهم لتغيثهم، فيبادر حلفاؤهم إلى التَّبري منهم؛ خوفًا من بطش المؤمنين وبأسهم؛ عند ذاك لا يجد المعتدون وليًّا من حلفائهم، ولا يجدون نصيرًا حتى من غير حلفائهم، وهذا القانون يرتبط به قوانين أخرى:

منها قوله تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [مُحَمَّد: ٧]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [الْحَج: ٤٠]، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [الْقَصَص: ٨٣]، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ۝١٣٢﴾ [طه: ١٣٢]، وهذه السُّنَن الكلِّيَّة تبني في العقليَّة المسلمة السَّكينة والثِّقة، ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ولتحقُّقها لا بدَّ من تحمُّل تبعاتها، وتنفيذ شروطها، وقد قال أبو تمَّام(١):

بصُرْتَ بالرَّاحةِ الكُبرى فلم ترها ... تُنالُ إلَّا على جِسرٍ منَ التَّعبِ
إن كان بينَ صُرُوفِ الدَّهرِ من رَحِمٍ ... موصولةٍ أوْ ذِمَامٍ غيْرِ مُنْقَضِبِ
فَبَيْنَ أيَّامِكَ اللَّاتي نُصِرْتَ بِهَا ... وبَيْنَ أيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ

هذا حكم قدريٌّ إلهيٌّ صارم، وسُنَّة ربَّانيَّة ماضية، فهاهو ربُّنا ﷻ يقول عن الكفَّار

(١) ديوان أبي تمَّام (ص: ٢٣).

عمومًا: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣]، وقال -سبحانه- عن اليهود خصوصًا: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١]، ولكنهم انتصروا ولا يزالون ينتصرون؛ فهل تخلَّفت السُّنَن الإلهيَّة أم كنا نحن المتخلِّفين؟!

إنَّ وراء كلِّ عار فرارًا وتولية أدبار، وقبل ذلك الفرار وتولية الأدبار لا بدَّ أنه كان هناك خِذلان من الله ﷻ؛ وإلا فما معنى تلك الهزائم المتوالية، مع أنَّ الله تعالى تكفَّل لنا بفرار الأعداء من أمامنا إذا واجهناهم مستقيمين على أمره مستحقين لنصره؟![1]

(١) من مقال بعنوان (الإسلاميون.. وساعة الحقيقة إمكانات هائلة... وطاقات معطلة، عبد العزيز كامل)، مجلة البيان، (١٦٧/ ٦٦).

ثالثًا: بعض الكتب التي مست مفهوم السُّنَن:

بعد التعرف إلى مفهوم السُّنن في اللغة والاصطلاح، وإلى الاستعمال القرآني للفظ (السُّنَّة) نختم هذا الفصل بذكر الكتب التي تطرقت لذكر السُّنن الربانية، وذلك كما يأتي:

أولًا: كتب التاريخ:

فإنَّها مادَّة ثريَّة للتَّطبيق العمليِّ لمفهوم السُّنَن، لكنَّ أكثرها لم يهتمَّ بالجانب البيانيِّ لموقع السُّنَن الإلهيَّة في أحوال الأمم، وضعف اقتباسها من البصائر القُرآنِيَّة لبيان الحال الاجتماعيِّ السَّببيِّ لقيام الأفراد والدُّول، أو زوالهما.

ومن أشهر كتب التَّاريخ: تاريخ الطَّبريِّ المسمَّى: تاريخ الرُّسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطَّبريِّ (ت٣١٠هـ)، ومن أهمِّها تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذَّهبيِّ (ت ٧٤٨هـ)[١].

ثانيًا: الكتب التي أشارت إلى سُنَن محدَّدة، ومنها:

١) أدب الدُّنيا والدِّين لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصريِّ البغداديِّ، الشهير بالماورديِّ (ت ٤٥٠هـ)، فقد أشار إلى جملة من الآداب التي تمثِّل سُنَن الاجتماع الإنسانِيِّ في العلاقات المتبادلة بين الجهات البشريَّة المختلفة.

٢) التَّلخيص لوجوه التَّخليص لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسيِّ القرطبيِّ الظَّاهريِّ (ت ٤٥٦هـ).

---

(١) وهناك كثرةٌ غامرةٌ من كتب التاريخ بحمد الله، إلا أن أعظم المآخذ عليها أنها تعتمد على الرواية المحضة دون تمحيصٍ أو ربطٍ للوقائع التَّاريخيَّة بالبصائر القرآنية، والمنهج النبوي في التعامل مع الأحداث المختلفة، وبعضها يحيط بها الغموض والتأثر بالواقع السياسي والتعصب الشعوبي البعيد عن الرؤية الإسلامية.

ثالثًا: الكتب التي جعلت السُّنَن الاجتماعيَّة في التَّغيير أساس مادَّتها، أو أشارت إليها إشارات متعاظمة، ومنها:

١) مقدِّمة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ).

٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ).

٣) ومن أبرز الكتب: كتاب في ملكوت الله لعبد الحميد بن عبد الكريم الأنصاريِّ حميد الدِّين الفَرَاهيِّ (ت١٤٣٩هـ)، ذكر فيه السُّنَن الإلهيَّة في انحطاط الأمم ورقيِّها، وعلوِّ الحقِّ، وهزيمة الباطل.

٤) روح الاجتماع لجوستاف لوبون (ت١٩٣١م)، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، طبعة١٣٢٧هـ-١٩٠٩م.

٥) السُّنَن التَّاريخيَّة في القرآن الكريم لمحمد باقر الصَّدر (ت١٩٨٠م).

٦) سُنَن الله في المجتمع من خلال القرآن، القرآن الكريم وإعجازه وهداياته، لمحمد صادق عرجون (ت١٤٠٠هـ-١٩٨١م).

٧) مشكلات الحضارة لمالك بن نبي (١٣٩٣هـ).

٨) الإسلام وحركة التَّاريخ لأنور الجنديِّ (٢٠٠٢م).

٩) فقه التَّاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضاريَّة د/ عبد الحليم عويس (ت٢٠١١م).

١٠) منهج الحضارة الإنسانيَّة في القرآن الكريم، ومن سُنَن الله في عباده أ.د/ محمد سعيد رمضان البوطي (ت٢٠١٣م).

١١) السُّنَن الإلهيَّة في الأمم والأفراد والجماعات والشُّعوب للدكتور عبد الكريم زيدان (ت٢٠١٤م).

١٢) حول التَّفسير الإسلاميِّ للتَّاريخ لمحمد قطب (ت٢٠١٤م).

١٣) أسباب هلاك الأمم وسُنَّة الله في المجرمين لعبد الله التليدي (ت٢٠١٧م).

١٤) مدخل إلى دراسة السُّنَن الإلهيَّة في القرآن الكريم لمجدي عاشور.

١٥) السُّنَن الإلهيَّة في النفس البشريَّة لعمر أحمد عمر.

١٦) التَّفسير الإسلامي للتَّاريخ د/ عماد الدين خليل.

١٧) مجموعة (حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم) لجودت سعيد.

١٨) عوامل فساد الأمم كما تصوِّرها سورة الأعراف لفايز صالح الخطيب، رسالة (ماجستير) في كلية أصول الدين الأزهر.

١٩) فقه التَّحضُّر الإسلاميِّ د/ عبد المجيد النَّجار.

٢٠) السُّنَن الإلهيَّة في الحياة الإنسانيَّة وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك لشريف صالح الخطيب، رسالة (دكتوراه) في جامعة أم القرى.

٢١) السُّنَن الرَّبَّانيَّة في التَّصوُّر الإسلاميِّ لراشد سعيد شهوان، رسالة (دكتوراه) في جامعة الإمام.

٢٢) تأصيل علم السُّنَن لراشد سعيد شهوان.

٢٣) مفهوم السُّنَن الرَّبَّانيَّة: دراسة في ضوء القرآن الكريم د/ رمضان خميس زكي.

٢٤) سُنَن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها لمحمد هيشور، رسالة (ماجستير) في جامعة عين شمس.

٢٥) السُّنَن الإلهيَّة في تغيير المجتمعات في ضوء القرآن الكريم جمعًا ودراسة، رسالة مقدمة لنيل درجة (الماجستير) إعداد الطالب/ أيمن بن نبيه بن غنام المغرب، إشراف الأستاذ الدكتور/ محمد بن عمر بازمول.

٢٦) منهج الدِّراسة الموضوعيَّة لآيات الموضوع القرآنيِّ (نقد وتأصيل) إعداد طالبة (الماجستير) أسماء عبد الله عطا الله، إشراف الدكتور/ محمد يوسف الشربجي –قسم علوم القرآن والسنة– كلية الشَّريعة– جامعة دمشق.

٢٧) مقال حول السُّنَن الاجتماعيَّة في القرآن الكريم بقلم الدكتور محمد السِّيسي رئيس وحدة الدَّرس القرآنيِّ والعمران البشريِّ/ كلية الآداب مكناس، نشرها في مجلة (رسالة القرآن).

٢٨) على عتبات الحضارة – بحث في السُّنَن وعوامل التَّخلُّق والانهيار، د. بتول أحمد جندية.

عبد السلام مقبل المجيدي

الفصل الثالث

من أنواع السُّنَن التي تحكم حركة الحياة

ومن أهمِّ أسباب الارتباك المؤلم الذي خلخل الواقع المسلم عدم التَّمييز بين السُّنَن الثَّابتة والسُّنَن المتغيِّرة[١]، سواء أكان ذلك في المجالات المادِّيَّة أم في المجالات الاجتماعيَّة، وعدم التَّمييز بين هذين النَّوعين من السُّنَن وبين سُنَن التَّغيير الثَّابتة، وبإعمال السَّبر والتَّقسيم يمكن تصنيف السُّنَن إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: السُّنَن الكونيَّة المادِّيَّة الثَّابتة (سُنَن الطَّبيعة):

وهي القوانين الفيزيائيَّة والكيمائيَّة والحياتيَّة التي جعل الله ﷻ الكون سائرًا وَفْقَها، **وهي سُنَنٌ قدريَّةٌ** قهريَّةٌ لا يملك الإنسان من الأمر فيها شيئًا، وبعضها بدهيٌ واضحٌ، وبعضها لا بدَّ من البحث عنه واكتشافه، ويشير الله ﷻ إليها، ويحثُّ ﷻ أولي الألباب، وهم أهل العقول الخالصة على استخراجها في آيات كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]، فيمكن للإنسان أن يكتشف القوانين التَّفصيليَّة، ويستفيد منها وَفْقَ ذلك، مثل: الموت والحياة، والضُّر والنَّفع المطلقين، والهداية والإضلال المطلقين -أي: ممَّا لا دخل فيهما للإنسان، فهما الحاكمان

(١) قد يقال: كيف تكون سننًا متغيرة، والتغير ينافي الثبات، والأصل في السنة الثبات؟ الجواب: وضعت هذا المفهوم للتقريب، وسيأتي مزيد بيانٍ لها إن شاء الله.

للاهتداء والضَّلال البشريين- وقوانين المادة المختلفة في الحياة، وقد ذكرها الله ﷻ في معرض ألوهيته وحكمه للوجود، فقال ﷻ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٣-٣٤]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فإن الاهتداء والضَّلال اختيار بشريٌّ، فيختار المرء ما شاء، فقد هداه الله نجدي الخير والشَّرِّ، وجعل له الاختيار الذي يجده كلُّ إنسان منَّا ضرورة، لكن الذي يحكم قوانين الهداية والإضلال هو الله بقدرته، وتدبيره، وقال ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣]، وقال ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢١]، وأشار إلى بعضها ابن حزم رحمه الله في قوله:

لــك الحمــدُ يــا ربِّ والشُّــكرُ ثُــمْ ... لَـكَ الحمـدُ مـا بَـاحَ بالشُّـكْرِ فَـمْ

لَــكَ الحمـــدُ في كُـــلِّ مَـــا حَالَـــةٍ ... فَقَـدْ خَصَّـنِي مِنْـكَ فَضْـلُ وَعَـمّ

مِـــنَ المـــاءِ أَنْشَـــأْتَنِي نُطْفَـــةً ... وَمِـــنْ بَعْـــدِ ذلـــكَ لَحْـــمٍ وَدَمْ

وَأَسْـــكَنْتَ في جَسَـــدِي رُوحَـــهُ ... وَأَجْعَلْتَهَـــا في طِبَـــاقِ الـــرَّحِمْ

وَأَخْرَجْتَنـــي بَعْـــدُ في عَـــالَمِي ... وَبَلَّغْتَنِـــي دَرَجَـــاتِ الفَهِـــمْ

فَمِنْـــكَ لِـــيَ البَصَـــرُ المقْتَفِـــي ... وَسَـــمْعٌ وَذَوقٌ وَنُطْـــقٌ وَشَـــمّ

وَحِـــسٌ صَـــحِيحٌ وَتَمْيِـــيزُ مَـــا ... خَلَقْـــتَ بأنواعِـــهِ مِـــنْ أُمَـــمْ

وَمَكَّنْتَنِـــي مِـــنْ فُنُـــونِ العُلُـــومِ ... بِبَـــادِي الكَـــلامِ وَخَـــطِّ القَلَـــمْ
وَعَلَّمْتَنِـــي الحُكْـــمَ فِي هَـــلْ وَمَـــا ... وَأَطْلَعْتَنِـــي طَلْـــعَ كَيـــفَ وَلِـــمْ
وَمِـــنْ هَيئَـــةِ الفَلَـــكِ المُسْـــتَدِيرِ ... وَقَفْـــتُ عَلَـــى حَـــدِّهِ المنْـــتَظَمْ
وَمَـــا فيـــهِ مِـــنْ فَلَـــكٍ دَائِـــرٍ ... وَمِـــنْ كَوكَـــبٍ قَـــاطِعٍ كـــالعَلَمْ
فَأَكْبَرُهَـــا قَاصِـــدًا مَغْرِبًـــا ... وَسَـــائِرُهَا جِهَـــةَ الشـــرقِ أَمْ
إدارة ربٍّ لهـــا منشـــىء ... يصـــرِّفُها أمـــرُهُ حيـــثُ حُـــم
يُخـــالفُ مـــا بـــين أدوارِهَـــا ... علـــى سَـــنَنٍ راتِـــبٍ مُسْـــتَتِمّْ
لِـــيَعْلَمَ أهـــلُ النُّهـــى أنهـــا ... مـــدبَّرةٌ لحكـــيمٍ حَكَـــمْ
وأنْ لـــيس تختـــارُ شـــيئًا ولا ... لهـــا الحُكْـــمُ بَـــلْ لإلـــهِ الأُمَـــمْ
يُـــدِيرُ بأزمانهـــا دهرَهَـــا ... فيثْبُـــتُ مبـــدؤُهَا للفَهِـــمْ
وتشـــهدُ أنَّ الـــذي صَـــاغَهَا ... هُـــوَ الواحِـــدُ الحَـــقُّ بـــارِي النَّسَـــمْ
هـــو الأولُ المبْتَـــدِي خَلْقَهَـــا ... كمـــا شـــاءَ إذْ شَـــاءَ فـــرْقٌ وَضَـــمْ(١)

عندما تدرك إحاطة الله ﷻ بالكون، وتستفيد من النَّكسات المتتابعة تعلم أن الباطل من جند الحقِّ، والخطأ من جند الصَّواب، والألم من جند الشِّفاء، فتجعل هذه الأعراض الطَّارئة (الباطل والخطأ والألم) أبوابًا لحقٍّ أعلى وصوابٍ أقوم وشفاءٍ أكثر دوامًا.

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) (ص: ٣١٥- ٣١٨).

ومن أمثلة هذه السُّنن:

١) سُنَّة الله ﷻ في الاختلاف والتَّنوُّع:

أشار القرآن الكريم إلى هذه السُّنَّة في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]، فنَبَّهَ الله ﷻ على كمال قدرته في خَلْقِه الأشياءَ المتنوعةَ المختلفة من الشيء الواحد، فالماء الذي ينزله من السماء، يُخرِجُ به ثمراتٍ مختلفًا ألوانها وطعمها وحجمها، والجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو مشاهد من بِيْضٍ وحُمْرٍ وسُوْد، ومثل ذلك اختلاف أصناف البشر وألوانهم وأحجامهم وصفاتهم، واختلاف الدوابِّ والأنعام كذلك[(١)].

فـ«الاختلاف بين أفراد الأصناف والأنواع ناموسٌ جِبِلِّيٌّ فطر الله ﷻ عليه مخلوقات هذا العالم الأرضي»[(٢)].

٢) سُنَّة الله ﷻ في الأسباب والمسبِّبات:

دلَّ القرآن الكريم على أنَّ كلَّ شيء يحدث بسبب؛ سواء كان هذا الحدث يتعلَّق بالجماد، أو بالنبات، أو بالحيوان، أو بالإنسان، أو بالأجرام السَّماويَّة، أو الظواهر الكونيَّة المادِّيَّة المختلفة، فقانون السَّبَبِيَّة أي: ربط الأسباب بأسبابها والنتائج بمقدماتها عامٌّ شامل لكلِّ ما في العالم، ولكلِّ ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة[(٣)].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٠).

(٣) ينظر: السنن الإلهية، الدكتور عبد الكريم زيدان (ص: ٢١).

النوع الثاني: السُّنَن الشَّرعيَّة: وهي القوانين الإلهيَّة الثابتة التي حكم الله ﷻ بأن يطبِّقها الخلق في واقعهم:

وقال الله ﷻ عنها: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال أيضًا: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

وترى أن سُنَن الشَّريعة منسجمةٌ تمام الانسجام مع سُنَن الطَّبيعة، فقد أقام الله ﷻ كلا النَّوعين على الخير، والرَّحمة بالعالم، وهما يمثِّلان صبغة الله ﷻ للكون.. إنها الصِّبغة التي اختبر بها البشر؛ ليستفيدوا منها في السُّنَن الكونيَّة، وليطبِّقوها في السُّنَن الشَّرعيَّة، ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨].

وقد أفرد شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ للسُّنَن مبحثًا خاصًّا، ذكر انقسام السُّنَن فيه إلى شرعيَّة، وكونيَّة، فقال: «وَهذه السُّنَن كلُّهَا سُنَن تتَعَلَّق بِدِينِهِ، وَأمره وَنَهْيه، ووعده ووعيده، وَلَيْسَت هِيَ السُّنَن المتَعَلِّقَة بالأمور الطَّبيعيَّة، كسُنَّته في الشَّمْس، وَالْقَمَر، وَالْكَوَاكِب، وَغير ذَلِك من الْعَادَات، فَإِن هَذِه السُّنَّة ينقضها إِذا شَاءَ بِمَا شاءه من الحِكَم»[1].

ومن أمثلة هذه السُّنَن:

١) سُنَّة الله ﷻ في نصرة أوليائه وإهانة أعدائه:

(١) جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٥٢)، وانظر: إعجاز النظم القرآني في اقتران السنن الاجتماعيَّة بالسُّنَن الكونيَّة (ص: ١٨).

سُنَّة الله ﷻ مُطَّردة في إكرام أوليائه ونصرهم، وفي إهانة أعدائه وعقوبتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

٢) سُنَّة الله ﷻ في الهدى والضلال:

تكفَّل الله ﷻ لمن بذل وسعه لتحصيل الهداية واتباع مرضات الله ﷻ، أن يأخذ بيده إليها ويوفقه لسلوكها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وسُنَّة الله ﷻ فيمن أعرض عن هداه أن يضلَّه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥](١).

النوع الثالث: سُنَن الاجتماع والعمران أو الاستخلاف، وهي السُّنَن الاجتماعيَّة المعتادة:

إنها السُّنَن الإنسانيَّة الاجتماعيَّة الواقعيَّة، ولها علاقة واضحة بالسُّنَن الكونيَّة والشَّرعيَّة، فقد يقوم إنسان باختيار سُنَّة حُبوط العمل، كأن يعمل الصَّالحات طلبًا للفلاح، ثم يرتدَّ على عقبيه، فيضادّ سُنَّة الفلاح.

وهذه السُّنَن هي مناط الابتلاء للأفراد والمجتمعات، فإنْ هُمْ أخذوا بسُنَن النُّهوض والتَّرقِّي حُمدوا واستحقُّوا رفيع المنازل في الدُّنيا، أو في الأخرى، أو في كليهما، وإنْ هُم فرَّطوا بها وأهملوها وسلكوا دروب العِثار والتَّقهقر جرت عليهم سُنَن الخسران والبوار وكانوا من المذمومين الملامين؛ إذ السُّنَّةُ بالنسبة لسلوك الفعل البشريِّ هي: الطَّبيعة، والسِّيرةُ؛ حَسَنَةً

(١) ينظر: سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم (ص: ٦١، ٦٢).

كانتْ أم قبيحةً، وهي تختلف حسب المجتمعات والعصور، وعلى الرُّغم من أنها ثابتة، فإن جعل الاختيار فيها للبشر يجعلها متغيِّرة، فتقبل التَّغيُّر الإيجابيّ أو السَّلبيّ إذا نظرت إلى الامتدادات الزَّمنيَّة، فالزِّنا على سبيل المثال كان فعلًا قبيحًا مستهجنًا عند النَّصارى في زمنٍ خلا، بينما هو ثقافة تدعو إلى المتابعة في الوقت المعاصر، وقد كرَّر الله ﷻ ذكر هذه السُّنَن الاجتماعيَّة حسنها وقبيحها، فمن أمثلتها:

١) سُنَّة اطِّراح العقل والاستبصار تقليدًا للآباء والأوَّلين:

فقد قال الله ﷻ عن الجانب المظلم منها: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣]، وقال الله ﷻ أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

٢) سُنَّة المبادرة إلى الخير أو الضَّير:

قرَّر القرآن الكريم السُّنَن الاجتماعيَّة البرَّة الصَّالحة، وحثَّ على التَّصدُّر في فعلها، ومدح المبادرة إليها، ليقتدي العالم بفاعلها، وفي ذلك يقول ربُّنا –جلَّ مجده–: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

٣) سُنَّة: (صِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ) فالتَّعاون والتواصل الاجتماعيُّ وحسن الجوار يؤدي إلى التَّنمية والإعمار:

وإن أردت مثلًا على هذه السُّنَن فاضرب لهم مثلًا: السُّنَن الاجتماعيَّة الأربع الجامعة التي قال فيها النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»[١].

أثبت النَّبيُّ ﷺ قانونين اجتماعيين عظيمين: الرِّفق يقيم الخير في الحياتين، وصلة الرَّحم وحسن التَّعامل (الخلق والجوار) يؤدِّيان إلى التَّنمية المجتمعيَّة والامتدادات العمريَّة حتى للأفراد لخلوِّ حياتهم من إدارة الصَّدمات واستهلاك الأوقات في تتبُّع المشكلات.

ومن السُّنَن الاجتماعيَّة قول عنترة[٢]:

لا يحْمِلُ الحِقْدَ مَنْ تَعْلُو بِهِ الرُّتَبُ ... ولا ينالُ العلى من طبعهُ الغَضَبُ

إِنَّ الأَفاعي وَإِن لانَت مَلامِسُها ... عِندَ التَقَلُّبِ في أَنيابِها العَطَبُ[٣]

النوع الرابع: سُنَن التَّغيير الثَّابتة:

وهذا النوع ينتمي إلى الأنواع السَّابقة لكننا أفردناه لأهمِّيَّته، فالمراد بها السُّنن التي تسبِّب التَّحوُّل من حالة الضَّعف إلى حالة القوَّة، والعكس، ومن حالة الازدهار إلى حالة الانهيار والعكس، وهكذا.

وأمام هذه الأنواع من السُّنن يوجد ما يقابلها فيخرق العادة فيها، فمن ذلك:

---

(١) أحمد (٢٥٢٥٩)، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير محمد بن مهزم فمن رجال "التعجيل"».

(٢) ينظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، للسيد أحمد الهاشمي (٢/ ٢٦٤).

(٣) هذا بيت لعنترة من قصيدة قالها يتوعد (النعمان بن المنذر) ملك العرب ويفتخر بقومه. رجال المعلقات العشر، (ص: ٢٢٤).

١) خوارق السُّنَن المادِّيَّة:

فمن أمثلته المعجزات المادِّيَّة التي جعلها الله ﷻ للأنبياء مثل عدم إحراق إبراهيم عليه السلام بالنار، ومشي الصَّحابة رضي الله عنهم على الماء، مثل ما ورد عن العلاء بن الحضرميِّ رضي الله عنه لما افتتح البحرين، سألوا راهبًا، فقيل له: ما دعاك إلى الإسلام؟ فقال: ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخني اللّه ﷻ بعدها إن لم أسلم: فَيْضٌ في الرمال، وتمهيد أثباج البحار، ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء من السَّحَر، قالوا: اللَّهمَّ أنت الرَّحمن الرَّحيم، لا إله غيرك، والبديع ليس قبلك شيء، والدَّائم غير الغافل، والحيُّ الذي لا يموت، وخالق ما يُرَى وما لا يُرَى، وكلُّ يوم أنت في شأن، علَّمت اللَّهمَّ كلَّ شيء بغير تَعَلُّم، فعلمتُ أنَّ القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله ﷻ، ثم سار العلاء رضي الله عنه إلى دارين، فأتى ساحل البحر، فدعا الله ﷻ واقتحموا، فأجازوه كأنهم يمشون على مثل رَمْلة مَيْثَاءَ، فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل[1]، وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر:

أَلَـــمْ تَـــرَ أنَّ الله ذَلَّـــلَ بَحْـــرهُ ... وأنْـــزَلَ بِالْكُفَّـــار إِحْـــدَى الجَلائِـــل

دَعَوْنَـا الَّـذِي شَـقَ البِحَـارَ فَجَاءَنَـا ... بِأعْجَـب مِـنْ فَلْـقِ البِحَـار الأوَائِـل[2]

٢) ما يقرب من خوارق السُّنَن الاجتماعيَّة:

وذلك مثل تأليف قلوب المتنافرين، أو تفريق قلوب المؤتلفين من غير أن تبذل جهدًا يذكر لفعل أحد الأمرين.

فخوارق العادات غيَّر الله ﷻ فيها القوانين الثَّابتة بصورةٍ خرقت السُّنن.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣١٠).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣١١- ٣١٣).

وقد يطرأ عليك سؤال: كيف نسمِّي النَّوع الرَّابع الخارق للسُّنَن، وهي خارقة لمبدأ السُّننيَّة؟

الجواب: يمكن أن تدرج في السُّننيَّة باعتبار خضوع قانونها لله ﷻ، فهو الذي بيده اطِّراد السُّنَن، وهو الذي بيده خرقها، وبالنَّظر إلى الفعل الإلهيِّ فكلُّ ذلك سُنَّة: المطَّردة والخارقة.

٣) خوارق سنن التَّغيير:

والمراد بها العوامل الخارقة التي تسبِّب الظُّهور المفاجئ أو الاختفاء المفاجئ، وهي أمورٌ معجزة كما هو الحال مع مثيلاتها، وتسميتها سُننًا تسامح، بل هي عائدة لأمر الله ﴿كن﴾، وذلك مثل: الظُّهور المفاجئ للوجود البشريِّ من تراب.

والاستسقاء مثالٌ عظيمٌ على استعمال خوارق السُّنَن، وذلك يقود إلى التَّذلُّل الدَّائم بين يدي الله ﷻ، ولكن ذلك لا يعني إهمال السُّنَن الثَّابتة:

تأخَّر ذكر موضوع السُّقيا في العهد الموسويِّ في سورة البقرة فذُكر بعد موضوع الأكل والحلوى، وموضوع دخول القرية، فذكر في الآية (٦٠)، وذلك لأنَّ الماء يمكن أن يُحْمَل، أما الغذاء كاللَّحم فلا يبقى محمولًا مدَّة طويلة بسهولة في الطَّريق الطَّويل في ذلك الوقت، فأعطاهم الغذاء قبل الماء حسب ترتيب الآيات، أمَّا الماء فيمكن أن يحمل في القِرَب بسهولة فلما نفد الماء، واحتاجوا له أيضًا لغير الشرب بعد أن طالت إقامتهم في الصَّحراء طلب موسى -عليه وعلى نبينا أفضل الصَّلاة والسَّلام- السُّقيا، فالسُّقيا لا تطلب إلا عند نفاد ما عند الإنسان، والغالب ألا يخرجوا في رحلة طويلة، ثم لا يأخذوا احتياطاتهم المائية حسَب المتاح لهم، مع استفادتهم ممَّا ينزل عليهم من ماء القطر، أو ما يمرون به من العيون، فالذي ينفد سريعًا الأكل لا الشرب لإمكان احتماله، أَمَا وهُمْ أبوا دخول القرية، وطال بقاؤهم في

الصَّحراء، فإن ذلك كافٍ في أن يطلبوا السُّقيا من موسى عليه السلام، فيستسقي لهم عليه الصَّلاة والسَّلام، فهذا سبب التَّأخير في ذكر الماء.

وتأمَّل في الآية جيدًا ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ فالمستسقِي موسى عليه السلام، والمستسقَى لهم قومه، ولكن أين المستسقَى؟

إن المستسقَى هو الله –جلَّ شأنه- وترى أن لفظ الجلالة لم يظهر في الجملة؛ لأن الاستسقاء من جملة سنن التَّغيير المتغيِّرة، التي لا يمكن لأحدٍ القيام بها إلا خالقها القدير المتحكِّم بها، فلم يَحْتَجْ إلى ذكر الاسم المعظَّم؛ لظهوره، على حدِّ قول القائل:

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ … إلا عَلَى أَكْمَهٍ لا يُدْرِكُ القَمَرَا

لكِنْ بَطَنْتَ بما أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبًا … وكيفَ يُعْرَفُ مَنْ بالعِزَّةِ اشْتَهَرَا[1]

فالسُّنَّة الثَّابتة أنَّ طالب الماء ينبغي أن يطلبه من مظانِّ وجوده في الأنهر والمياه الجارية، ومياه الأمطار، والمياه الجوفيَّة، والعيون والآبار وأمثالها، فإن ذهبت الحيلة، وسدَّت أبواب الطَّلب، بقي اللُّجوء إلى سُنَن التَّغيير المتغيِّرة، وهذه لا يملكها إلا الله –جلَّ شأنه- فيلجأ العبد إلى مسبِّب الأسباب، الذي يملك التَّحكُّم في السُّنَن الثَّابتة طالبًا تحقيق أهدافه التي قد بذل وسعه لإقامتها وَفْقَ الجهد البشريِّ، فلم تتحقَّق له، عند ذاك يلجأ إلى الله –جلَّ مجده-

وَكَمْ أَصَابَ المسلمينَ مِنْ جَفَافْ … فَنَفَرُوا ثِقَالُهُمْ مَعَ الِخفَافْ

وطلبوا مِنَ الإلهِ الفَرَجَا … فَحَقَّقُوا الفوزَ ونالوا المخْرَجَا

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٢٢).

فَهَـــلْ طبيعَـــةُ أَجَابَـــتْ أَمْ وَثَـــنْ أَمْ أنـهُ السَّـميعُ كشَّـافُ المِحـنْ[1]

وطلبُ الماء كطلب الطعام من السُّنَن الثَّابتة في الواقع البشري لأنهم بشر، وقد قال الله – تعالى ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فكان هذا الإنعام من أعظم أنواع الإنعام المدهشة.

ولكن الرُّجوع إلى خوارق السُّنَن لا يعني الإعراض الكلِّيَّ عن السُّنَن الثَّابتة، إذ ترى الله ﷻ يقول: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠]، والضَّرب هو اللَّمس الضَّاغط المتَّجه سريعًا، والأصل أن يكون خفيفًا، وقد يكون ثقيلًا، فيشبه الوكز ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، فإذا كان الضَّرب مؤلـمًا فإنه يقيَّد به كأن يُقال: ضربه ضربًا وجيعًا أو مؤلـمًا، أمَّا مجرد الضرب فهو اللمس أو المس الضاغط القادم بخفة، لذا قال الله ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠]، فإنك إن ضربت الحجر بالعصا بقوة شديدة **فإن المتوقع أن تنكسر** العصا؛ لأن الحجر يكون أقوى غالبًا، فالمراد من الأمر بالضرب هنا أن يكون هذا الضرب ضربًا خفيفًا.

وقد تسأل: ما الحكمة من أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يضرب هذا الجامد بذلك الجامد؟ ما فائدة ذلك مع أن الله ﷻ يقول للشَّيء كن فيكون، وكان يمكن الاستغناء عن ضرب موسى عليه السلام للحجر؟

الجواب: إنه الاعتياد على اعتماد الأسباب مهما ضعف أمرها، وهان شأنها، واعتياد السَّمع والطَّاعة أمام هؤلاء الأتباع الجامدين، فقد طلب الله –تعالى ذكره– من موسى عليه السلام بذل أمرٍ يسير حتى يأتي النَّصر من العليِّ الكبير.

---

(١) الأبيات لعبد الرحمن قاضي. ينظر: الإيمان للشيخ الزنداني (ص: ٤٣)، الحكمة في الدعوة إلى الله (١/ ٣٥٨).

السُّنَن وإجراءاتها:

السُّنَن الكلِّيَّة تراها تسير في فلك التَّقعيد الكلي مثل قولنا: السَّعي والتَّسيار سُنَّتا الإعمار، فإن الله ﷻ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، ولها قوانين إجرائيَّة تَفصيليَّة ضروريَّة لتكتمل تلك السنن وبذا يمكن أن نرى أربع صورٍ من السُّنَن:

١) **سُنَن كونيَّة كلِّيَّة**، فنجد في موضوع سُنَن الخلق السُّنَّة الكلِّيَّة الآتية: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

٢) **سُنَن كونيَّة جزئيَّة**، مثل: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]، فالإنسان يخلق من أبوين، ولا بدَّ أن يمرَّ خلق الإنسان بأطوار: النُّطفة، فالعلقة...

٣) **سُنَن إنسانيَّة كلِّيَّة**، مثل: سُنَن الخروج من الاستضعاف، والابتلاء، وسُنَّة التَّمكين، وسُنَن اختيار القيادة، فهي سبيل الانتصار أو الخسار، فقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ..﴾ [البقرة: ١٥٥] سُنَّة كلِّيَّة مصوغة صياغة تفصيليَّة تجزيئيَّة.

٤) **سُنَن إنسانيَّة جزئيَّة**، مثل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، تنتمي للسُّنَّة الكلِّيَّة التي هي السَّببيَّة، ومثلها سُنَّة: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

والبصائر القُرآنِيَّة غالبًا تقدِّم السُّنَن بصورة مباشرة، أو من خلال الإلهام الذي تقدِّمه في هداياتها.

أهمِّيَّة علـم السُّنَن الإلهيَّة وفوائده

١ الفائدة الأولى

إعادة اكتشاف الثَّروة المعرفية الهائلة التي يكتنزها القرآن لتكون رحمة للعالمين

٢ الفائدة الثانية

اكتشاف الوسائل اللَّازمة لتحقيق الأمن القوميّ للأمَّة وقاية وعلاجًا

٣ الفائدة الثالثة

تغذية القيادات التَّربويَّة والمجتمعيَّة بعلم السُّنَن للتَّمكُّن من القيادة الرَّاشدة المظفَّرة التي تحقّق النَّجاحات

٤ الفائدة الرابعة

تحقيق مبادئ الإعمار الأرضي، الذي هو مهمَّة الإنسانيَّة التي استخلفها الله عز وجل في الأرض

٥ الفائدة الخامسة

استكشاف آيات الأنفس والآفاق، وطبيعة القوانين الحاكمة، وكيفية التَّعامل معها

٦ الفائدة السادسة

الاستبصار بالنِّظام الإلهيّ الذي وضعه الله عز وجل، والاعتبار به للنظر في كيفية التَّعامل مع الوقائع الحاضرة والمستقبلة

٧ الفائدة السابعة

الشعور بوجوب تكوين (الأمَّة الواحدة)، لأن وجودها سُنَّة رائدة في بناء الحضارات

٨ الفائدة الثامنة

الفهم السُّنَنيُّ يؤدي إلى إدراك القوانين التي تحقّق الانتصارات في ميادين الحياة المتعددة، فهو مفتاح يصنع المستقبل.

٩ الفائدة التاسعة

فَهْمُ كيف يُصنعُ تفكير الأغلبيَّة في الواقع الإنسانيّ، ودور الأقلّيَّة القياديَّة في الارتقاء بالأكثريَّة، أو التَّحطيم وصناعة الأدواء المدمِّرة.

عبد السلام مقبل المجيدي

الفصل الرابع

أهمِّيَّة علم السُّنَن الإلهيَّة

إذا كانت السُّنَن تمثل عَمَد قيام الحياة، فحسبك بذلك بيانًا في أهمِّيَّتها، وممَّا يساعد على تصور أهمِّيَّة العلم بها الفوائد الآتية:

الفائدة الأولى: يؤدِّي علم السُّنَن إلى إعادة اكتشاف الثَّروة المعرفيَّة الهائلة التي يكتنزها القرآن، لتكون رحمة للعالمين، وهدى وبشرى للمؤمنين في حياتهم الفكريَّة، والتَّطبيقيَّة:

ومن ذلك أن نعرف قوانين نجاح الأفراد، وسُنَن فشلهم، وقوانين قيام الحضارات، وأسباب سقوطها، وقوانين الازدهار، وعوامل الانهيار، فاسمع ربَّنا -جل مجده- وهو يبيِّن لنا ضرورة اكتشاف هذه الثَّروة المعرفيَّة القُرآنيَّة، فيقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، وقد أحسَّ ابن مسعود ﷺ بذلك إحساسًا عاليًا غاليًا غالبًا، فقال: «مَنْ أَرَادَ الْعِلم، فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلم الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ»[1]، وثَوَّرَ القرآن: بَحَثَ عن معانيه، وعن عِلمه، وفاتشَ العُلماء في تفْسيره.

قولهم: (إعادة اكتشاف القرآن) جملةٌ إثارية، يراد منها العودة إلى الجذور الأصليَّة، والتَّدبُّر التَّامُّ للقرآن الكريم، والبحث عن الإسقاط الواقعيِّ للحقائق القرآنيَّة في الحياة.

(١) أخرجه الطبراني في "الكبير" (٨٦٦٥) من طريق زهير، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود ﷺ، وذكره الهيثمي في "المجمع" (٧ / ١٦٨)، وقال: «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح»، وصحَّحه على شرط الشيخين أبو عبد الله الداني. ينظر: سلسلة الآثار الصَّحيحة (١/ ١٥١).

إنَّ قراءة القرآن بهذه النِّيَّة، تجعلنا كالذين يقرؤون القرآن للمرَّة الأولى؛ إذ «يتميَّز القرآن بذلك **من حيث إنه نصٌّ لا يمكن استنفاد ماهيته.. نصٌّ يمتاز بتعدُّد مستويات المعنى**»[١]، كما قال: (إيزوتسو).

أفتُنْكِر -أيا صاحباه- أن نقول: يجب أن نعيد اكتشافنا لحقائق القرآن؟ تعال فاسمع إلى ابن عبَّاس ﷺ يحكي القِصَّة المشهورة في موقف الناس من موت النَّبيِّ ﷺ؛ ليتَّضح لك المراد بهذا التَّعبير؛ إذ يقول عن أبي بكر ﷺ: فَمَالَ إِلَيْهِ النَّاسُ، وَتَرَكُوا عُمَرَ ﷺ، فَقَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ، فَإِنَّ اللهَ حيٌّ لا يَمُوتُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]»، وَاللهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لم يَكُونُوا يَعْلمونَ أَنَّ اللهَ ﷻ أَنْزَلَ الآيَةَ حَتَّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ ﷺ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا[٢]، وفي رواية ذكر سَعِيدُ بْنُ المسَيَّبِ ﷺ أَنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ: وَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ ﷺ تَلاهَا، فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاهَا علمت أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ[٣].

وأنت ترى أنه قد جَاءَ ذِكْرُ السُّنَن الإلهيَّة مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ في مَوَاضِعَ متعدِّدة، تعبِّر عن مواقف فاصلة في أمور الحياة.

---

(١) الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية، للعالم (توشيهيكو إيزوتسو)، ترجمة وتقديم د هلال محمد الجهاد (ص: ١٢)، والكلام للمقدِّم.

(٢) البخاري (١٢٤٢).

(٣) البخاري (٤٤٥٤).

الفائدة الثانية: علم السُّنَن الإلهيَّة يؤدّي إلى اكتشاف الوسائل اللازمة لتحقيق الأمن القوميِّ للأمُّة وقاية، وعلاجًا:

فقد جاء التَّصريح بذكر السُّنَن الإلهيَّة في القرآن الكريم في إطار ذلك:

ففي سورة (آل عمران): نرى تفصيلًا يأخذ الأنفاس حول علاقات الناس المحلِّيَّة والدَّوليَّة وحول علاقات المسلمين مع غيرهم كأهل الكتاب، وخاصَّة النَّصارى، وفي وسط السُّورة يأتي ذكر (السُّنن) أثناء الكلام عن سُنَن النَّصر والهزيمة في النَّواحي الحياتيَّة عامَّة، وفي النواحي العسكريَّة خاصة، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

> **إنَّ الله ﷻ يعلِّمنا استيعاب السُّنَن للكرِّ بعد الفرار، وللانتصار بعد الانكسار، وللإعمار بعد الدَّمار، وللإفاقة بعد المصيبة..إنَّه يعلِّمنا كيف نستوعب الهزيمة ونحوِّلها إلى نصر.**

وفي سورة النِّساء: جاء الكلام عن السُّنَن في سياق بيان المقاصد الكبرى للتَّشريعات الإسلاميَّة الفريدة المتميِّزة التي تحبو البشريَّة لتشمَّ عبقها، أو تجد أريجها: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، يذكر الله ﷻ السُّنَن هنا؛ **ليبيِّن التَّفوُّق التَّشريعيَّ للوحي الإلهيِّ في تنظيم مبادئ الحقوق والواجبات** على المستوى الاجتماعيِّ والأُسَريِّ، والعلاقات الدَّوليَّة القائمة على السِّلم وكفِّ اليد، إنها تعاليم ومنظومات تشريعيَّة متفوِّقة بصورةٍ مذهلة.

وفي سورة الأنفال: يذكر الله ﷻ السُّنَن **في سياق التَّفصيل المدهش للتَّعامل مع المؤامرات الخارجيَّة**، التي ينفق فيها المتآمرون الأموال ليصدُّوا عن سبيل الله ﷻ، ويُوجدوا الإرعاب

للعالـم من الإسلام وأهله، في هذه الأثناء، وفي وسط السُّورة يأتي الكلام عن السُّنَن في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

أمَّا في سورة الحجر: فترى الكلام عن السُّنَن من أول السُّورة في سياق التَّحليل للنَّفسيَّة الشَّاردة عن البيان الإلهيِّ الأخير الـمحفوظ، الذي يوضِّح للبشريَّة مصالحها الحقيقيَّة في قوله عزَّ وتقدَّس: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ [الحجر: ١٠ - ١٣].. إنَّ الله ﷻ ينقل لنا صورة **دوائر الإجرام الـمستهزئين بقادة الخير والرَّحمة في العالـم**، إنه يعلِّمنا كيف نبحث عن السُّنَن في التَّعامل معهم؛ لنتمكَّن من الصُّمود أمام عتوِّهم، وتجبُّرهم، وتآمرهم.

وفي سورة (بني إسرائيل): يأتي الكلام عن السُّنَن في **سياق الدِّفاع عن الـمرسلين إزاء التَّآمر الـمحليِّ، أو العالـميِّ**، والدَّور المحتمل للفاسدين من بني إسرائيل في ذلك، حيث تمَّت الإشارة لهم في أوَّل السُّورة وفي آخرها، ويتوسَّط ذلك ذكر السُّنن في قوله ﷻ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]، لكأنَّ الكلام يبيِّن صِمام الأمان لحفظ البشريَّة من الـمعتدين من بني إسرائيل، وأتباعهم، وحلفائهم في الأرض ممن يصرُّون على الإفساد في الأرض، والعلوِّ الكبير.

وفي سورة الكهف: جاء ذكر السُّنَن في **سياق الكلام عن الشُّبه التي يتشبَّث بها أنصار البَغْيِ، والعدوان؛ لصدِّ الناس عن جمال الإيمان**، وذلك في قوله -جلَّ مجده-: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾

[الكهف: ٥٥]، وهي شبهٌ تعكس العناد، والعقل الفارغ، والتَّضليل الإعلاميّ والثَّقافيّ أكثر ممَّا تعكس البحث عن الحقيقة.

فإذا جئت إلى سورة الأحزاب: تجد ذكر السُّنَّة في صدد **بيان القانون الشَّرعيّ الثَّابت الـمتعلِّق بالوظيفة التَّبليغيَّة** للرِّسالة التي تحتاجها البشريَّة، وذلك في قوله ﷻ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وفي سورة الأحزاب -أيضًا- تجد تَكرار الكلام عن (السُّنَن) في قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وذلك ليبيِّن الله ﷻ القوانين الكونيَّة والشَّرعيَّة التي ينجو بها أتباع رسالة الحقِّ والخير من المكر الكُبَّار الذي يحاول أن يعيدهم في الملل الجاهليَّة، خاصَّة وأنت ترى أن رسالة الحقِّ والخير يجيئها أمواج الـمؤامرات الشَّيطانيَّة من كلِّ مكان؛ حتى كأنَّ أتباعها قد أحيط بهم.

ترى ضمن السُّنَن المذكورة في سورة الأحزاب طبيعةَ التَّصرُّف السِّياسيِّ مع الأخطار التي تسبِّبها قوى النِّفاق والإرجاف ومرضى القلوب في الـمجتمع الـمدنيِّ الـمسلـم؛ إذ تسعى جاهدة لزعزعة الأمن، وإحداث القلاقل.

ثم ترى الحديث عن السُّنَن يعود في سورة فاطر لتقرير الإحاطة بالـماكرين، وارتداد الـمكر السَّيِّئ على أهله.. إنها إشارة إلى التَّآمر الـمحليِّ والعالـميِّ على إقبال النَّاس على توحيد فاطر السَّموات والأرض: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: ٤٣].

ويفصِّل الله ﷻ في سورة غافر الحديث عن سُنَّته في تدمير الـمجرمين الفرحين بالعلـم الأرضيِّ الذي غرَّهم حتى تركوا الوحي الإلهيَّ، وعندما تنزل بهم عاقبة الغرور والاستكبار، يحاولون التَّوبة عندما يفوت الأوان: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٥].

وآخر موضع للكلام عن علم السُّنَن يأتي في سورة الفتح؛ ليبيِّن عوامل تحقيق الفتح للـمؤمنين في قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣].

ولقد تميَّز القرآن عن غيره من الكتب الإلهيَّة بذكر هذه السُّنَن، بينما تركِّز الكتب الأخرى على التَّشريعات، والسِّيَر التَّاريخيَّة.

تَكْرار ذكر السُّنَّة عند ذكر أنواع مختلفة من الـمؤامرات يلفت النَّظر إلى أن التَّدبير السِّياسيَّ لا يغني شيئًا إن لـم يكن هناك نظر عميق في السُّنَن الإلهيَّة الكونيَّة والقرآنيَّة.

الفائدة الثالثة: علم السنن يغذي القيادات التَّربويَّة والـمجتمعيَّة بأساليب القيادة الرَّاشدة الـمظفَّرة التي تحقِّق النَّجاح:

ألا ترى أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أن الأمَّة ستقلِّد سُنَن الكتابيين في الصَّغير والكبير؛ والسَّيئ والحسن، ثم إنها غالبًا ستترك الحسن لتركِّز في اقتدائها بهم على السَّيئ، وذلك يُؤْذِن بالانتكاس الفظيع، والانهيار المريع، وهي تصنع ذلك لإتمام عملية الإحلال، وبما أنها لـم تأخذ بسُنَن القرآن الـمبين، تراها تعمل على أن يحلَّ مكانها الأخذُ بسُنَن الفاشلين.

وأخبر النَّبيُّ ﷺ بذلك؛ ليعلِّم الأمَّة كيف تكون حصنًا أمنيًا لها من ذلك، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»[(١)]، وأنت ترى أن الخبر في معرض الذَّم، فالنَّبيُّ ﷺ لم يقصد تحريضها على ترك الأخذ بسُنَن الآخرين في المجالات الإيجابيَّة، بل التَّحذير من اتِّباعهم في الخطوات السَّلبيَّة، وإلا فقد صام رسول الله ﷺ عاشوراء، وكان يومًا يصومه أهل الجاهليَّة، واليهود معًا، لكأنَّه ﷺ رأى الأمَّة وهي لم تترك شاردة من نجاساتهم إلا حاولت تقليدها -والله المستعان- فتراه يذكر الشِّبر والذِّراع، وليس كلُّ ما يفعله أهل الكتاب سيئًا، لكن النَّبيَّ ﷺ أشار إلى الجانب السَّلبيِّ، أما الجانب الإيجابيُّ فقد أمر بإتمامه، حتى لو صدر من الوثنيين، فقد قال ﷺ: «إنما بُعثت لأتمِّمَ صالح الأخلاق»[(٢)].

والذين ينبغي أن يرسخوا في علم السُّنَن هم القيادات من الأئمَّة المقتدى بهم في المجالات المختلفة، فإن لم يرسخوا في علم السُّنَن، ضلُّوا من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وأضلُّوا غيرهم، وصاروا ضمن أئمَّة إفشال الأمَّة المضلِّين الذين حذَّر منهم أبو الدَّرداء، وثوبان ﭫ حينما رويا أن رسول الله ﷺ قال: «أخوفُ ما أخافُ على أُمَّتِي الأئمَّة المضلُّون»[(٣)]، وإنما حذَّر منهم؛ «لأن الباعث على طاعتهم في هواهم ومتابعتهم في دعواهم

---

(١) البخاري (٣٤٥٦).

(٢) أحمد (٨٩٥٢)، وقال الأرناؤوط: «صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث».

(٣) حديث ثوبان ؓ عند الترمذي (٢٢٢٩)، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وصحَّحه الألباني في الصَّحيحة (١٥٨٢)، وحديث أبي الدرداء ؓ عند أحمد (٢٧٤٨٥)، وصحَّحه الأرناؤوط لغيره.

ما في أيديهم ممَّا جبلت النُّفوس على طلبه من المال والشَّرف، فيفسد بفسادهم غالب الأمَّة»(١).

الفائدة الرابعة: يحقِّق علم السُّنَن مبادئ الإعمار الأرضيِّ الذي هو مهمَّة الإنسانيَّة التي استخلفها الله ﷻ في الأرض:

فكانت أوَّل الآيات التي نزلت لتبني الحياة قول ربِّنا جلَّ مجده: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ - ٥]، «فكلمة (اقرأ) توضِّح لنا أنَّ مهارة التَّخاطب الكتابيِّ هي إحدى النِّعم السَّماويَّة العظيمة؛ لأنه عن طريق استخدام القلم علَّم الله ﷻ الإنسان ما لم يعلم»(٢)، **وقد تكرَّرت الكلمات الدَّالَّة على المعرفة في القرآن الكريم** نحوًا من (٨٥٤) مرَّة؛ لأن المعرفة هي أداة البناء للكوكب الأرضيِّ، وللمنزل الأخرويِّ، ولا يرى آيات الله ﷻ البيِّنة إلا العالمون، ولذا يقول الله تعالى مجده: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾ [الروم: ٢٢].

وبالمعرفة يتمُّ التَّخلُّص من فخِّ الهوى الذي يصادر العلم، ولا تستخدمه إلا القوى الظَّالمة في الأرض ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]، «هنا يجب ألا يؤخذ تعبير: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بمعناه المباشر: (من دون معرفة)، أي: من دون قصد ذلك. إن مرتكبي الشُّرور وَفقًا للقرآن يفعلون ما يفعلون بوعي تامٍّ؛ ولذا فإن كلمة: (علم) تحمل ثقلًا أكبر، وإن تعبير: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: بدلًا من الاستعانة بـ(العلم)»(٣)، فالمقصود أنهم يرون العلم أمامهم، لكنهم يأبون اتِّباعه، كما يأبى العدول عن طريقه رجل يرى أنه سيسقط في هاوية مُحْرِقة عنادًا وكبرًا.

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير لابن الأمير الصنعاني (٣/ ٥٦٨).

(٢) حتى الملائكة تسأل، د. جيفري لانغ، ترجمة د. منذر العبسي (ص: ٥٦).

(٣) الله والإنسان في القرآن لتوشيهيكو (ص: ١٠٨).

وتلاحظ أن الهوى يقابل العلم في المعرفة القُرآنيَّة، فالأخذ بالهوى والرَّغبات الشَّخصيَّة، قد يضاد ما يقتضيه العلم، استسلامًا لشهوات الإنسان بدلًا من التَّحرُّر من أغلال الهوى الظَّالمة، وملء الحياة بالأنظمة المتقنة التي تجدها في شريعة الرَّحمن، وبذا يكون الإنسان وحده أمام تحدِّيات الحياة دون أن يجد من الله ﷻ وليًّا أو ناصرًا أو واقيًا من الشُّرور المحيطة: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

تعال نضرب مثالًا على ذلك من الأمم الخالية؛ لنجعل من سيرتها آياتٍ أُخَر لنا، عسى أن نطبِّق سُنَن النَّجاح، ونتقي سُنَن الفشل والهزيمة:

لـمَّا دخل موسى بن نصير رحمه الله أفريقية، أقام بها أشهرًا يغزو أطرافها مؤمِّنًا لها.

هنا أراد أن يضع عددًا من القوانين الإداريَّة التي تعين على عمارة الأرض، والـمحافظة على الـمنجزات العظيمة التي تحقَّقت، فلـما كان من عامه ذلك في رمضان، ودنا العيد لـم يشعر الناس به إلا وقد صعد الـمنبر، فأمر بالأبواب فأخذت على الناس، فارتاعوا لذلك، فحمد الله ﷻ، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: أيُّها النَّاس، فإنَّكم قد أصبحتم في نحور عدوِّكم، وبأقصى ثغرٍ من ثغوركم، أبعده شُقَّةً، وأشدُّه انتياطًا، بدارٍ قد شَحَطَت عن دياركم، ومصرٍ قد نأى عن أمصاركم، بين عدوٍّ كَلِبٍ عليكم، قد قربت داره منكم، فأنتم منه بمرأى ومسمع، وكفى بالله نصيرًا، وقد رأيت ضعفًا من قوَّتكم، ورثاثةً من عدَّتكم، وقد عزمت على قَسْم فيئكم بينكم، فإن يمضه أمير الـمؤمنين، فحقُّكم أُدِّي إليكم، وإن يكن له رأي غير ذلك، أكن له به كفيلًا، وقد أمرت لكم من مالي بمعونة، وهي مني لكم في كل عامٍ -إن شاء الله-».

ففي ذلك يقول زائدة بن الصلت الغساني رحمه الله -وكان من فرسان المغرب المعدودين- ذاكرًا سنن العمارة التي سنَّها موسى رحمه الله:

قَدْ سَنَّ موسى سُنَّةً وَأَثَرًا ... مآثرًا محمودةً لَنْ تُنْكَرَا

بالقيرَوَانِ فَاقَ فيها البَشَرَا ... ما سَنَّهُ مَنْ قَبْلَهُ فيُؤْثَرَا

في سَالِفِ الدَّهْرِ وَلَا من غَبَرا ... مَنْ كانَ ذَا مُلْكٍ وَمَنْ تَأَمَّرَا

إلا أَبَا بَكْرٍ وَإِلا عُمَرَا ... سَنَّ الذي شَأَى وَقَصَّ الأَثَرَا

أَعْطَى الغَنِي حظَّه والأَفْقَرَا ... وَسَنَّ أُخْرَى بَعْدَهَا لِيُذْكَرَا

سَنَّ لنا في عيدِهِ إِذْ أَفْطَرَا ... في كُلِّ عَامٍ سُنَّةً لَنْ تُكْفَرَا

مَعُونَةً أَطَابَهَا وَأَكْثَرَا ... لَمَّا عَلَا في العِيدِ مِنَّا المِنْبَرَا

كأنهُ البَدرُ إذا ما أَبْدَرَا ... واحْتَضَرَ الناسَ فجَاؤُوا زُمَرَا

أَنْهَبَ فينا بِدَرًا فَبِدَرًا ... فَوَارِدًا أَنْهَلَهُ وَأَصْدَرَا[1]

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦١/ ٢١٨)، ومعنى شأى: سبق.

الفائدة الخامسة: أصل علم السُّنَن يؤدي إلى استكشاف آيات الأنفس والآفاق، وطبيعة القوانين الحاكمة التي تسخر السَّمَوَات والأرض، وكيفيَّة التَّعامل معها في نفع البشريَّة ممَّا يظهر إعجاز القرآن الكريم، فالاقتناع بعلم السنن يؤدِّي اكتشاف تفاصيل تلك السنن المبثوثة:

فإن القوانين المادِّيَّة، والاجتماعيَّة، والتَّاريخيَّة تخبرنا عن السبب والنَّتيجة في مُلَخَّص فكرتها، وقد جعل الله ﷻ استكشاف القوانين المادِّيَّة علامة النُّضج العقليِّ، بالإضافة إلى أن استكشاف السُّنَن الكونيَّة في (الآفاق، والأنفس)، يزيد الإيمان، ويبيِّن أنَّ الـمخلوقات يُسيِّرها حكيمٌ عليمٌ، واستكشاف السُّنَن الاجتماعيَّة يؤدِّي إلى إقامة مبادئ الإعمار الأرضيِّ، وحماية الأمن الإنسانِيِّ، وذلك كلُّه يحقِّق الإعجاز القرآنيَّ، وقد ذكر الله ﷻ ذلك، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصِّلت: ٥٣].

مجالات علم السنن:

هذه الآية الـمباركة الـمنبثقة من سورة (فصِّلت) تفصِّل لنا **أعظم مجالين للسُّنَن الكونيَّة، والاجتماعيَّة**: الآفاق، والأنفس، وقد ذكر أهل العلـم بالتَّفسير أقوالًا في معنى آيات الآفاق، والأنفس(١).

ويمكن تلخيص ذلك في الآتي.

آيات الآفاق:

الْآفَاق: جمع أُفُق، وَهُوَ النَّاحِيَةُ من نواحي الأرض، وكذلك آفاق السَّماء: نواحيها وَأَطْرَافُهَا.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٩٣)، تفسير الرازي (٢٧/ ٥٧٣).

ويدخل في آيات الآفاق الآياتُ الكونيَّة التي يراها الإنسان، ومنها الْآيَاتُ الْفَلَكِيَّةُ، وَالْكَوْكَبِيَّةُ، وَآيَاتُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَآيَاتُ الْأَضْوَاءِ، وَالْإِضْلَالِ، وَالظُّلماتِ، وَآيَاتُ عَالـم الْعَنَاصِرِ الأربعة (التُّراب، والهواء، والـماء، والنار).

ويدخل فيها الآيات الاجتماعيَّة والشَّرعيَّة التي تظهرها الأعمال والجهود البشريَّة، مثل الفتوحات التي تهيَّأت للنَّبيِّ ﷺ وأمَّته بنواحي الأرض، كفتح مكة، وآيات الفتوحات هنا لا تدلُّ على كون الإسلام حقًّا في ذاته لـمجرَّد فتح البلاد له، بل تدلُّ على صدق الإخبار النَّبويِّ: أنَّ الله ﷻ سيردُّه إلى مكة، وأنَّ مُلْك أمَّتِه سيبلغ ما زُوي له من الأرض، وذلك أحد طرق بيان أنَّ النَّبيَّ ﷺ حقٌّ، وأن الإسلام حقٌّ، ولخَّص ابن كثير رحمه الله ذلك مبينًا معنى الآية، فقال: «سَنُظْهِرُ لَهُمْ دَلَالَاتِنا، وحُجَجنا عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ الله ﷻ، عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِدَلَائِلَ خَارِجِيَّةٍ فِي الآفَاقِ...وَدَلَائِلَ في أَنْفُسِهِمْ... »(١).

آيات الأنفس:

يدخل فيها **الآياتُ الكونيَّة** التي تظهر الإعجاز في خلق الإنسان، مثل كَيْفِيَّةِ تَكَوُّنِ الْأَجِنَّةِ في ظُلماتِ الْأَرْحَامِ، وَحُدُوثِ الْأَعْضَاءِ الْعَجِيبَةِ، وَالتَّرْكِيبَاتِ الْغَرِيبَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذَّاريات: ٢١]، فـ«الـمرَادُ مِنْ ذَلِكَ مَا الْإِنْسَانُ مُرَكَّبٌ مِنْهُ، وَفِيهِ، وَعَلَيْهِ، مِنَ الـموَادِّ، وَالْأَخْلَاطِ، وَالْهَيْئَاتِ الْعَجِيبَةِ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ في عِلـم التَّشْرِيحِ الدَّالِّ عَلَى حِكْمَةِ الصَّانِعِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَذَلِكَ مَا هُوَ مَجْبُولٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الـمتَبَايِنَةِ: مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمَا هُوَ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ تَحْتَ الْأَقْدَارِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ بِحَوْلِهِ، وَقُوَّتِهِ،

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٨٧).

وحِيَله، وَحَذَرِهِ أَنْ يَجُوزَهَا، وَلَا يَتَعَدَّاهَا، كَمَا أَنْشَدَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنيا رحمه الله في كِتَابِهِ: (التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ)، عَنْ شَيْخِهِ أَبِي جَعْفَرٍ الْقُرَشِيِّ رحمه الله:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرًا ... فَانظرْ إليكَ ففيكَ مُعْتَبَرُ
أنتَ الَّذِي يُمْسِي وَيُصْبِحُ في ... الدُّنيا وكُلُّ أموره عِبَرُ
أنتَ المصرَّفُ كانَ في صِغَرٍ ... ثُمَّ استَقَلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ
أنتَ الَّذِي تَنْعَاه خِلْقَتُه ... يَنْعاه مِنْهُ الشَّعْرُ والبَشَرُ
أنتَ الَّذِي تُعْطَى وَتُسْلَبُ لَا ... يُنْجيه مِنْ أَنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أَنْتَ الَّذِي لَا شَيءَ مِنْه لَهُ ... وَأَحَقُّ منه بِمَالِه القَدَرُ»[(١)]

ويدخل في آيات الأنفس: السُّنَن الاجتماعيَّة والشَّرعيَّة، مثل: العمل والكسب، وتحقيق الإنجازات من خلال هذا المخلوق الضَّعيف في جسده، وعمره، وحواسِّه.

هنا قد تطرح سؤالًا تدبريًّا: كيف يريهم الله ﷻ ما يرونه صباحهم مساءهم إن قلنا: إن الآيات الكونيَّة تدخل في الآفاق، وفي أنفسهم؟

والجواب واضحٌ، فما أكثر ما يرى الإنسان، ثمَّ بمزيد الرُّؤية وقوَّة النَّظر والتَّأمُّل والتَّجربة يكتشف الأسرار الكونيَّة والقوانين الحاكمة التي تفتح له آفاقًا واسعة، ينتج من خلالها الاكتشافات المذهلة والاختراعات التي لا تزال تتوالى على الحياة الإنسانيَّة، كما قال الرَّازيُّ رحمه الله: «فالْقَوْم وَإِنْ كَانُوا قَدْ رَأَوْا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، إِلَّا أَنَّ الْعَجَائِبَ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِمَّا لَا نِهَايَةَ لَهَا، فَهُوَ تَعَالَى يُطْلِعُهُمْ عَلَى تِلْكَ الْعَجَائِبِ زَمَانًا فزَمَانًا»[(٢)].

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٨٧).

(٢) تفسير الرازي (٢٧/ ٥٧٤).

الفائدة السَّادسة: الاستبصار بالنِّظام الإلهيِّ الذي وضعه الله ﷻ في الحركة الكونيَّة، أو الحركة الاجتماعيَّة، والاعتبار به للنَّظر في كيفيَّة التَّعامل مع الوقائع الحاضرة والمستقبلة، والحذر من النَّتائج التي تؤدِّي إليها الغفلة عن السُّنَن:

فقلِّب الطَّرف في القرآن لتجده يبني العقليَّة المسلمة على الاعتبار والادِّكار:

استعدادًا لمواجهة المستقبل، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، والاعتبار من العبور بمجاوزة أحداث القضايا السَّابقة للنَّظر في تكرُّر تلك الأحداث مع القضايا المشابهة اللَّاحقة.

وإعدادًا لما ستنظره العينان في يوم غد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨]، **ولماذا يقصُر القارئ نفسه عند قراءة هذه الآية على فَهْمِ (يوم غد)** بأنه الآخرة؟ ولماذا لا يشمل كلَّ يوم غد حتى يكون (غد الآخرة) آخر الأيام الدَّاخلة وأبرزها؟ والاستعداد له يعني الاستعداد لما سيلقاه المرء في مستقبله القريب، وهو يوم غدٍ الذي يعني بعد لحظات وساعات.

أقام الله ﷻ الكون على سُننٍ لا تتحوَّل ولا تتبدَّل، ومعرفتها والتَّفاعل الإيجابيُّ معها يعني تملُّك مقومات الفلاح الحقيقيَّة، إلا أنَّك ترى الذين يتسبَّبون في كوارث الأمَّة وتدميرها، تفصِّل لهم الآيات سُبَل النَّجاح، وتُتَابِع عليهم المَثُلات؛ ليرجعوا عن دروب الغيِّ، لكنَّهم يصرُّون على العيش في فوضى الأمزجة، والأهواء، والشَّهوات، وعبادة الذَّات، والنَّتيجة أنْ تراهم بأنانيتهم المفرطة ينصرون خطوات التَّدمير، ويُعرِضون عن معالم التَّعمير.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١]، وقد اجتمع عامر بن الظَّرِب العَدواني وحُمَمَة بن رافع عند ملك من ملوك حِمْير، فقال: تساءلا حتى أسمع ما تقولان،

فقال عامر لِحُمَمَة: من أحزمُ الناس؟ قال: مَنْ أخذ رقاب الأمور بيديه، وجعل العواقب نُصْب عينيه، ونبذ التَّهيب دَبْر أذنيْه.

قال: فمن أخرق النَّاس؟ قال: من ركب الخِطَار، واعْتَسَف العِثار، وأَسْرع في البِدار قبل الاقتدار[(١)].

الفائدة السابعة: الشعور بوجوب تكوين (الأمَّة الواحدة)، لأن وجودها سُنَّة رائدة في بناء الحضارات:

واضرب لهم مثلًا سنة تكاد أن تكون أهم سنن بناء الحضارات الحقيقية، تراها واضحةً بينة في الأنوار القُرآنِيَّة هي: سُنَّة (الأمة الواحدة):

توحيد الأمَّة وتكتيل طاقات أبنائها أساس لبناء حضاريٍّ مكين:

إنَّها الأمَّة التي تدير طاقاتها لاستيعاب تحدِّيات البناء والمواجهة، وبناء على الإدراك النَّبويِّ المبكر لها؛ كان بناء النَّبيّ ﷺ للحضارة الإسلاميَّة في المدينة قائمًا عليها، وَفْقَ صورةٍ جاذبة آسرة، وقد اعتمدها إمَّا بوحيٍ توقيفيٍّ، وإمَّا بمبادرةٍ موفَّقة، وكان من أهمِّ السُّنَن التَّفصيليَّة التَّطبيقيَّة لها: سُنَّة التَّكافؤ بين جميع المسلمين، ويترتَّب عليه العدل، والالتزام بالحقوق والواجبات من كلِّ فرد، حتى من المعاهدين غير المسلمين؛ ولذا قال النَّبيُّ ﷺ:

---

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها (٢/ ٤٣٣).

«الـمسْلـمونَ تتَكَافَأُ دِمَاؤُهُـمْ»[١]، وفي العصر الحديث أدرك أحد أساطين السِّياسة الدَّوليَّة خطورة العمل على قوَّة الاتحاد، فغامر بمستقبله السِّياسيِّ في سبيل مجد أمَّتِه، إنه الـمستشار الألـماني (هلموت كول) الذي عمل على توحيد الألـمانيتين.

لقد شعر (الألـمان) كم أرهقت مسألة التَّوحيد الاقتصاد الألـمانيَّ، حيث قدِّرت كلفة إعادة التَّوحيد بما يزيد عن (١,٥) ترليون يورو، وما زال هنالك تمويلات خاصَّة تزيد عن (١٠٠) مليار يورو، لإعادة إعمار الجزء الشرقي من (ألـمانيا)، لكن (كول) صرَّح في ١٩٩٦م أن «تأخير عمليَّة الاتحاد كان سيكون له كُلْفة سياسيَّة واقتصاديَّة أكبر بكثير من العبء الـماليِّ الذي قبلنا بتحمُّله مع إعادة التَّوحيد الـمسرعة»[٢].

هؤلاء قوم فهموا أنواعًا من سُنَن البناء، وتحقيق الإنجازات، وهي سُنَنٌ تراها على أبهى صورةٍ في الأنوار القُرآنِيَّة، فما بال أهل القرآن في حالك الظُّلـمات؟

وخذ أنموذجًا آخر: فإن الحضارة الأمريكية الـمعاصرة ليست قائمةً على تفوُّق العِرْق الأبيض بقدر ما هي قائمةٌ على الاستفادة من السُّنَن الكونيَّة في الإدارة، فإذا نظرت إليها ستجد أنه يكاد أن يسيطر ثلَّة من الـموهوبين الهنود على وادي السِّليكون الإستراتيجيِّ في التَّحكُّم الصِّناعيِّ الإلكترونيِّ في العالـم، لكن الإطار الذي يحكم الصُّورة هو الإدارة التي استطاعت تطبيق سُنَن الاستيعاب لهذه الطَّاقات البشريَّة الهائلة بخفض جناحٍ، في الوقت الذي تصرُّ فيه

---

(١) أبو داود (٢٧٥١)، وقال الأرناؤط: «صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن». وحسنه الألباني.

(٢) ينظر هذا الرابط: https://www.swissinfo.ch/ara/afp

مراكز التَّحكُّم في البلدان الإسلاميَّة على سياسات الباب المغلق أمام أقرب الناس إليهم من ذوي المواهب المختلفة الجبَّارة.

يـا أُمـَّةَ الـحَـقِّ إنَّ الـجـرحَ متسِعٌ ... فهل تُرى من نزيفِ الجُرحِ نعتبِرُ
قـوميَّـةٌ كَـمْ نَبَحْنَا في مقاطعِهَا ... حتى انْثَنَتْ فَاشْتَكَتْ مِنْ قُبْحِهَا مُضَرُ
شعبيةٌ كَـمْ نَعَقْنَا باسمِهَا زَمَنًا ... بهـا اقتتلنا فما نُبْقِي وما نَـذَرُ
غربيَّةٌ كَـمْ سُقينا مِـنْ مشاربِهَا ... سُمًّا زُعَافًا به الطُّغيانُ يَختمِرُ
شرقيَّةٌ كَـمْ جرعنا مـن مصائبِهَا ... وجـهٌ قبيحٌ للاسْتِعْمَارِ مستَتِرُ
يـا أُمَّـةَ الحقِّ مـاذا بعدُ قد نفِدَتْ ... كـلَّ الدَّعاوى وكَلَّتْ دونها الفِكرُ
مـاذا سـوى عـودةٍ للهِ صادقةٍ ... عسى يُبدِّلُ هذا الحالُ والصُّوَرُ
عسى يعود لنا ماضٍ به ازدهرت ... كـلُّ الدُّنا واهتدى من نورِه البشرُ
على أساس الهُدى كانت مدائننا ... وفي سبيل العُلا لم يُثنِنَا سَفَرُ
لم نفتخر أبدًا بالطِّين أبنيةً ... كَلَّا ولكنَّنا بالعَدْل نفتخرُ[1]

الفائدة الثامنة: الفهم السُّنَنِيُّ يؤدي إلى إدراك للقوانين التي تحقق الانتصارات في ميادين الحياة المتعددة، فهو مفتاح يصنع المستقبل:

وهنا تجد أن الحديث في السُّنَن الإلهيَّة التي تحكم الكون حديثٌ عذبٌ يشعرك بفهمٍ أعمق لواقع الحياة، ترى من خلاله الإعجاز الإلهيِّ في التَّدبير الكونيِّ، إنه حديث يأخذ بأعماق

(١) هذه الأبيات للدكتور أحمد عثمان التويجري مفكر وأديب وشاعر وأكاديمي ومحام سعودي، ينظر:
https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/117678.html

فكرك لـمعرفة الواقع الكونيِّ، وبه تدرك العقليَّة البشريَّة أن الأحداث انعكاسٌ لصفات من له الخلق والأمر، وإظهارٌ لقدرته وقوانينه، «**فالسُّنَن: هي مجموع حقائق الإظهار في الوجود الكونيِّ والبشريِّ بصفته الأساسيَّة مادة، وحركة، وتوازنًا، وبصفته الـمرحليَّة بدءًا، واستمرارًا وانتهاءً**»[1].

الحديث في السُّنَن حديثٌ عن قوانين البدء والإعادة، وقواعد الخلق في الإنشاء والإهلاك، والنَّصر والهزيمة، وصناعة النَّجاح، و(إنجازات) الفشل، هو نظرٌ في الحركة الكونيَّة التي نظمها الله ﷻ.

وقال الله ﷻ عن هذه السُّنَن: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولذا أنشأ ابن القيِّم رحمه الله كتابه الفذَّ: (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتَّعليل) ليبيِّن أنَّ السُّنَن الحاكمة للحياة انعكاس لسُنَن الخلق والأمر، وإظهارٌ لصفات الخالق الـمدبِّر الآمر؛ وهذا ليس بدعًا من القول تُمْلِيه العاطفة، بل هو ما تصل إليه العقول الـمتجرِّدة في دراستها لحركة الحياة.

انظر في الخلاصة العقليَّة التي وصل إليها أحد أكبر الـمؤرِّخين الـمعاصرين، من سياحة علـميَّة في التَّاريخ دامت نحو عشرين عامًا، إنه **الأستاذ (أرنولد توينبي)**[2]، **حيث كتب كتابه الأهمَّ: (دراسة للتَّاريخ)** في ثلث قرن: بدأه في عام ١٩٣٤م وأخرج الجزء العاشر في ١٩٥٤م،

---

(١) قدر الدعوة لرفاعي سرور (ص:٤٥).

(٢) انظر في التعريف بتجربته: دراسة للتاريخ لـ(أرنولد توينبي) استعراض فؤاد محمد سبل، في مدينة العقاد: الإسلام والحضارة الإنسانيَّة من موقع الأستاذ رجائي عطية.

فاستغرقت الموسوعة نحو سبعة آلاف صفحة، ثم أضاف لها جزأين تاليين يحتويان على الرُّسوم والتَّصحيح لآراء قديمة، وسيطرت على كتابته محاولة الإجابة عن ثلاثة أسئلة:

كيف ولماذا تنبعث الحضارات؟ وكيف ولماذا تتقدَّم الحضارات؟ وكيف ولماذا تنهار الحضارات؟

ولكنَّك ربَّما تتفاجأ عندما تجد أن (توينبى) لخَّص تجربته في سطرٍ واحدٍ ينقله العقَّاد رحمه الله بانبهار فقال: «**إن التَّاريخ هو طريق الإنسانيَّة إلى الله**»، إنه تلخيصٌ لأكثر من سبعة آلاف صفحة، وتجربة سنين من النَّظر والبحث.

وتمثِّل السُّنَن القوانين الثَّابتة التي من حاول تخطيها اصطدم بصخورها؛ ليتعلَّم كيف يمكنه التَّعامل مع الحياة، وَفْقَ النِّظام السُّنَني الذي وضعه لها الخالق المدبِّر ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٨-١٠٩].

استحضر مقولة (ول ديورانت) صاحب قصة الحضارة ضمن رؤاه السُّننيَّة: «**لا شيء يُعلِّم الإنسان أكثر من الصَّدمات، واهتزاز المشاعر**»(١).

استثمار السُّنَن مفتاح لامتلاك المجد القادم:

لقد أخذت نشوة الغرور (فرانسيس فوكوياما) صاحب كتاب (نهاية التَّارِيخ والإنسان الأخير)، وظنَّ أن حضارةً ما مانعتهم حصونهم من هذه السُّنَّة القَدَريَّة التي لا تُخلَف، فكتب كتابه ليناقض طبيعة الوجود المخلوق القائم على التَّداول، والذي يقتضي التَّدافع؛ فلا نهاية

(١) قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون دِيوي، حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم، ولْ ديُورانت، ترجمة: د. فتح الله محمد المشعشع (ص: ٢٠).

لهذا التَّغيُّر الزَّمانيِّ والتَّداول الحضاريِّ بين الأمم إلا بحلول الأجل المسمَّى عند الله ﷻ لزوال الدُّنيا ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وإن الحكماء ما يزالون يردِّدون قول التِّهاميِّ:

حُكــمُ المنيَّــةِ في البريَّــة جــارِ ... مــا هــذه الــدُّنيا بــدار قــرارِ
بينــا يُــرى الإنســانُ فيهــا مُخْبِــرًا ... حتــى يُــرى خــبرًا مــن الأخبــارِ
طُبِعَــتْ علــى كَــدَرٍ وأنــت تريــدُها ... صَــفْوًا مــن الأقــذاء والأكــدارِ[١]

هذا التَّداول الدَّهريُّ إنما تَـحِلُّ قوارعُه عند الغفلة عن العمل بالمضمون السُّنَنيِّ لحالات التَّمكين، من ذا الذي يقف أمام جبروت هذا التَّغيير؟

ليس إلا الجهلة أو الكسالى الخائفون أو المغرورون المتكبِّرون مثل صاحب (نهاية التَّاريخ) الذي أصرَّ على رُؤَاه المتكبِّرة، فأصدر بعد أكثر من عشرين سنة أطروحته: (النِّظام السِّياسيُّ والاضمحلال: من الثَّورة الصِّناعيَّة إلى عولمة الدِّيمقراطيَّة)؛ ليظهر بها زينة تستر عورات الدَّمار الذي جلبه الغرور على العالم بعد غزو من أشار إليه بـ(الإنسان الأخير) لمعاقل (الإنسان البدائي).

قامت هذه الأفكار الاستعلائيَّة على صناعة الاستضعاف في بقيَّة العالم وَفْقَ إرهاب القوى المختلفة: العسكريَّة، والسِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والإعلاميَّة وقد أصدر (أفرام نعوم تشومسكي) بالاشتراك مع (إدوارد هيرمان) كتابهما: (صناعة الإذعان: الاقتصاد السِّياسيُّ لوسائل الإعلام الجماهيريَّة)، كما أصدر (تشومسكي) كتابه: (قراصنة وأباطرة الإرهاب

---

(١) ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي (ص: ٣٠٨).

الدَّوليِّ)، لكن الذي حاولت كثيرٌ من الأطراف التَّعامي عنه البعد الدِّينيُّ الخرافيُّ الضَّخم الذي يقف وراء الخطوات السِّياسيَّة لأكبر القوى الفاعلة المعاصرة، إنها الخرافة المرعبة التي تلخِّصها فكرة معركة (هرمجدون)، ولقد راعت هذه الأساطير المجرمة عددًا من الباحثين الذين لا ينتمون للأديان، ومن أبرزهم: (جريس هالسيل) التي أبرزت ذلك في كتابها: (النُّبوءة والسِّياسة)، وكتابها (يد الله: لماذا تضحِّي الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل).

تلك إشارة لا تذكر عن محاولاتٍ لفهم حركة الكون في واقع أيامنا التي نعيشها.. وأنت ترى المجرمين يتقلَّبون في العالم، ويقومون برعاية حقوق الأمم لِتَحُلَّ في هذه الأرض ظُلَمٌ تتلوها ظُلَم، ويذكِّرك ذلك بما يحكونه عن قرصانٍ وحيدٍ وقع في أسر الإسكندر الكبير، فسأله: كيف يجرؤ على إزعاج البحر؟ فأجاب القرصان: «لأنني أفعل ذلك بسفينة صغيرة فحسب، أدعى لصًّا، وأنت، الذي يفعل ذلك بأسطول ضخم، تدعى إمبراطورًا»، والصُّورة العامَّة للإفساد في الأرض يوضِّحه قول القائل:

وَرَاعِي الشَّاةِ يَحْمِي الذِّئبَ عَنْهَا ... فَكَيفَ إذا الرُّعَاةُ لَهَا الذِّئابُ[1]

الفائدة التاسعة: فَهْمُ كيف يُصنعُ تفكير الأغلبيَّة في الواقع الإنسانيِّ، ودور الأقلِّيَّة القياديَّة في الارتقاء بالأكثريَّة، أو التَّحطيم وصناعة الأدواء المدمِّرة:

تؤسِّس المعرفة القُرآنِيَّة للعقليَّة البشريَّة كيف تدرك سُنَن الكون؟ وكيف تعرف قوانين التَّغيُّر في الأرض، وتؤسِّس ذلك بصورةٍ مدهشةٍ؟ ترى فيها سبقًا لكلِّ الدُّروس الصَّادقة التي يقدِّمها كبار رجال علم التَّاريخ الاجتماعيِّ والحضاريِّ، خذ مثال ذلك فيما قرَّره **(ول ديورانت)** وزوجته **(في دروس التَّاريخ)** أنَّ من السُّنَن الاجتماعيَّة أن **النِّصف الجنوبيَّ من**

(١) البيت غير منسوب. إحياء علوم الدين (١/ ٦١)، وأنصح بقراءة كتاب: (عندما ترعى الذئاب الغنم) لرفاعي سرور رحمه الله.

الكرة الأرضيَّة يبدع الحضارات، ولكن النِّصف الشَّمالي يغزوها، ويحطِّمها، ويستعير منها، وينشرها، وقرَّرا أن الأغلبيَّة تصفق للمنتصر(١).

قارن ذلك بالسَّبق القرآنيِّ الذي قام بتشكيل الوعي بما هو أدقُّ تفصيلًا، وأقوى بيانًا لفهم طريقة تفكير الأغلبيَّة، ممَّا ورد في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩]، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٥٠]، ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: ٧١].

مدهشٌ جدًا ما تراه من تفصيلٍ مثيرٍ حول مبدأ الأكثريَّة، والأسس التي نستطيع فَهْمَ دوره من خلالها.

إن كلَّ آية هنا تشيِّد لك مفهومًا محدَّدًا واضحًا يعلِّمك فَهْمَ تفكير الأغلبيَّة، وكيف يمكن بناؤه وصناعته، وهنا يأتي الدُّهاة من مجرمي الأرض ليستغلُّوا فَهْمَهم لكيفية صناعة تفكير الأغلبيَّة، فيستغلُّوه لصالح أهوائهم المريضة، بينما تنعزل القوى الصَّالحة في الأرض عن محاولة فَهْمِ ذلك، والنَّتيجة الفساد في الأرض.

(١) يراجع الكتاب الماتع لهما: (دروس التاريخ)، ترجمة وتقديم: علي شلش.

لكن دروس التاريخ والواقع المعاصر لأعتى قلاع الدِّيمقراطيَّة يخبرك اليقين بأن الأغلبيَّة –حال وجود انتخابات نزيهة في الأرض– تقودها أقلِّيَّة قياديَّة تجيد القيادة، وتستعدُّ لبذل ثمن مغامراتها في هذه القيادة، فإمَّا أن ترتقي بها إلى معالي الأمور ومكارم الأخلاق المدنيَّة، وإما أن تتسفَّلَ بها نحو العنصريَّة، ومظلمات الأخلاق المدنيَّة، وتحطِّم البقيَّة الباقية من واقعها القائم، وهذه الأقلِّيَّة إن كانت صالحة تحمل كفاءة قياديَّة لتكون مُصْلِحة ارتقت مكانًا عليًّا بمن خلفها، فانظر كيف يثبِّت الله ﷻ فكرك بهذه السُّنة في سورة هود عليه الصَّلاة والسَّلام، فيقول عن النَّاجين مع نوحٍ عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ٤٠﴾ [هود: ٤٠]، ثم يحكي لك في السُّورة ذاتها أنَّ القلَّة القياديَّة المؤمنة تعصم الحضارات، وتحفظ الأمم من مصارع الهلكة فيقول ﷻ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

«والمجتمع الذي يخلو من قلَّة تقوده، وفئة مختارة تَرُوْدُهُ، ونخبة سابقة ترتاد له مواطن الخير، تكون وارده إليها، وفرطًا له لديها، تدله عليها، وترشده إليها، وتحذِّره من مغبَّات الشرِّ والفساد، مجتمع على خطر عظيم؛ لأن القلَّة الرائدة في كل مجتمع بمثابة العقل الواعي، والذاكرة الواعية التي تحفظ الأمَّة، وتحفظ لها وتعي أسباب عزِّها ونصرها»[1].

الوعي الزَّائف بالسُّنَن سبب الانحطاط إلى الدَّركات المظلمة السَّحيقة:

ومن أكبر ما يدمِّر الوعي الحقيقي بالسُّنَن: غياب الوعي بالسنن، وأسوأ منه دخول الوعي الزَّائف بها، فتتكوَّن الحسابات الخاطئة؛ بناء على الفهم الخاطئ لروح اجتماع الجماعات،

(١) سُنَّة الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن الكريم، أ.د/ رمضان خميس(ص: ١٩٤).

ويؤدِّي ذلك إلى الهزيمة المدويَّة، وقد حكى العالم الفرنسيُّ (جوستاف لوبون) في كِتَابِهِ (رُوحِ الِاجْتِمَاعِ) كيف انهزم نابليون أمام الرُّوس والأسبان؛ لا لأنه لم يدرك هو ومستشاروه عقليَّة الجماعات التي ستقاومه في البلدين، بل أدرك ذلك إدراكًا خاطئًا، وقال منبهًا على خطورة الوعي الزَّائف بحقيقة واقع الخصم: «معرفة روح الجماعات أصبحت اليوم آخر ملجأ يأوي إليه السِّياسيُّ العظيم، لا لأجل أن يحكمها، فقد صار ذلك الآن صعبًا كثيرًا، بل ليخفِّف عنه شِدَّة تأثيرها»[1].

وهنا تشرق أمامك البصائر القُرآنيَّة واضحة لتربط ذكر التاريخ بمبدأ الحق، حيث تسمع الله ﷻ يقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، ويحكي في الْفَصْلِ الثَّانِي كيف يتمُّ بثُّ الوعي الزَّائف المدمِّر من خلال التَّلاعب بالقصص التَّاريخيَّة والحاضرة، فيقرِّر أولًا أنَّ من أهمِّ خصائص الجماعات المنظَّمة قابلية الجماعة للتَّأثر والتَّصديق، ثم يقول مبيِّنًا سريان الوعي الزَّائف في أوساطها: «الجماعة تتأثَّر بالسُّهولة من جميع المؤثِّرات، وذات إحساس قويٍّ، كإحساس الأشخاص الذين لا تمكِّنهم الاستعانة بالعقل، ومجرَّدة من ملكة النَّقد والتَّمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التَّصديق، سهلة الاعتقاد، فهي لا تعرف (الغير) المعقول، فليَذْكُر ذلك القرَّاء ليفقهوا السِّرَّ في سرعة انتشار الأقاصيص التي تخرج عن حدِّ المعقول، وسبب آخر لسرعة التَّصديق، وهو: التَّشويه الذي يعتور الحوادث في مخيِّلة المجتمعين؛ إذ تكون الواقعة بسيطة للغاية،

(١) انظر: روح الاجتماع (ص: ١٩).

فتنقلب صورتها في خيال الجماعة بلا إبطاء؛ لأنَّ الجماعة تفكِّر بواسطة التَّخيُّلات، وكلُّ تخيُّلٍ يجرُّ إلى تخيُّلات، ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقولة»(١).

وقد بالغ (ألبرت أشفيستر) في تقرير ظاهرة تتعزَّز بمرور الأيام في حياة البشر، حينما قال: «لكن من المحزن أنَّ الحريَّة والقدرة على التَّفكير كلتيهما تضاءل اليوم عند الناس.. وعقليَّة هذا الجمع من الناس، المتراخين روحيًّا، العاجزين عن حشد أنفسهم وخواطرهم لها أثرها في كلِّ تلك المنشآت التي كان ينبغي لها أن تخدم قضيَّة الثَّقافة، وبالتالي قضيَّة الحضارة»(٢).

الأنموذج اليمنيُّ المعاصر: مثالٌ أنموذجيٌّ من الأمثلة الكثيرة لعدم إدراك السُّنَن الإلهيَّة في بناء الحياة(٣)

وهذه كلماتٌ كتبتها والمدامع لا تفارق الجفون، وغواشي الخطوب المقلقة تدهم هذا العالم الحائر، فما ترى للمستضعفين فيه من وليٍّ ولا ناصر، وتقف أمامهم ومن خلفهم قوافل الحشَّاشين، ومرتزقة العالم يقتلون النِّساء والأطفال ثم يُظهِرون قلقهم سائرين في جنازاتهم، ويتحكَّمون في مصير كثيرٍ من قرارات الأمم، ويجعلون المؤسَّسات المؤثِّرة الظَّالم أهلها منابرَهم لتصنيف العالم وَفْقَ أهوائهم ونزواتهم المتكبِّرة، وقد توسَّلوا إلى ذلك بأن علوا في الأرض، وجعلوا أهلها شيعًا، فقربوا الرُّويبضات، وساموا كلَّ ذي حكمةٍ سوء العذاب، وأنطقوا ببغاواتٍ من البشر، ترى ذلك حاليًّا في سوريا، وليبيا، واليمن، وغيرها،

(١) روح الاجتماع (ص: ٤٤)، وانظر: تفسير المنار (٦/ ٤١).

(٢) فلسفة الحضارة، ألبرت أشفيستر، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، مراجعة د. زكي نجيب محمود (ص ٢٣).

(٣) لعل الله ييسر بارقة من دهر، وانبعاثًا من روحٍ مثقلة لكتابة مستقلة عن النموذج اليمني المعاصر الذي حطَّمت أركانه، وتناهبه إخوانه، ودمَّرته أنانية بعض أبنائه، والذي غشي أبصارهم من طموحات التفرد والسيادة، والرغبة في الزعامة والقيادة، ولو خدمًا لمن يقتلون أبناءهم، ويستبيحون ثرواتهم.

بل تراها في بعض دول المنطقة التي تشهد استقرارًا أمنيًّا وهميًّا، وسجونها تغصُّ بأنَّات المظلومين، وآهات المستضعفين.

تعدُّ اليمن أنموذجًا غير فريد في ظلِّ الظُّلم العالميِّ العتيد، وانظر كيف يصرُّ البائسون من أبنائها على قتال أهلهم وبني موطنهم مسايرة لمعسكر القرامطة والحشَّاشين الجُدُد، وسقط متاع الماسون، كأنَّهم لم يبصروا أنفسهم قد وقعوا في شباك العنكبوت، يتحكَّم بقرارهم فُسَّاق الأرض، يأكلون ثرواتهم، ويزعمون أنهم يعيدون لهم البسمة المفقودة! وأكثر قادة اليمنيين عن مهيع الحقِّ لاهون، يبحثون عن فُتَات الحلول بالانتقال من مدينة مستكبرٍ إلى مصيف مستعلٍ، يقلبون أفئدتهم وأبصارهم، فما زالوا منذ القديم يجرِّبون التَّدخُّل الخارجيَّ، فلم يزدهم إلا رهقًا، حالهم كما قال شاعر سبأ القديمة[1]:

تُقَتِّـــل أبنـــاها وتنـــفي سَـــراتها — وتبنـــي بأيـــديها لهـــا الـــذُّلَّ حِميـــرُ
تـــدمِّر دنياهـــا بِطَـــيشِ حُلومهـــا — ومـــا ضـــيَّعت مـــن دينهـــا فهـــو أكثـــرُ
كـــذاك قـــرونٌ قبـــلَ ذاك بظُلْـــمِها — وإســـرافِها تـــأتي الشُّـــرور فتخســـرُ

كأنهم لم يسمعوا كلام ربِّهم ﷻ أول مرة يُبَصِّرُهم بسُنَن الخروج من الاستضعاف.. وتسيل عبراتك الحرى وأنت ترى عامَّة اليمنيِّين يئنون، ويصرخون من الأمراض، والجوع، والحرب، والألم، مع أنَّ بلادهم من أغنى بلاد الدُّنيا! ينادي اليمنيُّون قياداتهم داخل اليمن وخارجه فما يجدون إلا أمواتًا غير أحياء، وما يشعرون أيان يبعثون.. كأنهم لم يبصروا أنوار السُّنَن الإلهيَّة التي تهدي كلَّ من سلكها سبل السَّلام، وتخرجهم من ظلمات الحلول الأمميَّة إلى صراط مستقيم.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ١١٨).

لقد أجاد المفسدون في الأرض صنع الأحداث التي يتمُّ فيها سفك الدِّماء.

اليمن أنموذجٌ مثاليٌّ لمدى الإجرام والتَّلاعب المحليِّ والإقليميِّ والدَّوليِّ، صنعوا فيها ما يسمونه: (الإرهاب)، ثم تدخلت القوى المختلفة لتحارب تلك الفزَّاعة المفتعلة التي سمَّتها الإرهاب، ولتستمتع بتدمير اليمن واليمنيين في وقتٍ واحد، وتظل الأطراف المتصارعة يقاتلون بعضهم بعضًا، ولا يبالي تجَّار السِّلاح بتقوية جميع الأطراف مجدَّدًا في سلسلة حلقاتٍ مفترسة شنيعة، لتكون النَّتيجة الوحيدة: قتل الأبرياء في كلِّ المناطق؛ وعندما يقترب انتصارٌ جزئيٌّ لطرفٍ منها يأتي المرتزقة الدَّوليون ليقدِّموا الحلول الدِّيبلوماسيَّة المختلفة.

يحلُّ الارتزاق العالميُّ ضيفًا ثقيلًا، ومراوغًا كذَّابًا على حساب المستضعفين، فتدمِّر الأطراف المختلفة ما علوا من أراضي الأبرياء وحياتهم، ويُتبِّرونها تتبيرًا، حتى يأتي الوقت المناسب ليدمِّروا (الإرهاب الأول)، ويُجَهِّزوا الإرهاب الاحتياطيَّ ليُصَدِّروه في الوقت المناسب ضمن سياسة (الفوضى الخلَّاقة)، التي أفصحت عنها دون قلقٍ أو خجل أستاذتهم التي علَّمتهم صنع الدَّمار في الأرض (كونداليزا رايس).. لم تقلق ليس لأن العرب لا يعقلون.. بل لأن الأدوات التَّنفيذيَّة لاستراتيجيتها كُثُر: فمنهم من يرأس الفعاليات السِّياسيَّة، ومنهم من يتزعم الفعاليات الإعلاميَّة، ومنهم من يُقَدِّمُ الخدمات الحربيَّة، ومنهم من يُبدِي أقوى الاستعداد للكذب والإجرام على حدِّ قول المعري مع تحويرٍ لكلامه[1]:

يَسوسونَ الأمورَ بغَيرِ عَقلٍ ... فينفُذُ أمرُهم، ويقالُ: ساسَهْ

---

(١) ونص شعر المعري في اللزوميات (٢/ ٣١):

يَسوسونَ الأمورَ بغَيرِ عَقلٍ ... فينفُذُ أمرُهم، ويقالُ: ساسَهْ

فأُفَّ من الحياةِ، وأُفَّ مني ... ومن زمَنٍ رئاستُهُ خَساسَهْ

فـــأُفَّ مـــن الحيـــاةِ، وأُفَّ مـــنهم ومـــن زمَـــنٍ رئاســـتُهُ خَساسَـــهْ

ولقد أجاد كبارهم الماكرون في المدن، فصنعوا الفوضى، والاحتراب، والمشكلات التي تدمِّر المجتمع المستقرَّ، ثم استغلُّوا نقاط الضَّعف في قيادات الأطراف المختلفة التي تُكوِّن المجتمع، فسعوا ليتحكَّموا بتلك الأطراف، ويُظهروا أنفسهم بمظهر الحكماء الذين يحرصون على السِّلم، والاستقرار العالميين!! وتراهم بعد أن يجتهدوا في إثارة الفوضى المدمِّرة، يهبون في هيئة الحملان الوديعة، ليوجهوا النِّداءات لكلِّ تلك الأطراف لتأتي إلى موائدهم المستديرة بحثًا عن الحلول في (جنيف١، ٢...) في سلسلة من الجنف والإثم والعدوان لا تتوقف، ولا تنتهي ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وهنا نذكر كيف اعتزَّ الثعلب العجوز (هنري كيسنجر) بقدرة (الولايات المتحدة الأمريكية) الفائقة في هزيمة (أعدائها؟)، وجلبهم بعد الهزيمة ليتحاكموا إلى مؤسَّساتٍ من صنعها، مشيرًا إلى عقليَّة قومه الفريدة ضمن حوارٍ دار بينه وبين رئيسه (هاري ترومان) سأله فيه: عن أهمِّ الإنجازات التي يفتخر بها[1]، والحالة اليمنيَّة المعاصرة حالة مشابهة لحالات عصرية في الخيبة وجريان سُنَّة نقصان الأرض من أطرافها.. تلك السُّنَّة الرَّهيبة التي سيأتي ذكرها ضمن النَّماذج المختارة لأهمِّ سُنَن التَّغيير والعاقبة في ثنايا هذا الكتاب.

(١) ذكر ذلك الحوار في مقدمة كتابه (النظام العالمي World Order) ص١، ونقل عن رئيس الولايات المتحدة Harry S. Truman قوله: "That we totally defeated our enemies and then brought them back to the community of nations. I would like to think that only America would have done this"
ذلك (الأمر الذي يشكل أكبر مصدر للفخر) أننا هزمنا أعداءنا تمامًا، ثم أعدناهم إلى المجتمع الدولي! إنني أحب التفكير أن ذلك لا يحدث إلا في أميركا فقط.

الفصل الخامس

معرفة العلوم المتعلِّقة برصد السُّنَن الإلهية

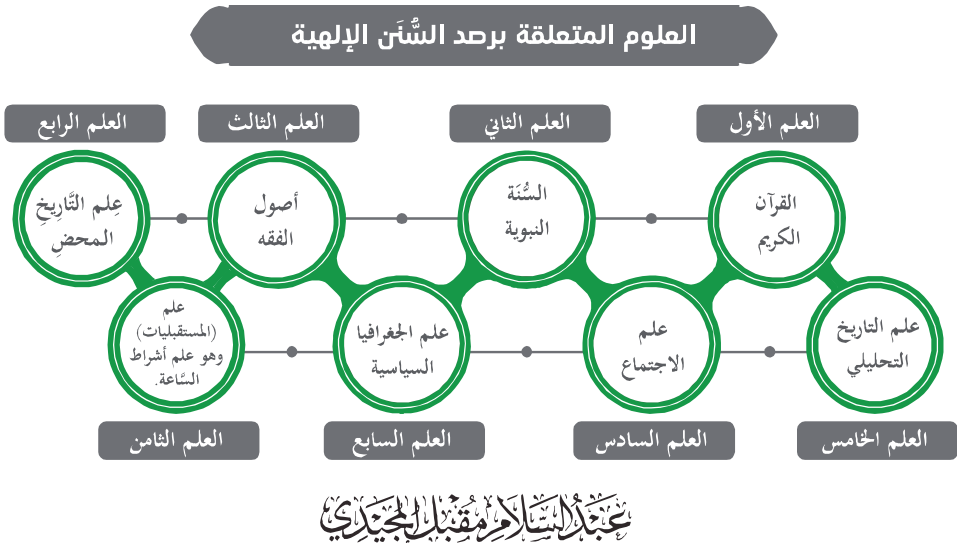

من أعظم ما يعين على معرفة السُّنَن إدراك عددٍ من العلوم المتعلِّقة برصد السُّنَن، والاستثمار المعرفيِّ لها، وعلى الرَّغم من تنوُّع السُّنَن إلى كونيَّة، واجتماعيَّة، لكنها تتضافر وتتآزر لتكوين أعظم الثَّروات العلميَّة في الاستفادة من تسخير الله ﷻ الأرض للإنسانيَّة.. إدراك السُّنَن يؤدِّي إلى حسن التَّعامل مع الأحداث المتجدِّدة، والتحدِّيات المتتابعة، ومن أهمِّ هذه العلوم:

العلم الأول: القرآن الكريم:

يعدُّ القرآن الكريم المصدر الأول والمجال الخصب لمعرفة السُّنَن، فـ«لم يُعْرَفْ كتابٌ قبل القرآن نطق بأنَّ للأمم في قوتها وضعفها وحياتها وموتها سننًا ثابتة لا تتبدل ولا تتحول»[(١)]، والقرآن فضلًا عن أنه أوَّل المصادر للكشف عن هذه السُّنَن، هو أيضًا المختبر الدقيق عن اطِّراد هذه السُّنَن وثباتها وفاعليتها في الحياة والأحياء، فهو دلالة على صدقها وتحقُّقِها في أرض الواقع[(٢)].

وقد سبق معنا ذكر المواضع التي تكرَّرت فيه لفظ (السُّنَّة) في القرآن الكريم، والكنز المعرفي التي تكتنزه، وسيأتي -أيضًا- في كتاب (عاقبة المنذَرين)، وهو الجزء الثاني من هذه السلسلة المباركة نماذج من السُّنَن التطبيقية لتداول الأيام.

العلم الثاني: السُّنَة النبوية:

وفيها يتمُّ معرفة التفصيل الدقيق للسُّنَن الإلهية؛ مما أُجمِل بيانه في القرآن الكريم، فجاءت السُّنَّة المطهَّرة شارحة مبينة، وكاشفة مفصِّلة.

«والناظر في سيرة الرسول ﷺ يجد كيف كان ﷺ يحسن التَّعامل مع سُنَن الله ﷻ في كونه وقوانينه في عباده، فما من معركة إلا والرسول يتعامل مع الأسباب؛ يجعل مقدِّمة ومؤخِّرة وميمنة وميسرة وقائدًا، ثم يُقْبِلُ على الله تعالى مُلِحًّا في دعائه، مبتهلًا في رجائه، فهذا نوع من إدراك سُنَن النَّصر التي تعتمد على أسباب مادية وأسباب معنوية»[(٣)].

---

(١) مجلة المنار (٩/ ٥٢).

(٢) ينظر: الشاكلة الثقافية، عمر عبيد حسنة (ص٨٤-٨٥).

(٣) مفهوم السنن الربانية: دراسة في ضوء القرآن الكريم، أ.د. رمضان خميس، (ص: ٣٠).

العلم الثالث: أصول الفقه:

ويتيح هذا العلم إمكانية ضبط التقعيد لهذه السُّنن، ودقَّة توصيفها، وتلاؤمها مع نصوص الكتاب والسُّنَّة، من غير تعارض أو تناقض.

العلم الرابع: عِلم التَّارِيخِ المحضِ:

«التاريخ علم رئيس في الكشف عن سُنَن الله تعالى في الحياة والأحياء، إنه السِّجِلُّ المستمرُّ لدورة الحياة، وحركة الأحياء، وتقلُّبات الزمن»(١)، وفيه يتمُّ البحث عن كلِّ المعلومات التي قيلت في نشأة الأمم، ونهضتها، وفنائها، وأول ذلك سير الأنبياء عليهم السلام والمصلحين الذين ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وإنما أدرجناه في سلك هذه العلوم باعتبار أن التَّاريخ البشريَّ لا يتحرَّك فوضى وعلى غير هدى، وانما تحكمه سُنَن وقوانين، وإنَّ الوقائع والحضارات البشريَّة لم تخلق صدفة، وإنَّما من خلال جملة من الشُّروط، والمقدِّمات المفضية إلى نتائج ومآلات(٢).

يقول محمد رشيد رضا رحمه الله: «فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هي فيه من سَعَة العمران وعِزَّة السلطان، وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سُنَن الله عز وجل في الأمم منه، وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلى ذلك»(٣).

---

(١) السنن الإلهية: حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، أ.د. ذو الكفل محمد يوسف، مجلة الإمام الشاطبي، العدد السابع (جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ)، (ص: ٩٣-٩٤).

(٢) انظر: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل (٥/ ١٦١).

(٣) تفسير المنار (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

العلم الخامس: علم التاريخ التحليلي:

وفيه يتمُّ تحليل المعلومات وتدقيقها؛ للوصول إلى المعلومات الصَّحيحة، ونبذ المعلومات الزَّائفة، وترى في القرآن الحثَّ العظيم في الإقبال عليه بصريح العبارة ودلالة الإشارة، كما في قوله -جلَّ مجده- عن تاريخ سليمان عليه السلام الذي تعرَّض لكثيرٍ من التزييف: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢].. وكيف لا يتوجَّع قلبك ويرتاع عقلك؛ إذ تجد التَّشويه لهذا النَّبيِّ الكريم وصل إلى ملحقات التَّوراة.

ولأهمِّيَّة الدِّراسة التَّاريخيَّة، لا تكاد تخلو سورة من سُوَر القرآن الكريم من الإشارة للدَّرس التَّاريخيِّ؛ «فالقرآن الكريم لا يقدِّم قصصه، وصوره، ومشاهداته لمجرَّد ترفٍ ذهنيٍّ، أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص، والصُّور، والمشاهدات، ولا لنزعة أكاديميَّة فيه تسعى إلى تتبُّع ما حدث فعلًا بأكبر قدرٍ من الأمانة، ودون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الحدث، وإشاراته الأخلاقية.. **إن القرآن يجيء بمعطياته التَّاريخيَّة تلك من أجل أن يحرِّك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام، ويبعده في الوقت ذاته فردًا وجماعة عن المزالق والمنعرجات، التي أودت بمصائر عشرات، بل مئات من الأمم، والجماعات، والشُّعوب**.. كما يجيء بها من أجل أن يبرز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والإسلاميَّة... كأنَّه يريد أن يقول للإنسان الواعي: إنَّ أمامك صيغتين للعمل في العالم، لا ثالثة لهما، وإن عليك أن تختار إمَّا هذه أو تلك»[1].

---

(١) انظر: التفسير الإسلامي للتاريخ (ص: ٨).

العلم السادس: علم الاجتماع:

وفيه يتمُّ رصد سُنَن الاجتماع العمرانيِّ؛ للنَّظر في العوامل الحقيقيَّة في البناء والزَّوال، والنَّجاح والفشل.

وهذه العلوم الثَّلاثة مترابطة كما ترى، فاسمع لما يتأوه له محمَّد رشيد رضا رحمه الله من الغفلة عن دروس التَّاريخ في حياة الأمَّة المسلمة مستلهمًا ما يقوله عن شيخه: «لَمَّا كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ جل جلاله أَنْزَلَ بِهَا أَلْوَانًا مِنَ الْبَلَاءِ وَالنِّقَمِ بِعُنْوَانِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّ التَّتَارَ إِنَّمَا نَكَّلُوا بِهَا وَتَبَّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا؛ لِأَنَّهَا الْأُمَّةُ الإسلاميَّة، ثُمَّ زَحَفَ عَلَيْهَا الْغَرْبِيُّونَ أَيَّامَ حُرُوبِ الصَّلِيبِ وَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ؛ لِأَنَّهَا الْأُمَّةُ الإسلاميَّة، ثُمَّ إِنَّ الْفِتَنَ لَا تَزَالُ تَحُلُّ بِدِيَارِهِمْ، وَتُنْقِصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، وَسَوْطَ عَذَابِ اللهِ عز وجل يُصَبُّ عَلَيْهَا بِعُنْوَانِ الْأُمَّةِ الإسلاميَّة، وَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْهَا قُرُونٌ **وَهِيَ لَا تَعْتَبِرُ بِمَا مَضَى، وَلَا تَتَرَبَّى بِمَا حَضَرَ، بَلْ جَهِلَتِ الْمَاضِيَ فَحَارَتْ فِي الْحَاضِرِ**، لَا تَعْرِفُ سَبَبَهُ وَلَا الْمَخْرَجَ مِنْهُ.

عُنِيَتْ أُمَّتُنَا بِالتَّارِيخِ عِنَايَةً لَمْ تَسْبِقْهَا بِهِ أُمَّةٌ، فَلَمْ تَكْتَفِ بِضَبْطِ الْوَقَائِعِ وَتُلْقِيهَا بِالرِّوَايَةِ كَالسُّنَّةِ النَّبويَّة، بَلْ تَفَنَّنَتْ فِيهَا فَصَنَّفَتْ فِي تَارِيخِ الْأَشْخَاصِ كَمَا صَنَّفَتْ فِي تَارِيخِ الْبِلَادِ وَالشُّعُوبِ، ثُمَّ نَوَّعَتْ تَارِيخَ الْأَشْخَاصِ فَجَعَلَتْ لِكُلِّ طَبَقَةٍ تَارِيخًا، فَنَرَى فِي الْمَكَاتِبِ طَبَقَاتِ الْمُفَسِّرِينَ، وَطَبَقَاتِ الْمُحَدِّثِينَ، وَطَبَقَاتِ النَّحْوِيِّينَ، وَطَبَقَاتِ الْأَطِبَّاءِ، وَطَبَقَاتِ الشُّعَرَاءِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ اهْتَدَى بَعْضُهُمْ إِلَى اسْتِنْبَاطِ قَوَاعِدِ الْعُمْرَانِ وَأُصُولِ الِاجْتِمَاعِ مِنَ التَّارِيخِ فَصَنَّفَ ابْنُ خَلْدُونَ رحمه الله فِي ذَلِكَ مُقَدِّمَةَ تَارِيخِهِ، وَلَوْ لَمْ تَنْقَطِعْ بِنَا سِلْسِلَةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَكُنَّا أَتْمَمْنَا

مَا بَدَأَ بِهِ سَلَفُنَا، وَلَكِنَّنَا تَرَكْنَاهُ وَسَبَقَنَا غَيْرُنَا إِلَى إِتْمَامِهِ وَاسْتِثْمَارِهِ؛ **فَالتَّارِيخُ هُوَ الْمُرْشِدُ الْأَكْبَرُ لِلْأُمَمِ الْعَزِيزَةِ**»[1].

العلم السابع: علم الجغرافيا السِّياسيَّة:

يتمُّ فيه المزاوجة بين البحث الجغرافيِّ والتَّاريخيِّ، واستثمار السَّعي في بناء صحيح الوعي، وبناء الخطوات الصَّحيحة للمثمر من السَّعي، ويتمُّ من خلاله رصد الأحداث التي تبيِّن السُّنَن المادِّيَّة والغيبيَّة للهزيمة والانتصار.

العلم الثامن: علم (المستقبليات) وهو علم أشراط السَّاعة:

إنه من الهدايا الإلهيَّة التي منحها الله ﷻ البشريَّة عن طريق نبيِّنا ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام، ويدخل هذا العلم في قوله جلَّ مجده: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وبشيء من التَّأمُّل الحصيف في آثار أشراط السَّاعة وعلاماتها الكبرى من كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ نقف على منارات هدى تستضيء بها الأمَّة في مدلهمَّات فتن الزَّمان الملتبسة المتقلِّبة، ومعالم رشد، وسننٍ كلِّيَّة عاصمة من الافتئات والافتتان، ولكأنَّك حينما تقلِّب ناظريك في المأثور من هذه الأخبار تلمس رحمة الله ﷻ، وشفقة نبيِّه ﷺ بهذه الأمَّة تشريعًا وترشيدًا للسَّير الحياتيِّ في آن، ومن أجل إلمامة خاطفة بشيء ممَّا نقصد إليه، إليك هذا الأنموذج من التَّقعيدات الرَّبَّانيَّة لدورات التَّحوُّل الذي تمرُّ به البشريَّة عامَّة وأمَّة الإسلام خاصَّة:

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٥٧).

-عن زينب بنت جحش ﵂ زوج النَّبيِّ ﷺ، قالت: خرج رسول الله ﷺ يومًا فزعًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ، يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ، وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»(١).

-عن أسامة بن زيد ﵄، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ، كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ»(٢).

-عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً فَلْيَعُذْ بِهِ»(٣).

- قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ ﵁، عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﵁: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو ﵁: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ(٤).

---

(١) مسلم (٢٨٨٠).

(٢) مسلم (٢٨٨٥).

(٣) مسلم (٢٨٨٦).

(٤) مسلم (٢٨٩٨).

إن تناول هذه الآثار وغيرها من مأثورات علم أشراط السَّاعة تغنينا عن نظريات النِّهاية (الهيجيليَّة، والفوكياميَّة، وغيرها) التي يراهن عليها الغرب، في حين أن أصدق ما توصف به أنها تخمينات، وتكهُّنات لا أكثر.. فأين هذا العلم من مراكز القرار السِّياسيَّة الإسلاميَّة؟

وكما ترى فإنَّ العلوم السَّابقة تفتقر إلى الدِّراية العميقة بالكتاب والسُّنَّة والسِّيرة.

أهمِّيَّة النَّفَس الجماعيِّ في دراسة السُّنَن:

هذا الكمُّ المختلف من العلوم، يجعل دراسة علم السُّنَن يكون أعظم إثمارًا إذا كان أقرب إلى الجماعيَّة منه إلى الفرديَّة؛ وذلك يقتضي إنشاء مراكز بحثيَّة، واستشاريَّة، تجمع بين النَّتائج المختلفة المنبثقة من هذه العلوم؛ ليتمَّ استخدامها في بناء الإنسان والأمم بما يحقِّق الغاية من إعمار الأرض وَفْقَ نظام العبادة الموحِّدة لله ﷻ.

وسائل معرفة السُّنَن الإلهية

1. **الوسيلة الأولى**: البحث المباشر عن موارد السُّنَن في القرآن الكريم.
2. **الوسيلة الثانية**: استخراج السُّنَن الرَّبَّانيَّة من البصائر القُرآنيَّة.
3. **الوسيلة الثالثة**: استخراج السُّنَن الرَّبَّانيَّة من السُّنَّة النَّبويَّة.
4. **الوسيلة الرابعة**: السَّير في الأرض وسيلة الاستكشافات المذهلة.
5. **الوسيلة الخامسة**: أيَّام الله عز وجل في التاريخ.
6. **الوسيلة السادسة**: اتباع المنهج التَّجريبيّ لمعرفة السُّنَن التَّفصيليَّة التي تسخِّر الكون.

عبد السلام مقبل المجيدي

الفصل السادس

وسائل معرفة السُّنَن الإلهيَّة

قد تقرَّر معنا –آنفًا– أنَّ أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحقِّ للباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنِّزال والملك والسِّيادة وغير ذلك، قد جرى على طرق قويمة، وقواعد ثابتة اقتضاها النِّظام العامُّ، وليس الأمر أنفًا كما يتراءى للبعض، وإذا كان الأمر كما وصف حتى لنجزم بتسمية هذا بعلم مستقلٍّ بذاته يطلق عليه (علم السُّنَن)، لما كان الأمر كذلك توجَّبت معرفة وسائل معرفة السُّنَن الإلهيَّة، كما يتوجَّب من باب أولى ربط عمل الدُّعاة بالجهد والعمل وَفْقَ السُّنَن التي لا تحابي فردًا على حساب فرد آخر، أو مجتمعًا على حساب مجتمع آخر، فالنَّتائج التي قد يتطلَّع إليها على وجه الأرض أكثر المؤمنين إيمانًا وأشدُّهم ورعًا وتقوى سوف يجنيها أكثر الكافرين كفرًا وأشدُّهم فسقًا وفجورًا، إذا وافق المقدِّمات الصَّحيحة المؤدِّية إليها، وربط الأسباب بمسبباتها، بينما ينتظرها المؤمن ارتكازًا على إيمانه وحده، واعتمادًا على ورعه وتقواه، دون أن يطلبها من مقدِّماتها التي خلقها الله ﷻ طريقًا إليها، فأنَّى يستجاب له[(١)]!

فإليك سلك الوسائل الموصلة لمعرفة السُّنَن الإلهيَّة في الخلق والتَّدبير:

الوسيلة الأولى: البحث المباشر عن موارد السُّنَن في القرآن الكريم:

لعلَّك تتعجَّب من إفراد هذه الوسيلة بالذِّكر مع أنها داخلة فيما قبلها! لا تعجب وأمهلني! فقد خِفتُ المواليَ الذين والوني في قراءة هذا الكتاب من أن يطول عليهم أمد الكلام عن

(١) ينظر: أهل السنة والجماعة، معالم الانطلاقة الكبرى، محمد عبد الهادي المصري، (ص: ٢٥٢).

الوسيلة الأولى، فجعلت هذه الجزئية مستقلَّة لأهمِّيَّتها؛ إذ يمكنك أن تجد ما يشير إلى السُّنَّة بسهولة في البصائر القُرآنِيَّة من خلال التَّدبُّر، وكثيرًا ما تظهر لك بوضوحٍ في الـموارد الآتية:

المورد الأول: القصص القرآنيُّ: فقد أخبرنا الله بالسنن العامة والتفصيلية التي تمر بها الحضارات في القصص القرآني كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥]، وقوله: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٠١﴾ [الأعراف: ١٠١].

الـمورد الثاني: الـمثل القرآنيُّ: كما في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ [إبراهيم: ٢٥].

الـمورد الثالث: الآيات التي ورد فيها الأمر بالسَّير في الأرض للنَّظر والاعتبار، والتَّفكُّر.

الـمورد الرابع: ورود لفظ: (دأب)، فإن معناها الجدُّ، والاجتهاد، كما قال تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا ۝٤٧﴾ [يوسف: ٤٧]، ثم صارت تطلق على العادة، ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [آل عمران: ١١].

الـمورد الخامس: آيات الاستبصار، مثل: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

الـمورد السادس: ورود لفظة: (كذلك) ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

المورد السابع: صورة الشَّرط والجزاء، مثل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وهذه الصُّورة

أعمُّ من أن تَلزم القوانين النَّحويَّة، بل المراد ورود الشَّرط والجزاء، ولو لم توجد الضَّوابط النَّحوية، ويدخل فيها الجزاء على الأعمال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

فمن النُّصوص التي لا تنطبق عليها الشُّروط النَّحويَّة لكنك تجد فيها معنى الشرط والجزاء، ما جاء عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ الأَنْصَارِيِّ ﷺ قالا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنِ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنِ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»(١).

الوسيلة الثانية: استخراج السُّنَن الرَّبَّانيَّة من البصائر القُرآنيَّة:

بصائر القرآن المجيد في سُنَن تداول الأيام تمثِّل الصُّورةَ المقابلة في مقابل الصُّورة المتوحِّشة للقوَّة المغرورة وأمواجها العاتية في زماننا، تشاهد في القرآن المجيد النورَ مشرقًا في وصف حالات الانتقال والتَّداول والتَّغيُّر، حيث تجيء الآيات المباركات لتبيِّن للنَّاس ما نزِّل إليهم في التَّعامل مع هذه السُّنَّة الكلِّيَّة (تداول الأيام).

أفنضرب عن البصائر القُرآنيَّة الذكر صفحًا أن كان كثيرٌ من النُّخَب الحاكمة والمثقَّفة المسيطرة في تعامٍ عنها في الوقت الذي تسيطر الخرافات الدِّينيَّة العقديَّة والسِّياسيَّة على عقل من يصنعون المآسي العالميَّة؟

تندهش وأنت ترى البصائر القُرآنِيَّة تَمُدُّك بمعرفة لا تنضب في كلمات جوامع عن التَّقلُّبات الحضاريَّة، ففي العهد المدني، وبعد معركة الخندق تنزل سورة النُّور لتتضمَّن هذا البيان

---

(١) أبو داود (٤٨٨٤)، وقال الأرناؤوط: «إسناده ضعيف؛ لجهالة يحيى بن سُليم»، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، برقم (٦٨٧١).

الموجز عن الحركة الكونيَّة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور: ٥٥].

الوسيلة الثالثة: استخراج السُّنَن الرَّبَّانيَّة من السُّنَّة النَّبويَّة:

ففي سننِ تداول الأيام مثلًا نجد النَّبيَّ ﷺ يُوسِّعُ مداركنا حول دائرة السُّقوط الحضاريِّ؛ فيصف للأمَّة ارتفاعها وبناءها للمجد العالميِّ، ثم يحذِّرها من دركات السُّقوط الحضاريِّ، فيقول: «بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ، وَالدِّينِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ»(١).

ويحذِّر النَّبيُّ ﷺ من الوقوع في براثن السُّنَن المدمِّرة التي اجتاحت بني إسرائيل، بل يحدِّد لها السُّنَن المهلكة التي ستقع فيها من التَّقليد الزَّائف غير المدروس للحضارات الأخرى، وهذا التَّحديد يعدُّ استشرافًا مستقبليًّا، ويمثِّل آية بيِّنة على صدق نبوَّته ﷺ، فيقول: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»، فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ»(٢).

(١) أحمد (٢١٢٥٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٨٢٥).

(٢) البخاري (٧٣١٩).

خلق الله ﷻ الكون منضبطًا بقوانين صارمة لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ويمضي على سُنَنٍ في واقعه الماديِّ والاجتماعيِّ لا تزيغ ولا تحيد، وقد أكرمك الله –يا ابن آدم– بالبرهان القرآنيِّ والاستدلال العقليِّ لتكتشف هذه القوانين، وتستثمرها، عندها تستطيع أن ترث المعرفة الحقيقية التي تبني المجد الفرديَّ، وتقيم حضارة العدل في العالم، وتؤسِّس الواقع الزَّاهر الورديَّ.

أدرك أصحاب النَّبيِّ ﷺ ذلك فاستمدُّوا من القرآن المجيد معرفة تلك القوانين الحاكمة لواقع الحياة، وتمكَّنوا من إدراك قوانين تداول الأيَّام، ونهوض الحضارات، فصاروا نورًا للعالمين، حسبك أن تعرف مقدار الشُّعور الذي يجتاح النَّفسيَّة المخبتة للصَّحابة ﷺ، وهم يسمعون الله ﷻ يحفِّزهم للنُّهوض والعمل انطلاقًا من الإمكانات المتاحة، فيقول لهم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة: ٤٨].. هناك ترى الأمجاد صفوًا ولا هوى، وتدرك لماذا أحدث (القرآن) الكريم هذا الأثر العظيم في نفوس قومٍ كانوا من قبل في ضلالٍ مبين؟ كيف بنى القرآن المجد المجيد للحضارة الإنسانيَّة يوم كان هداه يحكمها، وأبعد عنها تجبُّرَ قومٍ عمين؟ هناك تبصر الأمر المذهل الذي وجده المستمعون في القرآن حين تُليت عليهم آيات الكتاب، فحوَّلت حياتهم من الضَّلالة إلى الهدى، ومن الشَّقاوة والرَّدى إلى الرَّاحة والتُّقى.

بهذا يتَّضح سرُّ نهضة المسلمين التي حصلت لهم زعامة العلم والحكمة في العالم في سنين معدودة، فإنهم لو كانوا بدؤوا حياتهم العلميَّة على النَّحو الذي تبدؤها به كلُّ أمَّة ما استطاعوا أن يبزوا الأمم التي تقدَّمتهم في هذا السَّبيل بقرون كثيرة، ولكنهم لبدئهم إيَّاها مستنيرين بهذه

الأصول القُرآنِيَّة العالية والسُّنَن الرَّبَّانيَّة الرَّاشدة بلغوا منها أَوْجًا في مدى قصير لم تبلغه أمَّة في آماد طويلة[1].

كيف ملأ القرآن عقولهم ومشاعرهم وضمائرهم، وسيطر على تكوين أهدافهم، وبناء خططهم للحياة؟

كيف أعاد انبعاثهم وحولهم مجموعة من الذئاب التي تحيا بشريعة الغاب، لينشروا في العالمين العدالة والرَّحمة، دون ترددٍ أو ارتياب، ولتتحقق على أيديهم أحلام المستضعفين؟

نزل القرآن ليمثِّل الزَّلزلة النَّفسيَّة التي تبعث الموتى، وتوقظ الغافلين.

لم ينزل الْقُرْآنُ ليكون «تَارِيخًا وَلَا قَصَصًا، وَإِنَّمَا هُوَ هِدَايَةٌ وَمَوْعِظَةٌ، فَلَا يَذْكُرُ قِصَّةً لِبَيَانِ تَارِيخِ حُدُوثِهَا، وَلَا لِأَجْلِ التَّفَكُّهِ بِهَا أَوِ الْإِحَاطَةِ بِتَفْصِيلِهَا، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ مَا يَذْكُرُهُ لِأَجْلِ الْعِبْرَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، وَبَيَانِ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ، كَمَا قَالَ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وَقَالَ: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾ [غافر: ٨٥]»[2].

ما الذي تظنُّني أحاول تقريره؟ بل ما الذي أحاول تذكُّرَه والتَّذكير به؟ إنه تعميق الشُّعور بالاستمساك بالبيان الإلهي الأخير للبشريَّة، وحتى نستعيد الصَّبر على ما لم نحط به خبرًا من أنوار القرآن المجيد فإليك بعض الحقائق المتعلِّقة بالبصائر القُرآنِيَّة لفَهْم السُّنَن الإلهيَّة:

(١) مناهل العرفان، الزرقاني، (٢/ ٣٨٩).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٣٧٣).

الحقائق المتعلقة بالبصائر القرآنية اللازمة لفهم السنن الإلهية

الحقيقة الأولى

القرآن المجيد مصدر فهم السنن والنظم التي يقوم عليها الكون، وتتحكم بالحياة.

الحقيقة الثانية

أهم لوازم (البصيرة) وجود الحجة الواضحة عند اتخاذ القرارات، أو بناء المواقف في الحياة الإنسانية.

الحقيقة الثالثة

البصيرة شرطٌ في الدعوة إلى نُظُم القرآن الكريم المنيرة.

الحقيقة الرابعة

تتفاوت البصيرة بين أصحابها، فلا يفلحون في القضايا العالمية إلا بالجهد الجماعي.

الحقيقة الخامسة

يلزم العلمَ بالبصائر إيمانٌ حيٌّ بالبصائر يحرّك الضَّمائرَ، ويثمر الصَّلاحَ في الباطن والظاهر.

الحقيقة السادسة

تنزيل الأحكام على الآيات، وطلب البصيرة فيها.

عبد السلام مقبل المجيدي

الحقائق المتعلقة بالبصائر القُرآنِيَّة اللازمة لفَهْم السُّنَن الإلهيَّة:

الحقيقة الأولى: القرآن المجيد مصدر فَهْم السُّنَن والنُّظُم التي يقوم عليها الكون، وتتحكَّم بالحياة، و(البصيرة) تتكوَّن نتيجةً للمعرفة الشَّرعيَّة الرَّاسخة المميِّزة بين الغيِّ والرَّشاد، والباطل والحقِّ النَّافع للعباد:

فالقرآن هو الذي تضمَّن البصائر المجيدة التي تعلِّمنا السُّنَن الكلِّيَّة والجزئيَّة التي تضبط سير الكون، وتسيِّر الحياة وَفْقَها، فما معنى (السُّنَن) هنا؟

إنها القوانين الكلِّيَّة، والتَّفصيليَّة، التي تدار من خلالها الأجسام المادِّيَّة، ويتمُّ من خلالها تحريك الأحداث والوقائع الحياتيَّة، بخلاف النَّظرات الجامدة التي يصفونها بالدوغمائيَّة (أي: التَّعصُّب لفكرة ما)، وفيها يكتفي أصحابها بأن يردِّدوا:: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، لكن نظراتهم تلك لا تبرح حتى تصطدم بسُنَن الحقِّ التي تعيد بناء الحياة وَفْقَ سيرورة سُنَنيَّة ربَّانيَّة متناغمة لا وَفْقَ المسلكيَّة (الآبائيَّة) التي أبطلت سورة الزخرف زيف دعاوى مُتَبَنِّيها المغرَّر بهم، فقال الله ﷻ لهم: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤]، وهنا يبلغ الذي يمشي بالنُّور القرآنيِّ في الناس مجمع بحري التَّغيير الإيجابيِّ والتَّأثير الفعليِّ.

ومن خلال فَهْمِ هذه السُّنَن ندرك كيفية بناء مستقبلنا، ونحدِّد ماهيَّة المخاطر، وكيفية مواجهة الاعتداء، ونعلم معايير التَّفوق في تحدِّيات السِّلم والحرب والرَّخاء واللأواء.

إذا لم تدرك الأمّة بصائر القرآن سارت على عمى، فسقطت في الحُفَر أو وقعت في المنحدر ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٖ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

فمن أبصر الحياة من خلال هذه البصائر، باء بالنَّفع الحقيقيِّ لنفسه ولبني قومه، وكانت بصائر القرآن مصدر سعادته وراحته وطمأنينته وأنسه.

وما أبعد ما تبنَّاه البعض من قصر معنى السُّنَّة في لغة القرآن على معنى الحكم بمعهوده الفقهيِّ، ويبني على ذلك استبعاده أن تتضمَّن النُّصوص القُرآنِيَّة سُنَنًا تتعلَّق بالمجتمع، والأنفس.. حتى صرَّح بقوله: «والذي يبحث في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة وأقوال الصَّحابة لا تظهر له جميع هذه المجالات»(١)، لقد أبعد قائل هذا النُّجعة -حقًّا- وبخلاف ذلك لو قلنا بأن القرآن الكريم قد عني بتقرير هذه السُّنَن، وقصد إلى ذلك أكثر من قصده لتناول النَّواميس والسُّنَن المادِّيَّة الكونيَّة لم نبعد عن جادَّة الصَّواب.

واتباع الأنوار القُرآنِيَّة معيارٌ للفلاح في التَّحدِّيات المختلفة ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ ولذا تسمع الله -تعالى ذكره- يُذَكِّر البشريَّة بقيمة القرآن العالميَّة، فيقول: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدٗى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧﴾ [البقرة: ٩٧]، **وابتسِمْ ابتسامة المعجب كيف جمعت هذه الآية ستَّ خصائص مميَّزة للقرآن المجيد، وَهِيَ:**

(١) من مقال بعنوان: (أخطار النزعة المادِّيَّة في العالم الإسلامي، نقد كتابات جودت سعيد)، عادل التل، مجلة البيان (٦٤/ ٢٢).

١)أَنَّ الله ﷻ نزَّل جبريل عليه السلام به فهذه واحدة.

٢)وأن هذا التَّنزيل كان على مركز الوعي والحفظ مباشرة، وهو القلب، فهذه الثانية.

٣)وأن تنزيل القرآن وتنزيل جبريل عليه السلام بإذن الله ﷻ، وذلك يعني عناية خاصة، فهذه الثالثة.

٤)وأن القرآن المجيد من المشكاة الإلهيَّة الواحدة التي نزلت بها الكتب السَّابقة، فهو مصدِّق لها، فهذه الرابعة.

٥)وَأَنَّهُ ليس هَاديًا فقط بل هو الهدى ذاته، ولعدم تقييد هذه الصِّفة بأحد فيحتمل أنَّ المراد أنه هدى للعالم، كما ظهر ذلك في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فهذه الخامسة.

٦)وأنه ليس بشيرًا فقط، بل هو البُشْرَى ذاتها، ولكنه بشرى لِلمؤْمِنِينَ، فهذه السادسة. فاجتمعت هذه الخصائص السِّتُّ في آية واحدة قصيرة لتعكس الثَّنَاء عَلَى الْقُرْآنِ المجيد بِكَرَمِ الْأَصْلِ، وكرم الواسطة، وَكَرَمِ المقرِّ، وَكَرَمِ الْفِئَةِ، وَمُفِيضِ الْخَيْرِ عَلَى العالم، وَوَاعِدٌ لَهُمْ بِعَاقِبَةِ الْخَيْرِ[1]، وما حال الذين ينتسبون إلى أمَّة القرآن، ثم لا يستفيدون من بصائره، ولا يعملون بمقتضى قوانينه وسُنَنه إلا كما قيل:

أَيُّها المدَّعي سُليمًا سَفاهًا ... لستَ منها ولا قلامةَ ظُفرِ

إنَّما أنت في سُليم كواوٍ ... ألحقتْ في الهجاء ظلمًا بعمرو[2]

وهذا يقتضي أن نعمل الفكر في دراسة الظَّاهرة القُرآنيَّة التي لا ينضب معينها.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٢٣).

(٢) الأبيات لأبي نواس. ينظر: ديوان أبي نواس (ص: ٥٤٥)، وفيه أنه بلفظ: (قل لمن يدعي سليمى سفاها)

فكيف يكون مبصرًا أو مفكِّرًا أو قياديًّا مُنَظِّرًا مَنْ عَشِيَتْ عينُه عن النُّصوص القرآنيَّة والنَّبويَّة، أو لـم يستطع عقلُه استيعابها، أو عَمِي فؤاده عن مراجعتها، أو عَمِهَ قلبه عن فهمها؟

فالنُّصوص الشَّرعيَّة تمثِّل أهمَّ أركان البصيرة الواردة في قَوْله تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يُوسُف: ١٠٨].. فاملأ أحاسيسك هاهنا بحنان النَّبيِّ ﷺ الذي لـم يتركنا هملًا، فأيقظ إدراكنا لخطورة هذه الحقيقة، فقال: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ الْعِلـم انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلـم بِقَبْضِ الْعُلـماءِ، حَتَّى إِذَا لـم يُبْقِ عَالـمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلـم فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»(١).

انظر في نصوص القرآن.. قلِّب صفحاتِها لتراها تتضمَّن البصائر الـمجيدة التي تحقِّق الاطمئنان النَّفسيَّ، والانتصارات في الـمجالات الشَّخصيَّة، وتحقِّق الفوز في التَّحدِّيات الحياتيَّة الأُسَريَّة، والـمجتمعيَّة.

الحقيقة الثانية: أهم لوازم (البصيرة) وجود الحجَّة الواضحة عند اتخاذ القرارات الشَّخصيَّة، أو بناء الـمواقف في الحياة الإنسانيَّة:

والحجَّة الواضحة هي التي توجد ثقةً لدى صاحب البصيرة، **ويكتسبها عبر معرفة حقائق الأحداث الواقعة، وليس الاكتفاء بقشرة بريقها ومظهرها:**

فـلا يَـغْـرُرْكَ مـا يَـطْـفُـو ... فـإنَّ السِّـرَ في الـعُـمـقِ

(١) البخاري (١٠٠).

فالبصيرة -كما يقرِّر الخليل رحمه الله-: «نَفاذٌ في القلب»[١]، ونورٌ مضيء فيه، يُمَكِّنه من إدراكِ حقائق الواقع، ورؤيتِها كما هي، واتخاذ القرارات بناء على ذلك، وبهذه البَصيرة يتمكَّن المرء من الاستفادة من المعطيات الماضية لتقرير الأعمال الحاليَّة.

فارجع الطَّرف كرَّتين في تحذير سيِّد الثَّقلين ﷺ من التَّافهين، الذين يتصدَّرون للكلام في القضايا المصيريَّة الخطيرة، دون الرُّجوع إلى بصائر الكتاب، ويجمعون إلى ذلك جهلًا بما قاله النَّبيُّ ﷺ من الكلام والخطاب، ويحذِّر النَّبيُّ ﷺ من ذلك، فيقول: «**سيأتي على الناس سنواتٌ خدَّاعات، يُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويُكَذَّبُ فيها الصَّادق، ويُؤتمنُ فيها الخائن، ويُخَوَّنُ فيها الأمين، وينطق فيها الرُّوَيبضة**»، قيل: وما الرُّوَيبضة؟ قال: «الرَّجُل التَّافه يتكلَّم في أمر العامَّة»[٢].

وهذا ما يبنيه القرآن في نفوس المجتهدين لهداية العالمين، فاسمع قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ لتعلم أن المراد: «أَدْعُو إِلَى اللهِ بِبَصِيرَةٍ مُتَمَكِّنًا مِنْهَا.. وَالْبَصِيرُ: صَاحِبُ الْحُجَّةِ؛ لِأَنَّهُ بِهَا صَارَ بَصِيرًا بِالْحَقِيقَةِ... وَبِعَكْسِهِ يُوصَفُ الْخَفَاءُ بِالْعَمَى، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٢٨]»[٣].

البصيرُ يمتلك حجَّةً واضحةً من الأدلَّة القاطعة، والبراهين السَّاطعة، لا من الأقوال المائعة؛ **وذلك لتكون القرارات صادرةً من أهلها في محلِّها**؛ والبصيرة بذا تكاد تصل إلى الشُّعور بتجسُّد المعنى، فهي -كما يقول البقاعيُّ رحمه الله- «المعرفة التي يتميَّز بها الحق من

---

(١) العين (٧/ ١٧٧).

(٢) ابن ماجه (٤٠٣٦)، وحسَّنه الأرناؤوط، والألباني، ورواه الحاكم (٨٤٣٩)، وصحَّحه.

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٦٥).

الباطل دينًا، ودنيا، بحيث يكون كأنه يبصر المعنى بالعين»[1].. أخبرني -أعزَّك الله- ماذا يقتضي هذا؟

ألست تراه يقتضي العمل على تنمية البصائر، بكثرة مراجعة مصدر الإبصار (القرآن والسُّنَّة) تلاوة، وتعلُّمًا، وتزكية، مع التَّدريب العمليِّ على فقه الواقع وَفْقَ فقه النَّصِّ؟ بل يقتضي كذلك العمل على الاستكثار من المستبصرين الدَّارسين والمراجعين لمصدر الإبصار (النَّصِّ الشَّرعيِّ)، وتطبيقاته في الواقع (الفقه الواقعيِّ).

وتزداد الحاجة لأصحاب البصيرة الصَّادقة النَّافذة في أزمنة الفتن؛ إذ هم أبرز الموفَّقين لاتخاذ القرارات الصَّائبة، والنَّجاة بالسَّفينة في موجٍ كالجبال من الأحداث العاتية، فَهُمْ مصابيح الهدى الذين ننجو ببصائرهم.

وأشار إلى ذلك ابن زيدون في قوله:

لَوْ أَنَّني لَكَ في الأهواءِ مختارُ ... لما جَرَتْ بالذي تَشْكُوهُ أقدارُ

لكِنَّها فِتَنٌ، في مِثْلِ غَيْهَبِهَا ... تَعْمَى البَصائِرُ، إنْ لم تَعمَ أبصَارُ[2]

الحقيقة الثالثة: البصيرة شرطٌ في الدَّعوة إلى نُظم القرآن الكريم المنيرة:

فهي شرطٌ في بناء الحقائق الإيمانيَّة في النَّفس، والأسرة، وشرطٌ في بناء الحقائق الإيمانيَّة في المجتمع، والحياة كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، «وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ إِلَى الله تَعَالَى إِنَّمَا يَحْسُنُ وَيَجُوزُ مَعَ هَذَا الشَّرْطِ، وَهُوَ أَنْ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٠/ ٢٤٢).

(٢) ديوان ابن زيدون (ص: ٢٥٦).

يَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِمَّا يَقُولُ، وَعَلَى هُدًى وَيَقِينٍ، فَإِنْ لم يَكُنْ كَذَلِكَ، فَهُوَ مَحْضُ الْغُرُورِ»(١)، فالبصيرة اسمٌ «لما اعتُقِدَ في القلب من الدِّين، وتَحْقيقِ الأمر»(٢)، وهذا يؤدِّي إلى التَّنوير العقليِّ، والتَّضلُّع من المسائل الشَّرعيَّة المناسبة للمعالجة الواقعيَّة على حقيقتها، وليس التَّخليط والأوهام، مما تجره أفكار ذوي الأسقام، وبهذه البصائر يتحقَّق الانتصار في المواقف الحياتيَّة فينطلق صاحبها، وكأنه المعني بقول ابن زمرك(٣):

يا ابنَ الذين جمالُهم ونوالُهم	شمسُ الضُّحى والعارضُ المتهَلِّلُ
آباؤك الأنصارُ تلك شِعارُهم	فَلِحَيِّهِمْ آوى النَّبيُّ المُرسَلُ
فَهُمُ الأُلى نَصَروا الهُدَى بعزائمٍ	مصقولةٍ وبصائرٍ لا تُخْذَلُ

ولعلَّ هذا ما جعل الحبر ابن عبَّاس رضي الله عنهما يستحقُّ شهادة أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه حينما وصفه بقوله: «لله دَرُّ ابن عبَّاس، إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق»(٤)، ولكأنَّا بالحبر البحر لم يصل لرتبة كهذه إلا بعد تشبُّع تامٍّ عميق من بصائر القرآن الكريم وهداياته، كيف لا وهو السَّيِّد المقدَّم في هذا البحر الخضمِّ؟

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٥٢٠).

(٢) العين (٧/ ١١٧)، ونقله في لسان العرب (٤/ ٦٥).

(٣) ديوان ابن زمرك (ص: ٤٦٥).

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ١٦٣).

الحقيقة الرابعة: تتفاوت البصيرة بين أصحابها، فلا يفلحون في القضايا العالـميَّة إلا بالجهد الجماعيِّ.. والجهد الجماعيُّ هو الذي يقيم الأعمال الـمؤسَّسيَّة التَّكامليَّة القائمة على التَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبر:

كما تُقَرِّر ذلك سورة العصر عن الهيئة الـمنجية من الخسر..

هل ما سبق يقتضي عصمة أصحاب البصائر؟ كلَّا، بل يقتضي أن يجتمع الـمبصرون على كلـمة سواء للتَّسديد، والتَّأييد الـمشترَك، فالبصيرة كالبصر في التَّفاوت، فكما أنَّ الرُّؤية تتفاوت، فكذلك البصيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، فقد يكون أحدهم أقوى إبصارًا، بينما يكون غيره أعظم بصيرةً، وذلك يرجع إلى ما فتح الله ﷻ لكلِّ عبدٍ من عباده على أنَّ كلَّ مُمَكَّنٍ يحتاج إلى قوَّة رديفة معينة، أولا ترى أن الذي آتاه من أسباب القوَّة والعلم من كلِّ شيء سببًا يقول شاكرًا طالبًا المدد: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]؟

يرجع تكثيف أنوار البصيرة إلى كثرة مصاحبة ما تُستمدُّ منه، وهو القرآن الكريم، وإلى النَّظر في تطبيقاته الواقعيَّة الحاضرة، مع ما يفتح الرَّحمن ﷻ للإنسان من الفهم والرأي والإدراك.

وتأمل ذلك في قول السَّامريِّ الذي أحال ما فتح له من بصر أو بصيرة إلى صناعة الدَّمار: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٦]، «فَالـمعْنَى: عَلـمتُ مَا لـم يَعْلـموهُ، وَفَطِنْتُ لـما لـم يَفْطَنُوا لَهُ»[١]، فبَصُرَ بِالشَّيْءِ يعني صَارَ بَصِيرًا بِهِ، أَوْ بَصِيرًا بِسَبَبِهِ، أَيْ: شَدِيدَ الْإِبْصَارِ، فَهُوَ

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٥).

أَقْوَى مِنْ أَبْصَرْتُ، لِأَنَّهُ صِيغَ مِنْ فَعُل - بِضَمِّ الْعَيْنِ - الَّذِي تُشْتَقُّ مِنْهُ الصِّفَاتُ المشَبَّهَةُ الدَّالَّةُ عَلَى كَوْنِ الْوَصْفِ سَجِيَّةً ومَلَكَة راسخة.

وهذا السُّقوط المدوِّي للسَّامريِّ يقابله ارتفاع أخت موسى عليه السلام التي وصف الله عز وجل بصرها وبصيرتها وقدرتها على إنجاز المهمة التي أوكلتها لها أمها، فقال: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]، و(بَصُرَ) هنا تدلُّ على المعرفة المؤكِّدة لأخت موسى عليه السلام لما حدث في قصر فرعون، وقد تعمى البصائر فلا تنفع عندها الأبصار.

وفي إطار التَّكامل المدهش، والاحتياج له حتى من أحد عظماء البشريَّة الذي قال عن نفسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، وعلى الرَّغم من ذلك رأيته احتاج إلى مخلوقٍ سامٍ هو الهدهد الذي فُتِحَ له ما لم يُفتح لغيره، وتسبَّب في هداية أمَّةٍ كاملة.

يغشى الفتى حُبَّ الحياةِ وزينةَ الـ ... ـدُّنيا وينسى ما إليهِ يُصارُ

وإذا البصائرُ عن طرائقِ رُشدِها ... عَميتْ فماذا تنفعُ الأبصارُ[1]

ومقتضى هذه الحقيقة الاستراتيجيَّة في حياة الأمَّة: أنه لا بدَّ من اجتماع أصحاب البصائر القرآنيَّة النافذة؛ ليقيموا الأعمال المؤسَّسيَّة المشتركة القائمة على الأركان الأربعة المنجية من الخسارة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

(١) ديوان ابن عُنين (ص: ٦٤).

وسورة العصر هنا تبيِّن لنا السَّبيل لتحقيق الإنجازات العالـميَّة الحقيقية الناجية من الخسارة والإخفاق، حيث ذكر الله ﷻ فيها الـمؤمنين، وبيَّنَ حماستهم لدينهم، وإعدادهم لآخرتهم بالـمبادرة إلى الأعمال الصَّالحة الإيجابيَّة الشَّاملة للأفعال الفرديَّة والجماعيَّة، ولكنه قيَّد هذه الأعمال بضرورة التَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبر للنَّجاة من الخسر، و(التَّواصي) تفاعلٌ لا يمكن أن يتحقَّق إلا بأن يأرز الـمرء إلى جماعة الـمسلمين، ويعتصم بنعيم التَّواصي ليحدث التَّكامل، ويتحقَّق التَّكافل.

ولكأنَّ إقبال رحمه الله يعاتب الرُّواد المؤمل عليهم تحقيق النَّجاح، ويؤزُّهم أزًّا للتَّكامل لا التَّآكل، وللتَّعاضد لا التَّحاسد بقوله:

ألـم يُـبْـعَـثْ لأمَّـتِـكُـمْ نَـبِـيٌّ ... يُـوَحِّـدُكُـمْ عـلـى نَـهْـجِ الـوِئـامِ
ومُصْـحَـفُكُـمْ وقِبْلَـتُكُـمْ جـمـيـعًـا ... مـنـارٌ لـلأخـوَّةِ والسَّـلامِ
وفـوق الـكـلِّ رحـمـنٌ رحـيـمٌ ... إلـهٌ واحـدٌ ربُّ الأنـامِ
فـمـا لـمـنـارِ أُلْـفَـتِـكُـمْ تـولَّـى ... وأَمْسَـيْـتُـم حـيـارى في الـظَّـلامِ
وحُسْـنُ الـلُّـؤلـؤِ الـمـكـنـونِ رهـنٌ ... بصـوغ العَقْـدِ في حُسْـنِ النِّظـامِ[(١)]

(١) ديوان محمد إقبال، (ص: ١٠٤).

الحقيقة الخامسة: يلزم العلمَ بالبصائر إيمانٌ حيٌّ بالبصائر يحرِّك الضَّمائرَ، ويثمر الصَّلاحَ في الباطن والظاهر:

فقد يرى الـمرء الشَّيءَ على حقيقته، ولكنه يُصِرُّ على مخالفة ما تقتضيه البصيرة؛ لتملُّك شهوته له، أو لانحلال عزيمته، وضعف إرادته، أو لاتِّباعه غَيَّهُ، ونَبْذِه رُشدَهُ.. واضرب لهم مثلًا بأقوامٍ وصفهم الله ﷻ بالبصيرة، فما أغنت عنهم؛ إذ نبذوها وراءهم ظهريًّا، فانظر أمثلتهم في الأمم: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾ [العنكبوت: ٣٨].. نعم كانوا مستبصرين.. كانوا عارفين بواقعهم، يدركون حقائقَ ما حولهم.. كانوا -كما يقول الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «عقلاء متمكِّنين من النَّظر والافتكار، ولكنهم لـم يفعلوا، أو كانوا متبينين أنَّ العذاب نازلٌ بهم؛ لأنَّ الله تعالى قد بيَّنَ لهم على ألسنة الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولكنهم لجوا حتى هلكوا»[(١)]، يا لَضعف الإرادة، وتملُّك شهوة البغي عند النَّاس، يا وحلَ الكبر الذي يكسو العباد.. نعم يكسوها، ولكن بالأدناس.. هؤلاء كانت «لهم عقولٌ، وكانت أمامهم دلائل الهدى، ولكنَّ الشَّيطان استهواهم، وزين لهم أعمالهم، وأتاهم من هذه الثَّغرة الـمكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوَّةٍ ومالٍ ومتاع، ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيلِ الهدى الواحد الـمؤدِّي إلى الإيمان، وضَيَّع عليهم الفرصة، ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾».

ونلفت هنا إلى أنه كما يتوجَّب صقل حديدة العقل المستبصر، يتوجَّب كذلك إشعال حرارة القلب وعاطفته الدَّافعة المحفِّزة، فلا غنى لأحدهما عن الآخر، وكم تصاب الجموع

---

(١) الكشاف (٣/ ٤٥٨).

بالجمود وبلادة العقل الجمعيّ، والتَّردُّد حيث يطلب الإقدم حينما يحضر التَّفكير المحضُّ بيبوسته مجرَّدًا عن حرارة اليقين والصِّلة بربِّ العالمين، فالفكر وحده لا يجدي، بل لا بدَّ من حرارة الإيمان وناره المتوقِّدة.

لا يـجـيـد الـفـكـرُ في قـيـثـارِه   دون نـار الـحـقِّ في أوتـارِه(١)

الحقيقة السادسة: تنزيل الأحكام على الآيات، وطلب البصيرة فيها:

وهنا لا بدَّ من ذكر مسألة أشار إليها المنقِّبون في النُّصوص الشَّرعيَّة، ولخَّصها ابن تيمية رحمه الله في المسودَّة، وهي تتعلَّق بالأحداث الحياتيَّة، فالأحداث تراها تترى على الأفراد والأمم في مختلف المجالات سواء أكانت في المجالات المعاشيَّة أم السِّياسيَّة أم الاقتصاديَّة أم الاجتماعيَّة أم الفكريَّة، وعند محاولة الحصول على حُكمٍ فيها: هل يَجُوزُ الْحُكْمُ بما أدَّى إليه النَّظر من الأقيسة قَبْلَ الطَّلَبِ التَّامِّ لِلنُّصُوصِ؟

يذكر ابن تيمية رحمه الله لهَذِهِ المسْأَلَة ثَلَاث صُوَرٍ:

الصُّورة الْأُولَى: الْحُكْمُ بِهِ قَبْلَ طَلَبِهِ مِنَ النُّصُوصِ المعْرُوفَةِ، أي: قبل تقليب النَّظر في هذه النُّصوص، ومحاولة معرفة ما ترشد إليه في الواقعة المعينة.. فهَذَا الحكم المجازِف لَا يَجُوزُ بِلَا تَرَدُّدٍ.

الصُّورة الثَّانِيَةُ: الْحُكْمُ بِهِ قَبْلَ الطَّلَبِ مِنْ نُصُوصٍ لَا يَعْرِفُهَا مَعَ رَجَاءِ الْوُجُودِ لَوْ طَلَبَهَا، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْحَنَفِيَّةِ تَقْتَضِي جَوَازَهُ، وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَفُقَهَاءِ الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ؛ وَلِهَذَا جَعَلُوا الْقِيَاسَ بِمَنْزِلَةِ التَّيَمُّمِ، وَهُمْ لَا يُجِيزُونَ التَّيَمُّمَ إِلَّا إِذَا غَلَبَ عَلَى الظَّنِّ عَدَمُ الماءِ، فَكَذَا النَّصُّ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الإِمَامِ أَحْمَدَ: مَا تَصْنَعُ بِالْقِيَاسِ، وَفِي الْحَدِيثِ مَا يُغْنِيك عَنْهُ؟!

---

(١) ديوان محمد إقبال، (ص: ١٩٦).

وَهَذِهِ الـمسْأَلَةُ أُمٌّ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَبَيْنَ أَهْلِ الرَّأْيِ، لَكِنْ يَتَفَاوَتُ أَهْلُ الْحَدِيثِ فِي طَلَبِ النُّصُوصِ، وَطَلَبِ الْحُكْمِ مِنْهَا.. وحتى يطمئن الـمرء إلى أنَّ الله ﷻ سيؤيِّده في التَّعامل مع الأحداث الواقعة لا بدَّ من أن يبذل جهدًا عظيمًا في تطلُّب مراده، والبحث عن حُكمه في تلك الأحداث.

وفي القضايا الـمعاصرة الـمتشابكة لا بدَّ من إقامة الهيئات الـمرجعيَّة الدِّينيَّة التي تمارس الاجتهاد الابتدائيَّ وفرض المسائل قبل وقوعها، والدِّراسات الاستشرافيَّة، وكذلك تتولَّى النَّظر فيما وقع من الأحداث، وتمارس الرَّقابة على الواقع، ولا بدَّ أن يكون الاجتهاد فيها جماعيًّا، ولكن من أهل العلم الـماكنين الذين يحفُّهم المستشارون من الخبراء.

الصُّورة الثَّالِثَةُ: إِذَا أَيِسَ مِنَ الظَّفَرِ بِنَصٍّ بِحَيْثُ يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ عَدَمُهُ، فَهُنَاكَ يَجُوزُ بِلَا تَرَدُّدٍ؛ إذ لا يكلف الله ﷻ نفسًا إلا وسعها[١].

(١) ينظر: الـمسودة في أصول الفقه لآل تيمية (ص٣٧٠).

الوسيلة الرابعة: السَّيرفي الأرض:

إنها وسيلة الاستكشافات الـمذهلة للسُّنَن الكونيَّة والاجتماعيَّة.. وقد تكرَّر الأمر بالسَّير في الأرض في القرآن المجيد في نحو أربعة عشر موضعًا في القرآن الكريم، وجعلها الله ﷻ واحدة من أهمِّ سبل الـمعرفة، ومنها:

في سورة آل عمران الـمدنيَّة يخاطب الله ﷻ العالَم: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وفي سورة الأنعام الـمكِّيَّة يقول الله ﷻ طالبًا من الرسول ﷺ أن يخاطب الكافرين: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام: ١١].

وفي سورة يوسف الـمكِّيَّة يذكر الله ﷻ الجميع: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩].

وفي سورة النحل الـمكِّيَّة يحذِّر الله ﷻ الجميع: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل: ٣٦].

وفي سورة الحج يبيِّنُ الله ﷻ أنَّ السَّير في الأرض أداة لفتح القلوب؛ لتعقل الحوادث الجزئيَّة والكلِّيَّة حواليها: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ﴾ [الحج: ٤٦]، وهذه الآية تدهشك باجتماع الإنكار الإبطاليِّ والتَّوبيخيِّ معًا باعتبارين:

فالإبطاليُّ يفيد أنَّ ما بعد الهمزة غير واقع، وأنَّ مُدَّعيَه كاذب، فَهُمْ لـم يسيروا السَّير الـمستكشف الـمعتبر، ولـم توجد لهم قلوب تعقل الحقائق.

والتوبيخي يقتضي أنَّ ما بعدها واقع، وأن فاعله ملوم، فَهُمْ ساروا، لكنه سيرٌ زادهم عمى بدلًا من أن يفتح بصائر قلوبهم.

فحلِّق في أفياء عَظَمَة هذا القانون المثير الذي ضيَّعه كثيرٌ من المسلمين في أواخر أمرهم: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

التَّأمل في قانون السَّير في الأرض، الذي أمرنا به يهدي إلى قاعدةٍ معرفيَّةٍ واضحةٍ، وبصيرة قرآنيَّة بنائيَّة في حياة الأمَّة هي: ضرورة إنشاء مراكز الدِّراسات التي ترصد السُّنن في الكون بصفة عامَّة، ومنها: سُنَن النَّصر والهزيمة للبناء والحماية.

فالسَّير الـمأمور به في هذه الآيات له جانبان:

- **جانبٌ عقليٌّ** بدراسة التاريخ، وعلم الاجتماع، فهو سيرٌ معنويٌّ تاريخيٌّ، عبر دراسة تاريخ الأمم السَّابقة، ولذا قال السَّخاويُّ رحمه الله (ت٩٠٢هـ): «الاشتغال بفنِّ التَّاريخ للعلماء من أجلِّ القربات، بل من العلوم الواجبات الـمتنوعة للأحكام الخمسة بين أولي الإصابات»(١).

- **جانبٌ مادي بالسَّير الحقيقيِّ، والنَّظر، والاعتبار** وتحقيق الحوادث، واستكشاف القوانين الكونيَّة التي تحكم الـمخلوقات الحيَّة والـمواد، والقوانين الاجتماعيَّة التي تحكم الأفراد والحضارات.

وبالعمل على التَّراكم الـمناسب من الأفكار تنمو البصائر وتزكو، فتنشأ الدِّراسات الأوَّليَّة والختاميَّة التي تُبنى عليها الخطوات التَّنفيذيَّة.

(١) الإعلان بالتوبيخ لـمن ذمَّ التواريخ (ص: ٢).

والقصص التَّاريخيُّ وسيلةٌ خادمةٌ للوصول إلى هدف معرفة السُّنَن، فالـمرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تَعَرُّفُ أخبارهم ودقائق أَحْوَالِهِمْ التي ينبني عليها أثر حياتيٌّ.

فبالسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حلَّ بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السُّنَن والاعتبار بها كما ينبغي.. والنَّظر في التَّاريخ يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السُّنَن ويفيده عظة واعتبارًا، ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه، ويرى الآثار بعينه، ولذلك أمر بالسَّير والنَّظر(١)، فضلًا عن أنَّ التَّعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع ممَّا ينسى أو يقلُّ الاعتبار به؛ ولذا نبَّههم على هذا التَّطبيق في أنفسهم وأرشدهم إلى تطبيقه على أحوال الأمم الأخرى فقال: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وهنا يأتي السُّؤال: لـماذا لـم يقل: تعرَّفوا قصصهم، وادرسوا أخبارهم؟ لـماذا أمر بالسَّير؟

الجواب: إنه الـمنهج القرآنيُّ الواضح الـمبين في استخلاص الـمعرفة الحقيقية من خلال التَّجربة، والاستكشاف؛ لذا أمر الله ﷻ بالسَّير في الأرض للتحقُّق من صحَّة الأخبار الواردة عنهم، فما أكثر التَّزييف التَّاريخيَّ! ولا يمكن تمحيص الكمِّ العلميِّ الـمتعلِّق به إلا بوسائل متعدِّدة، ومنها: البحث الـميدانيُّ الذي يتمُّ بالسَّير في الأرض، حيث تشاهد الآثار، وينقب عن الـمخطوطات، وتوجد بقايا الحضارات، وهذا السَّير يجمع إلى التَّحقُّق العلميِّ معنى الأثر العاطفيِّ الأقوى؛ ولذا قيل:

هــذه آثَــارُنَــا تَــدُلُّ عَــلَــيْــنَــا ... فَــانْــظُــرُوا بَــعْــدَنَــا إِلَــى الْآثَــارِ
كُــلُّ شَـــيءٍ بِــقَــضَـــاءٍ وقَــدَرْ ... والــلَّــيَــالــي عِــبَــرٌ أيُّ عِــبَــرْ

(١) تفسير المنار، رشيد رضا، (٤/ ١١٦).

أمَّتي تاريخُها ذو خَطَرْ لو تأمَّلناه ما كان الخَطَرْ[1]

الأرض مرآة صافية تعكس الأحداث التي جرت عليها، حيث يُكتب عليها ما قدَّموا وآثارهم، والحياة كتابٌ مفتوح، تنظر فيه الأبصار لتكون أداةً لتشكيل حقائق السُّنَن للبصائر، فيتمَّ بثُّها في عقول الأجيال التي تصنع المستقبل، وتساعد صنَّاع القرار على اتخاذ القرارات الصَّعبة في القضايا المصيريَّة.

فذكر الله ﷻ هنا أحد أهمِّ وأقوى وسائل المعرفة الصَّحيحة، وهذا لا ينفي ما عداها من وسائل التَّحقُّق العلميِّ.

وقد تسأل: من المكذِّبون المذكورون في قوله: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]؟

الجواب: كلمة ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تعني هنا صنفين من النَّاس:

الأول: الكفَّار والمنافقون المكذِّبون لآيات الله سبحانه، وفيهم قال ربُّنا جلَّ ذكره: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] في قراءة نافع ومن معه[2].

الثاني: من انتسب إلى أمَّة الإسلام ولكنه يُكَذِّب -إما نظريًّا، وإما عمليًّا- بسُنَن الله ﷻ في النَّصر والهزيمة، فربَّما كان شديد التَّدين في العبادات الشَّعائريَّة: يقرأ القرآن، ويصلي في الصَّفِّ الأوَّل، ولكنَّه يكذِّب تكذيبًا عمليًّا في العبادات العمليَّة، فلا يطبق آيات التَّعامل الإسلاميِّ الخُلُقيِّ، وربما كان يشهد الشَّهادتين، ويحرص على أحسن الخُلُق مع الناس،

(١) للشاعر الفلسطيني أحمد فرح عقيلان (ت ١٩٩٧م)، وهو أديب وشاعر، وله بعض دواوين الشعر. ينظر: مجلة البحوث الإسلامية (ص: ٤٣٥).

(٢) قرأ الكوفيون بفتح الياء وتخفيف الذال، وقرأ الباقون بالضم والتشديد. النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٠٧).

لكنه يتهاون بالصَّلوات، ويُضَيِّعُ الواجبات العينيَّة.. ألا تسمع الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤]، ثم تلتفت لترى كثيرًا من المسلمين ينقض العهد؟ ويظنُّ بعضنا أنَّه بالأماني، أو بمجرد الانتساب إلى أمَّة الإسلام، سينال الفلاح، أو يجد التَّفوُّق الحياتيَّ أو النَّجاح.. هيهات! ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١- ١١٢].

والتَّكذيب العمليُّ هنا فضلًا عن كونه معصية كبيرة، فهو أحد سُنَن الهزيمة؛ ولذلك قسَّم أهل العلم النِّفاق إلى نفاقٍ اعتقاديٍّ وعمليٍّ، والنَّبيُّ ﷺ يوضِّح بعض الخصال الاجتماعيَّة للنِّفاق العمليِّ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[1].

ويكون معنى الآية: قد مضت وسلفت فيمن كان قبلكم من الأمم يا أهل الإيمان سُنَنٌ هي عادات الله ﷻ في الخلق، ونُظُمُه في البشريَّة، سِيرَ بها فيهم، وفيمن صدَّقوا بها أو كذَّبوا، فلمَّا بلغ الكتاب فيهم أجله لإدالة غيرهم عليهم، أحللت بالظَّالمين عقوبتي، وأنزلتُ بالغافلين عن تطبيق ما أمرتهم نِقَمي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالًا وعِبَرًا، وصاروا بعد عزِّهم خبرًا وأثرًا: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٠-٢٠٧].

---

(١) البخاري (٣٤).

الْتَفِتْ إلى السَّاحات العمرانيَّة والقصور الفارهة؛ لترى هذا النِّظام قد شمِل المسلمين والمجرمين، ولا يجرمنَّك شنآن الكفر أن ترى سُنَن إدالة الأيام قد عَمَّتِ المسلمين؛ إذ لم يقيموا هيمنتهم على سُنَن الثَّبات والفلاح، فالأيام يتمُّ تداولها بين النَّاس حسب من عمل بسُنَنِها ونُظُمِها.

وقد قال أبو البقاء الرُّنْدِيُّ رحمه الله في سبب نكبة أهل الأندلس:

يا من لِذِلَّةِ قومٍ بعدَ عزِّهمُ ... أحال حالَهمُ جَورٌ وطُغيانُ

بالأمسِ كانوا ملوكًا في منازلهم ... واليومَ هم في بلاد الكفرِ عُبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهمْ ... عَلَيهمُ من ثيابِ الذُّلِّ ألوانُ

ولو رأيتَ بُكَاهُم عندَ بيعهمُ ... لَهَالكَ الأمرُ واستهوتْكَ أحزانُ

يا رُبَّ أمٍّ وطفلٍ حِيلَ بينهما ... كما تَفَرَّقُ أرواحٌ وأبدانُ[1]

ومن أهمِّ الدروس القلبية، والعقليَّة التي نكسبها عند معرفة عاقبة المكذبين:

الدَّرس الأوَّل: ما جرى للمكذِّبين بالأمس، سيجري مثله للمكذِّبين اليوم وغدًا.

الدَّرس الثاني: يجب أن تطمئن قلوب المسلمين إلى ملك الله ﷻ، وحكمه على العباد.

الدَّرس الثالث: فليحذر الذين يخالفون عن أمر الله ﷻ من المسلمين في المقام الأوَّل من الانزلاق إلى ساحة التَّكذيب العمليِّ؛ إذ عندها ستصيبهم سُنَن الأيَّام؛ فإما فتنةٌ، وإما عذابٌ أليم.

الدَّرس الرابع: لا بدَّ من الجمع بين الإيمان القدريِّ والحركة السَّببيَّة البشريَّة.

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٤/ ٤٨٨).

مدى التَّطبيق الإسلامي لهذه المنهجية القُرآنِيَّة بالسَّير في الأرض:

وهنا ربَّما نشأ سؤالٌ عن مدى تطبيق روَّاد المسلمين الأوائل لهذه الآيات، بل ربَّما أنكرتَ أن يكون المسلمون اعتمدوا منهجيَّة محدَّدة للسَّير في الأرض منذ نزلت هذه الآيات، وللجواب عن ذلك نلاحظ أمرين:

الأول: السَّير العامُّ في الأرض للنَّظر في كيفية عاقبة المكذِّبين تمَّ بدليل هذا الاتساع المدهش للدَّولة الإسلاميَّة خلال فترة وجيزة من الرِّسالة الإسلاميَّة، فلا تسأل: لماذا لم يطبِّق أجدادنا ذلك؟

أتراهم لم يفعلوا حقًّا؟ فمن أين اتسعت البلاد المسلمة حتى شملت كلَّ هذه الأراضي الممتدة؟ لقد صارت الدُّنيا حولهم إمَّا مصالحة عند موافقة أصحابها على إقامة علاقات مسالمة طبيعيَّة تقوم على حسن الجوار، وإتاحة حريَّة الاختيار للدِّين، وإمَّا مفتوحةً إذا أصرَّ أصحابها على الاعتداء وعدم إلقاء السَّلَم وكفِّ الأيدي.

وإنما خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصَّلاة وبنوا علاقاتهم الدَّوليَّة على اتِّباع الشَّهوات، وأوقفوا الإبداع العلميَّ والاستشكافيَّ إلا في حيِّزٍ ضيِّقٍ يمنُّون به، ونكصوا على أعقابهم، وصاروا مضحكة في العالمين.

هاهو يحيى بن سعيد رحمه الله يذكر أنَّ أبا الدَّرداء رضي الله عنه، كتب إلى سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه، أن هلمَّ إلى الأرض المقدَّسة، فكتب إليه سلمان رضي الله عنه: إنَّ الأرض لا تقدِّس أحدًا، وإنما يقدِّس الإنسانَ عملُه، وقد بلغني أنك جُعِلت طبيبًا تداوي، فإن كنت تبرئ، فنعمَّا لك، وإن كنت

متطبِّبًا، فاحذر أن تقتل إنسانًا، فتدخل النار. فكان أبو الدرداء ﷺ إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنه، نظر إليهما، وقال: ارجعا إليَّ أعيدا عليَّ قصَّتكما، متطبِّب والله[١].

لقد أوفى أسلافنا بما عليهم فتحًا للمدائن، وانطلاقةً حضاريَّةً سُنَنِيَّةً بنَّاءةً تسرُّ النَّاظرين، وتقرُّ عيون الموحدين.

قد كان هذا الكونُ قبلَ وُجودِنا ... رَوضًا وأزهارًا بغير شَميمِ

والوَردُ في الأكمامِ مجهولُ الشَّذَى ... لا يُرتَجى وردٌ بغير نَسيمِ

بل كانتِ الأيامُ قبلَ وُجودِنا ... ليلًا لظالمِها وللمَظلومِ

لمَّا أطلَّ مُحَمَّدٌ زَكَتِ الرُّبى ... واخْضَرَّ في البُستَانِ كلُّ هَشِيمِ

وأذاعتِ الفِرْدوسُ مَكْنُونَ الشَّذَى ... فإذا الوَرَى في نَضْرةٍ ونَعِيمِ[٢]

فيا أطلال العزِّ التَّليد، والعهد المجيد: أين توهُّج العقل المسلم، وقدراته الهائلة التي ربَّاه عليها الإسلام؟! أين العقل القائس القادر على إدراك علل الأشياء، المتبصِّر بأحوال الأمم والجماعات، القادر على فَهْمِ السُّنَن الاجتماعيَّة والأسباب، المتتبِّع للمسار الحضاريِّ في نشوء وسقوط الحضارات؟[٣].

الثاني: نشأت المنهجيَّة العلميَّة في الإسلام على الجمع بين المعرفة التَّاريخيَّة والعلوم التَّجريبيَّة، فكان المسلمون يتقدَّمون في البلدان، ويستكشفون ما سُبِقوا إليه في ميادين

---

(١) الموطأ -رواية يحيى الليثي- (٢ / ٧٦٩)، وقال الزرقاني: «وَهَذَا مُنْقَطِعٌ، لَكِنْ أَخْرَجَهُ الدِّينَوَرِيُّ فِي الْمُجَالَسَةِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ هُبَيْرَةَ». شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ١٣٠)، وذكر محقق كتاب المجالسة (أبو عبيدة مشهور بن حسن) بأن إسناده ضعيف. المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٦٩) رقم (١٢٣٨).

(٢) ديوان محمد إقبال، (ص: ٩٣).

(٣)من مقدمة أ. عمر عبيد حسنة لكتاب (حول إعادة تشكيل العقل المسلم)، لعماد الدين خليل، (ص: ٦).

الحضارة، ممَّا تجد ذكره مبهرًا مثلًا في كتاب: (عبقرية الحضارة الإسلاميَّة) لأحمد محمد عوف، أو (الحضارة الإسلاميَّة) لحسين مؤنس.. لكنَّ منهجيَّة التَّحقُّق والتَّدقيق تقلُّ وتكثر حسب العقليَّة العلميَّة لدى كلِّ عالـم على حدة، ولـم تأخذ منحى مطَّردًا، فيعدُّ هذا تقصيرًا ملحوظًا في تطبيق مقتضيات هذه الآيات، خاصةً عند ملاحظة الجمع الـمعلوماتي الهائل في الـمجال التَّاريخيِّ دون تمحيص للأخبار، وإن وُجدت الأسانيد. بالإضافة إلى عدم التَّطبيق الواضح للـمفهوم السُّنَنيِّ الذي أكَّدته الـمعرفة القُرآنِيَّة.

الآن عد إلى الآية الأولى التي فيها الأمر بالسَّير في الأرض.. إنها قول ربِّك ﷻ: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٧].

لعلك تلحظ أن آيات الأمر بالسَّير في الأرض تنبِّه إلى ضرورة النَّظر في كيفيَّة عاقبة الـمكذِّبين.. وربما حاك في صدرك سؤالٌ: فلِـمَ لا تأمر بالنَّظر في عاقبة الصَّالحين؟

والجواب: لأنَّ الـمطلوب الأساسيَّ من السَّير في الأرض البحث عن عوامل الهلاك والدَّمار الذَّاتيِّ والحضاريِّ للـمكذِّبين، وعن أسباب الفشل الأمنيِّ، والعسكريِّ، والاقتصاديِّ؛ ليتمَّ اتِّقاؤها، وعندما يتمُّ تأمين الواقع من الهلاك والدَّمار والانحراف يسهل الانتقال من مرحلة التَّأمين إلى مرحلة البناء، وناسب ذلك الكلام في سورة آل عمران عن منهجيَّة معالجة الأخطاء التي وقع فيها الـمسلـمون في معركة أحد، كما ناسب بقيَّة السُّوَر الأخرى التي ورد فيها الأمر بذلك، مثل سورة الأنعام، وسورة النحل؛ لأنَّها في معرض مواجهة التَّكبُّر الوثنيِّ، ومعالجة الفساد الذي سبَّبه في الأرض.

ولعلَّ ممَّا يمكن إضافته عند التَّأمل في سرِّ الختم بالنَّظر في عاقبة الـمكذِّبين أن صيرورة المجد الحضاريِّ لأيِّ أمَّة إلى انقضاء، ونهاية الدُّول إلى تغيُّرٍ ودُوَل[1]، ولا يكون هذا التَّغيُّر وذاك الحِوَل إلا بسبب تكذيبٍ نظريٍّ وعمليٍّ لـما أنزل الله ﷻ من الآيات الهادية، وأوحاه من النُّظُم الـمرشدة التي تحمي من الفناء والدَّمار.. فإن حدث التَّكذيب كثُر الخبث، وازداد الـمترفون الفاسقون، وأنشأوا لفسقهم مظلَّاتٍ اجتماعيَّةً، ومؤسَّساتٍ راعيةً، ثم تباهوا بذلك، فكانت السُّنَّة التي لا تتخلَّف ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦]، فمن نظر في عاقبة الـمكذِّبين فاعتبر، ونظر فأبصر فيها حقَّ البصر، كان أولى أن يسير فيما يؤدِّي إلى النَّجاة، والحسنات، والإعمار الذي هو عاقبة الـمتَّقين.

(١) عرض لتقرير هذا ابن خلدون في مواضع من مقدمته، وهو عين ما اهتدى إليه المنطق الأبستمولوجي (أي: الدراسة النقدية للمبادئ والفرضيات والنتائج العلمية) -مؤخرًا- من أن للحضارات دورة حياة محددة لها بداية ومرحلة ذروة ثم نكوص يتبعه اضمحلال وزوال. ينظر: مقدم ابن خلدون، وكتاب (هل يمكننا استشراف انهيار الأمم؟) مصطفى آيت خرواش، مراجعة كتاب (هل انقضى القرن الأمريكي)؟ جوزيف ناي ٢٠١٥م.

الوسيلة الخامسة: أيَّام الله ﷻ في التاريخ:

إنها وسيلة الإنسان الصَّبَّار (الكثير الصَّبر) الشَّكور (الكثير الشُّكر)؛ لتحقيق الخروج من ظلمات الاستضعاف، والتَّخلُّف، والبعد عن الله ﷻ.. إنها خروج من تلك المضايق إلى نور القوَّة، والتَّقدُّم النَّاجح في السَّير إلى الله ﷻ.

فالتَّذكير بأيَّام الله ﷻ أحد أهمِّ وسائل التَّعرُّف إلى سُنَن الله ﷻ، وهو وسيلةٌ عظيمة اتَّخذها الرُّسل في التَّأثير الإيجابيِّ على أقوامهم، كما قال -تعالى ذكره-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: ٥]، وأيَّام الله تعمُّ أمرين:

الأمر الأول: الأيَّام المشهودة التي جرت عليهم فيها نِعَمٌ معجزة كبرى، كما ورد عن مجاهد وقتادة رحمهما الله، ومنها: أنه أنقذهم من آل فرعون بعدَ ما كانوا فيه من العذاب المُهين، وأوْرَثهم أرضهم، وديارَهم، وأموالَهم.

الأمر الثاني: الأيام المشهودة التي فيها الإهلاك لكبار الجبابرة والطُّغاة مثل ما نزل بعادٍ، وثمودَ، وأشباههم من العذاب، وبالعفو عن الآخرين، ومثلها أيام العرب لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفُجَّار، وغيرها(١).

وتجد هذا التَّذكير من أعظم ما حفظ للهُويَّة الإسرائيليَّة وجودها على الرَّغم من قلَّة عددهم في العالم، وعلى الرَّغم ممَّا تعرَّضوا له من حملات الاضطهاد النَّصرانيِّ في فتراتٍ سابقة، فتجد النَّصَّ على ذلك عندهم في مواضع متعدِّدة، بل اتخذوا أيامًا صارت أعيادًا، تمثِّل مفاصل لتذكيرهم بهويَّتهم.

ففي سفر الخروج:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥١٩)، الكشاف (٢/ ٥٤٠).

١٣: ٣ وقال موسى للشَّعب: «اذكروا هذا اليوم الذي فيه خرجتم من مصر من بيت العبوديَّة؛ فإنه بيدٍ قويَّة أخرجكم الرَّبُّ من هنا»[١].

وفي سفر التَّثنية ٧: ١٨-٢٣:

«١٨ لا تخفْهُم بل تذَكَّرْ ما أنزلَ الرّبُّ إلهُكَ بفِرعَونَ وبسائرِ المِصْريِّينَ.

١٩ مِنَ النَّكَباتِ العظيمةِ التي رَأَتْها عيناكَ واَذكُرِ الـمُعجزاتِ، والعجائبَ، واليدَ القديرةَ، والذِّراعَ المَرفوعةَ التي بِها أخرجكَ الرَّبُّ إلهُكَ. هكذا يفعَلُ الرَّبُّ إلهُكَ بجميعِ الشُّعوبِ الذينَ أنتَ خائِفٌ مِنهُم.

٢٠ ويُرسِلُ علَيهِمُ الرَّبُّ إلهُكَ الذُّعرَ حتى يُبيدَ الباقينَ والـمُختبئينَ مِنْ وجهِكَ.

٢١ فلا ترهَبْهُم لأنَّ الرَّبَّ إلهَكَ فيما بَينَكَ إلهٌ عظيمٌ رهيبٌ

٢٢ يُبيدُ أولئكَ الأُمَمَ مِنْ أمامِ وجهِكَ قليلًا قليلًا. فأنتَ لا تقدرُ أنْ تُفنيَهُم سريعًا؛ لئلا يَكثُرَ علَيكَ وحشُ البَرِّيَّةِ.

٢٣ الرَّبُّ إلهُكَ يُسلِّمُهُم إليكَ، ويُوقِعُ علَيهِمِ الحَيرةَ الشَّديدةَ حتى يفنَوا»[٢].

وقد كان العرب يتفاخرون بالأيَّام الفاصلة في حياتهم، كما قال عمرو بن كلثوم:

---

(١) سفر الخروج، للقس أنطونيوس فكري (ص: ٦٠).

(٢) سفر التثنية للقس أنطونيوس فكري للقس أنطونيوس (ص: ٣٤)، وفيه اختلاف في الألفاظ، جعلت تحتها خطًّا: «١٨ لا تخف منهم. اذكر ما فعله الرّبُّ إلهُكَ بفِرعَونَ وبجميع المِصْريِّينَ ١٩ التجاربَ العظيمةَ التي أبصرتها عيناكَ والآياتِ والعجائبَ واليدَ الشديدةَ والذِّراعَ الرفيعةَ التي بِها أخرجكَ الرّبُّ إلهُكَ. هكذا يفعَلُ الرّبُّ إلهُكَ بجميعِ الشُّعوبِ الذينَ أنتَ خائِفٌ من وجهها. ٢٠ والزنابير أيضًا يرسلها الرَّبُّ إلهُكَ حتى يفنى الباقون والمختفون مِنْ أمامك. ٢١ لا ترهَبْ وجوههم لأنَّ الرّبَّ إلهَكَ في وسطك إلهٌ عظيمٌ ومخوف ٢٢ ولكن الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب مِنْ أمامِ وجهِكَ قليلًا قليلًا. فأنتَ لا تستطيع أنْ تُفنيَهُم سريعًا لئلا تكثر علَيكَ وحوشُ البَرِّيَّةِ. ٢٣ ويدفعهم الرّبُّ إلهُكَ أمامك ويُوقِعُ بهم اضطرابًا عظيمًا حتى يفنَوا».

وَأَيَّـــامٍ لَـــنَـــا غُـــرٍّ طِـــوَالٍ عَصَـــيْنَا الـــمَـلْكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا[1]

فمعرفة أيَّام الله ﷻ تُوجد استبصارًا، وتُحدِث نورًا يهدي إلى الإجراءات الوقائيَّة أو العلاجيَّة للواقع القائم؛ وبذلك يتمُّ الاعتبار الذي يتجاوز الأحداث الماضية إلى الوقائع القائمة بقياس غيرها عليها ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وشرط وجود هذا الاستبصار نبذ الهوى، فالهوى يطمس بصيرة الحقِّ، بل يُزَيِّن الباطل ليظهر في صورة الحقِّ[2].

ولأنَّ الأمور تقاس بأمثالها فإن في الأحداث العظام، والوقائع الجسام التي شهدها ويشهدها جيلنا ما يمكن النَّظر إليه بهذا الاعتبار، فأيَّام الله ﷻ تترى لا تنقطع، وإنما من يتعامى عن عِبَرِها وعِظَاتِها هو المبتوت المنقطع.

زيارة آثار الأمم السَّابقة ودراستُها:

ينبثق عن السَّير في الأرض وسيلةٌ مركزيَّة تنبئنا عن السُّنَن بصورةٍ صحيحة. إنها زيارة آثار الأمم السَّابقة، ودراستها؛ ولأهمِّيَّتها سأفرد لها كلامًا مستقلًّا.

وهنا يحقُّ لك أن تتساءل: لماذا أُمِرنا بالسَّير في الأرض، دون الاكتفاء بقراءة كتب التاريخ؟

وللجواب عن ذلك نقول:

أمَّا أولًا: فلأن المعرفة العلميَّة المحضة ومنها المعرفة التَّاريخيَّة دخلت ضمن أوَّل آية أنزلت في القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، بينما كان الأمر بالسَّير في الأرض أمرًا ثانيًا يوصل إلى العلم والمعرفة.. إنه يصلك بالمعرفة التَّجريبيَّة المشاهَدة لتكميل

(١) المعلقات السبع مع الحواشي المفيدة للزوزني (ص: ١٢٠).

(٢) راجع: قدر الدعوة (ص: ٧١).

الـمعرفة العلميَّة النَّظريَّة، فـ«الـمشَاهدَة تُفِيدُ مَنْ لـم يَقْرَأْ عِلـمًا، وَتُقَوِّي عِلـم مَنْ قَرَأَ التَّارِيخَ، أَوْ قصَّ عَلَيْهِ»[١].

وأما ثانيًا: فلتعليم هذه الأمَّة النَّاهضة الأصولَ العلميَّة للبحث عن الحقيقة من خلال معاينة كثيرٍ من الأشياء التي نجدها بالسَّير في الأرض، الذي يعني اكتشاف الآثار، والبحث عن الـمخطوطات؛ فكم زُوِّرت كتبُ التاريخ، وأُدخل فيها الباطل، ولقد خسر الـمسلـمون كثيرًا عندما سبق غيرهم مثلًا إلى اكتشاف مخطوطات البحر الـميت.

وأما في هذه الأيام فإننا نشهد حركة ضخمةً تعمل على تغيير التاريخ يُصِرُّ فيها المبطلون وقوى الإجرام على أن يجعلوا الباطل حقًّا، والحقَّ باطلًا، وخذ على سبيل الـمثال الذين يحاولون تزييف تاريخ الصَّحابة ﭫ.

ومن أشهر حركات تزييف التَّاريخ وتغييره: حركة الـمجامع الـمسكونيَّة التي غيَّرت العقيدة النَّصرانيَّة من حالتها الإسلاميَّة الأصيلة إلى حالة التَّأليه، وابتدأ فرض الدِّين الجديد الـمنحرف عن الدِّين الـنَّصرانيِّ **في مجمع نيقية في ٣٢٥م**، حيث فرض الإمبراطور قسطنطين الأوَّل رؤية بابا الإسكندريَّة ألكسندروس الأوَّل، ومساعده أثناسيوس، واضطهدوا رؤية أريوس الـموحِّد، وعَدُّوا التَّوحيد بدعةً وهرطقة، وعندها صارت تثنية الذَّات الإلهيَّة مفروضةً على أتباع الـمسيح ﯡ، ثم بدأ الـمبتدعة الحقيقيون بذكر تأليه (الرُّوح القدس) إلى أن اجتمع الـمجمع الثاني (الـمسكوني) في القسطنطينية سنة ٣٨١م، وصرَّح بلاهوته وأقنوميته، وأضاف هذا الـمجمع إلى دستور الإيمان النيقوي!!! عن الرُّوح القدس بأنه

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٩٧).

«الرَّبُّ المحيي المنبثق من الآب، الذي هو مع الآب والابن مسجودٌ له وممجَّد، الناطق بالأنبياء»[١].

من أشهر حركات تزييف التاريخ وتغييره: حركة المجامع المسكونية التي غيَّرت العقيدة النصرانية من حالتها الإسلامية الأصيلة إلى حالة التأليه.

حكم زيارة آثار المعذَّبين أو الأمم الخالية:

وهنا لا بدَّ أن يأتيك -بحكم عقليتك الإسلاميَّة المتذوِّقة للكتاب والسُّنَّة- سؤال مُلِحٌّ حول حكم زيارة آثار الظَّالمين أو القرون التي خلت من قبل، وسبب السُّؤال ما عُرف من حديث ابن عمر ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما مَرَّ بِالْحِجْرِ -وهي ديار ثمود الكائنة شمال المدينة- قَالَ: «لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَموا، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»، ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ[٢]، فكيف نجمع بين الأمر بالسير في الأرض، الذي يقتضي دراسة آثار القرون الخالية، وبين هذا النَّهي؟

الجواب: عند التَّأمل وإجالة النَّظر سترى أن هذا النَّهي لا يعارض السَّير الحقيقيَّ في الأرض، والنَّظر في عاقبة المكذِّبين؛ بل هذا الحديث يقوِّي الزِّيارة؛ إذ يبيِّن أهدافها، فلزيارة آثار الأمم الخالية المعذَّبة حالتان:

الحالة الأولى: أن يكون ذلك للضَّحك والعبث والاستهتار، والمتعة الرخيصة، وتكون النَّتيجة إنتاج مؤثِّرات عظيمة وجديدة لصناعة الغفلة:

---

(١) ينظر: "الروح القدس" هل هو إله حقًّا، مقال منشور إسلام ويب، بتاريخ: ١٤/ ٩/ ٢٠٠٦م، رابط المقال: https://www.islamweb.net/ar/article

(٢) البخاري (٣٣٨٠).

فهذا هو المنهيُّ عنه، وعليه يحمل اللَّفظ السَّابق للحديث، ولقد ترى الفكر الأمميَّ المعاصر قائمًا في زماننا على إعمال هذه الغفلة في الإنسانيَّة الحائرة، فَهُمْ يشجعون السِّياحة؛ لكن لزيادة الغفلة، ويحمون الآثار لكن لتعمى الأبصار، فإن نقَّبوا في البلاد ابتغاء دراسة الآثار المنطمسة، والمعالم المندرسة، ازدادوا بها عمًى عن المستقبل الدُّنيويِّ والأخرويِّ، فترى تنقيبهم في اللُّغات القديمة، والآثار النَّخِرة، وتندهش من صبرهم على استكشاف الواقع التَّاريخي السَّابق بيانًا لحقائقه، أو محاولة لقلبها وتزويرها بعد معرفتها أحيانًا، وكلُّ ذلك ليزدادوا بعدًا عن الاستفادة الحقيقيَّة التي تبني المستقبل، وتؤمِّن الحياة الأخرويَّة ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

الحالة الثانية: أن تكون الزِّيارة لمصلحةٍ راجحةٍ: وهذه هي الحالة التي أُمرنا فيها بالسَّير في الأرض، والمصلحة الراجحة تظهر في التَّعليم، والتَّعلُّم، والتَّعرُّف إلى أيَّام الله ﷻ، أو للتَّمتع والانبهار بالفن المعماريِّ، والإفادة منه، والتَّحقيق الذي يؤدِّي إلى تكوين رؤيةٍ قريبة من الحقيقة عن التَّاريخ، كما يظهر تحقيق الآثار ومعرفة اللغُّات القديمة العبر الاجتماعيَّة، والدُّروس البانية من الوقائع الخالية، وتداول الأيَّام وكرِّ الدُّهور على القرون الخالية.

ويدلُّ على ذلك الآيات التي تمَّت الإشارة إليها؛ إذ تحضُّ بمنطوقها على السَّير في الأرض، وهي ثلاث عشرة آية صريحة، ومنها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩]، ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١]، وقد قال القرطبيُّ رحمه الله: «أي: قل يا محمَّد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذِّبين: سافروا في الأرض، فانظروا، واستخبروا؛ لتعرفوا ما حلَّ بالكفرة قبلكم من العقاب، وأليم العذاب، وهذا السَّفر مندوبٌ إليه، إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار

من خلا من الأمم، وأهل الدِّيار، والعاقبة: آخر الأمر. والمكذِّبون هنا من كذَّب الحقَّ وأهله، لا من كذَّب بالباطل»[١].

ومن الآيات التي تلفت الأنظار إلى مصارع المجرمين والفجَّار قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وهاتان الآيتان يجد فيهما الزَّمخشريُّ رحمه الله **التَّهييج العقليَّ للمارِّين ليجعلوا مرورهم ذا فائدة، لا مجرَّد سياحةٍ تزيد الغفلة**، فيقول: «يعني: تمرُّون على منازلهم في متاجركم إلى الشَّام ليلًا ونهارًا، فما فيكم عقولٌ تعتبرون بها»[٢]، ويلفت ابن كثيرٍ رحمه الله نظرنا إلى بعض ما تُستخرج به العبرة من المرور على تلك الدِّيار، فيقول: «فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَجَعَلَ مَحِلَّتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً، قَبِيحَةَ المنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرِّيحِ، وَجَعَلَهَا بِسَبِيلٍ مُقِيمٍ، يَمُرُّ بِهَا المسَافِرُونَ لَيْلًا وَنَهَارًا؛ وَلِهَذَا قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عزوجل عَلَيْهِمْ، وَتَعْلمونَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا؟»[٣].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى وَجْهِ تَخْصِيصِ قِصَّةِ لُوطٍ عليه السلام مَعَ الْقَصَصِ الْخَمْسِ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ عَلَى قِصَّةِ نُوحٍ عليه السلام، وَتَزِيدُ عَلَى تِلْكَ الْقَصَصِ بِأَنَّ فِيهَا مُشَاهَدَةَ آثَارِ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا، وَأَصَرُّوا على الْكفْرِ»[٤].

وإنَّ ممَّا يزيدك يقينًا بجواز دراسة آثار الأمم الخالية للمصلحة الدُّنيويَّة والأخرويَّة فعل النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في ديار ثمود، ممَّا ورد في الرِّوايات الأخرى، فالنَّهي السَّابق لم يمنع النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٩٤).

(٢) الكشاف (٤/ ٦٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٧٢).

أن يمرَّ على الحِجْر، بل وأن ينزل بهم، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لما نَزَلَ الْحِجْرَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ -لاحِظ كلمة: نزل- أَمَرَهُمْ أَنْ لا يَشْرَبُوا مِنْ بِئْرِهَا، وَلا يَسْتَقُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: قَدْ عَجَنَّا مِنْهَا، وَاسْتَقَيْنَا. فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَطْرَحُوا ذَلِكَ الْعَجِينَ، وَيُهرِيقُوا ذَلِكَ الماءَ[1]، وفي رواية: أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَرْضَ ثَمُودَ الْحِجْرَ، فَاسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا، وَاعْتَجَنُوا بِهِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ يُهَرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا، وَأَنْ يَعْلِفُوا الإِبِلَ الْعَجِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْبِئْرِ الَّتِي كَانَ تَرِدُهَا النَّاقَةُ[2].

هل لاح لك الجمع بين النَّهي عن النُّزول مع تحقُّق النُّزول؟

إن النَّهي يعني أن ينزلوا في أرض العذاب لهوًا أو لعبًا، مع الغفلة عمَّا حلَّ بالمكذِّبين؛ إذ لا ينتفع الإنسان هنا بالسَّير في الأرض، بل يزداد غفلةً وسوءًا؛ **ولذا قال ابن حجر** رحمه الله: «فمن مرَّ عليهم، ولم يتفكَّر فيما يوجب البكاء اعتبارًا بأحوالهم، فقد شابههم في الإهمال، ودلَّ على قساوة قلبه، وعدم خشوعه، فلا يأمن أن يجرَّه ذلك إلى العمل بمثل أعمالهم، فيصيبه ما أصابهم، وبهذا يندفع اعتراض من قال: كيف يصيب عذاب الظَّالمين من ليس بظالم؟! لأنَّه بهذا التَّقرير لا يأمن أن يصير ظالمًا، فيُعذَّب بظلمه»[3].

فإن نقَّبت في كتب السُّنَّة وجدت رواية لأحمد رحمه الله لا تُلزِم بالبكاء، إن لم يستطعه، حيث قال: «إلَّا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فتباكوا؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[4]، والتَّباكي يدلُّ على التَّرهيب من الوقوع في فخِّ الغفلة.

---

(١) البخاري (٣٣٧٨).

(٢) البخاري (٣٣٧٩).

(٣) فتح الباري -ابن حجر- (١ / ٥٣١).

(٤) ذكر ابن حجر هذه الرواية بنصها في فتح الباري (٦ / ٣٨٠)، وعزاها إلى رواية عند أحمد، ولم أجدها في المسند.

لم يقف الأمر عند مرور النَّبيِّ ﷺ على ديار ثمود، بل سنَّ لنا دراسة واقع القوم، والتَّحقُّق من آثارهم بصورة تطبيقيَّة، فقد وقف ﷺ يشرح لأصحابه ﷺ، ولأمَّته كيف كان حال أصحاب الحِجْر، والعبر المستفادة من تاريخهم الماضي، وأثرهم الدَّاثر، فعن جابر ﷺ قال: لـمَّا مرَّ رسول الله ﷺ بالحِجْر، قال: «لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللهُ ﷻ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ»، قِيلَ: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ»(١).

السِّياحة سيرٌ في الأرض، وتنميةٌ في المعرفة:

مدح الله ﷻ السِّياحة في الذِّكر المجيد، ولا بدَّ أن يختلف مفهوم السِّياحة في المنظور الإسلاميِّ الرَّائع عن المفهوم الذي تصرُّ عليه الأنظمة المعاصرة.. إنها لا يهمُّها إلا الظَّاهر من الحياة الدُّنيا، فتعمل على إشاعة الغفلة والتَّغفيل.. فتعال ننظر في ذلك:

ذكر الله ﷻ السِّياحة في كتابه الكريم، فقال سبحانه: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، فما معنى هذه الصِّفة الممدوحة المعظَّمة؟

ذكر بعض أهل العلم أن معناها: الصَّائمون، وهذا القول -مع انتشاره في التَّفسير- إلا أنَّني ما زلت أتعجَّب منه.. أفما كان الأظهر بيانًا أن يقول الله ﷻ -لو أراد هذا الوصف-:

(١) أحمد (١٤١٦٠)، وحسنه ابن حجر. فتح الباري (٦/ ٣٨٠)، وقال الأرناؤوط: «حديث قوي، وهذا إسناد على شرط مسلم، رجاله ثقات، رجال الشيخين، غير عبد الله بن عثمان بن خثيم وأبي الزبير فمن رجال مسلم».

(الصَّائمون) بدلًا من (السَّائحون)، خاصَّة أنه قد ذكر هذا الوصف في الصِّفات العشر لأصحاب الأجر العظيم في سورة الأحزاب، فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ولنُعِد هذه اللَّفظة (السِّياحة) إلى أصولها العربية؛ لنجد أنها مأخوذةٌ من ساح الماء: إذا جرى، والسَّيْحُ: الماء الظَّاهِر الْجَارِي على وَجه الأَرْض، وَجمعه سُيوحٌ، ويطلق السَّائح على معنى يضاد الجامد، وهو المائع المسفوح؛ لأنه بانمياعه ينتشر في وعائه، والسِّياحَةُ -كما يقول ابن سِيدَه-: الذَّهاب في الأَرْض لِلْعِبَادَةِ وَالتَّرَهُّب[1]، ولا شك أنك توافقني أن من العبادة والتَّرهُّب المشروع طلب العلم؛ فإن السَّير في الأرض يولِّد المعلومات، كما ينقِّحها، ويحقِّقها.

هنا ترى أن بعض المفسِّرين ﷺ ذهب إلى أن المرَاد مِنَ السَّائِحِينَ طُلَّابُ الْعِلم، وهو قولٌ وجيهٌ، فَهُمُ الذين يَنْتَقِلُونَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ فِي طَلَبِ الْعِلم، وَهذا القول قَوْلُ عِكْرِمَةَ رحمه الله، وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ رحمه الله: «كَانَتِ السِّيَاحَةُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا سَاحَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، رَأَى مَا كَانَ يَرَى السَّائِحُونَ قَبْلَهُ»[2].

وقد ورد ما يدلُّ على أن مفهوم السِّياحة يشمل الجهاد في سبيل الله، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى»[3].

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٣/ ٤٢٤).

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٥٠٥)، وضعفه إسلام منصور؛ لأن المثنى شيخ الطبري مجهول الحال. تفسير الطبري، طبعة دار الحديث (٦/ ١٤٠).

(٣) أبو داود (٢٤٨٦)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح، وقد صححه عبد الحق الإشبيلي، وسكت عنه ابن القطَّان، وجوَّد إسناده العراقي في "تخريج أحاديث الإحياء" (ص: ٤/ ١٥٦٦)».

ويبدو لي أنَّ النَّبيَّ ﷺ جعل الجهاد في سبيل الله هنا عين السِّياحة؛ لأنه يقتضي فتح البلدان: إمَّا بفتح القلوب الغُلف، من خلال الدَّعوة إلى الله ﷻ، وإمَّا بإزالة الأنظمة الظَّالمة المجرمة التي أرهقت المستضعفين، وحالت بينهم وبين العيش الكريم ومعرفة الحقائق السَّاطعة التي يمكن بعدها أن يحددوا سبيلهم شكرًا أو كفرًا.

ولا يظهر المنع من حمل معنى السياحة في الآية على معنى الصيام الذي يمثل سياحة روحية، ولا على معنى الانتقال لسد ثغور الأمة وحماية المستضعفين بالجهاد، ولا على معنى الانتقال لطلب العلم، ولكن ذلك لا يعني ألا نحمل الكلمة في سورة التوبة، وفي سورة التحريم على معناها الأصلي، فقد نقل الرَّازيُّ رحمه الله عن أَبي مُسْلم الأصفهاني رحمه الله أن معنى السَّائِحينَ: «السَّائِرُونَ في الْأَرْضِ»[1]، (فدخل فيهم من سبق، ودخل فيهم المهاجرون، والمجاهدون).

ومن قواعد التَّفسير المباشرة وجوب حمل ألفاظ القرآن على ظواهرها، ولزوم تأويلها وَفْقَ معانيها الجليَّة، إلا أن تدلَّ قرينة على وجوب التَّأويل، أو الحمل على المجاز، ولا مانع هنا من إرادة الحقيقة.

ومع اعتبارنا للمعاني السابقة إلا أن ذلك لا يمنع أن نجعل الأولى أن نحمل لفظ: (السَّائحون) في الآية على معناه الظَّاهر الحقيقيِّ، وهو السَّائرون الذَّاهبون في الدِّيار؛ لأجل الوقوف على الآثار؛ توصُّلًا للعظة بها والاعتبار، ولغير ذلك من الفوائد التي عرفها التَّاريخ،

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٥٤).

مع إبقائنا لدخول المعنى الذي ذكره المفسرون، فهو بمعنى السياحة النفسية، وهو عين ما يحصل للصائم من رحلة الروح وسيحانها في ملكوت الله تعالى، والقرائن التي تُلجِئُنا إلى إبقاء هذا المعنى الحقيقيِّ كثيرة، مثل: الآيات الآمرة بالسَّير في الأرض، فمنها المبدوءة بـ: ﴿سِيرُواْ﴾ [الأنعام: ١١ والنمل: ٦٩ والعنكبوت: ٢٠ والروم: ٤٢ وسبأ: ١٨]، ومنها المبدوءة بقوله ﴿أَوَ لَمۡ يَسِيرُواْ﴾ [الروم: ٩ وفاطر: ٤٤ وغافر: ٢١]، ومنها المبدوءة بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ [يوسف: ١٠٩ والحج: ٤٦ وغافر: ٨٢ ومحمد: ١٠]، ومنها المبدوءة بقوله: ﴿فَسِيرُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٧] و[النحل: ٣٦]، ومنها المادحة للضَّرب في الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [النساء: ١٠٠]، فهذه الآيات قرائن نيِّرة تؤذن بأن السَّيح معناه: السَّير، فإنَّها وإن تكن من مادة أخرى، إلا أن معناها يلاقي معنى السَّيح. على أنَّنا لا نعدم قرينة على ذلك من نفس المادَّة، وذلك كآية: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة: ٢]، فكلمة: (سيحوا) هنا تفسِّر (السَّائِحُونَ) في آيتنا، وهم يقولون: خير ما فسَّرته بالوارد[(١)].

وهل يؤثر السَّيْحُ في الأرض في التحقيق العلمي؟

الجواب: اسمع إلى الرَّازيِّ ﷺ يبيِّن مجموعةً من فوائد هذا العلم الذي قلَّ القائمون به في الأمَّة المسلمة: «لِلسِّيَاحَةِ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي تَكْمِيلِ النَّفْسِ؛ لِأَنَّهُ يَلْقَاهُ أَنْوَاعٌ مِنَ الضُّرِّ وَالْبُؤْسِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا، وَقَدْ يَنْقَطِعُ زَادُهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ، وَقَدْ يَلْقَى أَفَاضِلَ مُخْتَلِفِينَ، فَيَسْتَفِيدُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ فَائِدَةً مَخْصُوصَةً، وَقَدْ يَلْقَى الْأَكَابِرَ مِنَ النَّاسِ، فَيَسْتَحْقِرُ نَفْسَهُ فِي مُقَابَلَتِهِمْ، وَقَدْ يَصِلُ إِلَى الْمَرَادَاتِ الْكَثِيرَةِ، فَيَنْتَفِعُ بِهَا، وَقَدْ يُشَاهِدُ اخْتِلَافَ أَحْوَالِ أَهْلِ

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٥/ ٥١١).

الدُّنيا بِسَبَبِ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى في كُلِّ طَرَفٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ، فَتَقْوَى مَعْرِفَتُهُ، وَبِالْجُمْلَةِ، فَالسِّيَاحَةُ لَهَا آثَارٌ قَوِيَّةٌ في الدِّينِ»[1].

نعم! قد ترى المشكلة في أنَّ كثيرًا من أهل العلم قَصَروا السِّياحة على طلب العلم فقط مثل طلب الحديث، أو التَّفقُّه، ولم يدخلوا في ذلك معاينة الآثار، والنَّظر في الدِّيار.. وسأقول لك: كان ماذا؟ أئن بذل علماؤنا جهدهم في مسائل من العلم، يُمْنَعُ غيرُهم من العلم الذي يدخل ضمن مفاهيم هذه الآيات البيِّنات، ويعلق القاسميُّ رحمه الله على الأقوال السَّابقة بعد أن قبل دخول كلِّ تلك الأقوال في مفهوم السِّياحة، فيقول:

«لو أريد باللَّفظ أصل حقيقته اللُّغوية، أعني الضَّرب في الأرض خاصَّة، الذي عبَّر عنه عكرمة رحمه الله بالمنتقلين لطلب العلم؛ لكان بمفرده كافيًا في المعنى، مشيرًا إلى وصفٍ عظيم، وهذا ما حدا بأبي مسلم رحمه الله أن يقتصر عليه، وهو الحقُّ في تأويل الآية، وقد رأيت لبعض المحقِّقين مقالةً في تأييده، يجدر بالمحقِّق أن يقف عليها، وهاك خلاصتها: قال: **الكتاب الحكيم يأمر الإنسان كثيرًا بأن يضحِّي قسمًا من حياته في السِّياحة والتَّسيار؛ لأجل اكتشاف الآثار، والوقوف على أخبار الأمم البائدة؛ ليكون ذلك مثال عظة واعتبار، يضرب على أدمغة الجامدين بيد من حديد**. ولا أريد أن أحشر للقارئ تلك الآيات، فإن ذلك يؤدِّي إلى التَّطويل، بل أريد أن أجتزئ منها بما يكفل ثبوت الدَّعوى، وذلك في قوله تعالى: ﴿السَّائِحُونَ ...﴾ في هذه الآية، ولم يقع لفظ: (سائحون) في القرآن الكريم إلا هذه المرَّة الفذَّة. ومع ذلك فقد تغلب عليها أهل التفسير، فمنهم من قال: هم الصَّائمون، ومنهم من قال غيره. والصَّحيح أن (السَّائحون) معناه: السَّائرون...

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٥٤).

وبالجملة؛ فصرف هذا اللَّفظ عن ظاهره تكسيل للأمَّة، وتدبير على فتور همَّتها، وضعف نشاطها، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة، ورؤية عمران المسكونة، الأمر الذي هو الآن الضَّالَّة المنشودة عند الغربيين، وفيه ستر لنور الكتاب، الذي هو أول مرشد للعالم ألا يألوا جهدا في السَّير والسِّياحة، وأن ينقِّب في البلاد أي تنقيب، وقال بعضهم: لا يعزب عنك -أيها اللبيب- أنه تعالى حثَّ بني الإنسان على السَّفر في محكم كتابه العزيز، وندَّد على من ارتدى منهم رداء الكسل، وأوقع نفسه في وهدة الخمول، وتلذَّذ بالتَّقاعد عن جوب البلاد، وقطع الوِهاد، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ١٤٦]، وقال ﷺ: «سَافِرُوا تَصِحُّوا، وَاغْزُوا تَسْتَغْنُوا»[(١)]، وقد تكلَّم كثير من العلماء والحكماء والأدباء على مزايا السَّفر نظمًا ونثرًا، ومن أجلِّ فوائده: زيادة علمه، وانتفاع غيره بما يعلمه، وما يكتسبه، ومنها -وهو أعظمها-: رضا ربِّه ﷻ، ومزيد ثوابه بنفعه لعباده، وأحبُّ عباد الله ﷻ إلى الله ﷻ أنفعهم لعباده.

وكذلك باتِّعاظه بأحوال الناس، واعتباره بأمورهم، واطلاعه في سياحته على الأسرار المكنونة، والحِكَم التي دبَّر الله ﷻ بها أمر المخلوقات، وأحكم بها صنع الكائنات، فمن وقف على سرِّ الخالق، زاد في تعظيمه، وتقرَّب إليه بالطَّاعة والامتثال لأوامره ونواهيه، وليس

---

(١) أحمد (٨٩٤٥)، وقال الأرناؤوط: «إسناده ضعيف، ابن لهيعة سيئ الحفظ، ودَرَّاج أبو السَّمح ضعيف صاحب مناكير»، وذكره الألباني في الصَّحيحة برقم (٣٣٥٢)، ولكنه ذكره في الضعيفة برقم (٢٥٤)، فهل تراجع عن تصحيحه أم عن تضعيفه، أم ذكر طريقًا ضعيفة؟ بل قال رحمه الله في الصَّحيحة (٣٣٥٢): «وأما حديث ابن عمر فقد كنت خرجته في الضعيفة برقم (٢٥٥١) قبل أن يتبين لى حسن إسناد ابن حجيرة المخرَّج هنا أيضًا، وجملة القول أن حديث أبي هريرة رضي الله عنه بطريقيه، وبهذا الشاهد المرسل يرتقي الى رتبة الصحيح».

بخاف ما وقع للأنبياء والمرسلين، والصَّحابة والتَّابعين، والأولياء والصَّالحين، من التَّنقُّلات والأسفار، في القرى والأمصار، للنَّظر والاعتبار»[١].

الوسيلة السادسة: اتباع المنهج التَّجريبيِّ لمعرفة السُّنَن التَّفصيليَّة التي تسخِّر الكون:

ويدخل ذلك في النَّظر في الأرض، والتَّفكر في خلق السَّمَوَات والأرض، فقد تكرَّر الفعل (يعقل) بمشتقَّاته تسعًا وأربعين مرَّة، كما تكرَّر ما يتعلَّق بالفكر مرَّاتٍ عديدةً، وتكرَّر الأمر بالنَّظر الذي قد يقتضي التَّنقيب والاكتشاف.

وخذ هذه الآيات لتكتشف أنها كانت وراء التَّغيير الهائل المذهل الذي أحدثه القرآن الكريم في العقليَّة الجاهليَّة، فبنت تلك الحضارة العزيزة الغابرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٩].

ويلفت المستشرق (مكسيم رودنسون)[٢] النَّظر إلى أن القرآن يقدِّم باستمرار البراهين العقليَّة الدَّالة على قدرة الله ﷻ، فمعجزات الخلق، مثل تكاثر الحيوانات، وحركة الأجرام السَّماويَّة، والظَّواهر الكونيَّة، واختلاف أنواع الحيوانات والنَّباتات، تتناسب وحياة الإنسان

(١) تفسير القاسمي (٥/ ٥١١).

(٢) مؤرخ يهودي ماركسي له عدة كتب عن الإسلام، والاستشهاد به لا يعني بالضرورة الموافقة على كل آرائه كما هو معلوم.

بشكل رائع، وهي جميعًا ﴿لَّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ويضيف (رودنسون): يتكرَّر في القرآن حوالي خمسين مرَّة الفعل (عقل)، والذي يعني ربط الأفكار بعضها ببعض، يفكِّر، يفهم، مناقشة ذهنيَّة، وتطالعنا اللَّازمة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بعد كلِّ مقطع تعليليٍّ في العديد من السُوَر ثلاث عشرة مرَّة. وأما الكافرون الذين لا يستجيبون لدعوة محمَّد ﷺ فإن القرآن يَصِمُهم بأنَّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ في العديد من الآيات.. والقرآن يصرُّ على أنه يحتوي على آيات لمن ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾، و﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وللذين يتفكَّرون، **وشكوى القرآن الدَّائمة ضدَّ من يعرضون عنه أنهم يرفضون استعمال** قُوَاهم العقليَّة، وأنهم يغلقون عقولهم عن التَّعليم..[1].

وبناء على ذلك؛ وضع علماؤنا مراتب التَّحقُّق من المعلومة العلميَّة، فقال السُّيوطيُّ عنها:

وَالنَّظَرُ الْفِكْرُ مُفِيْدُ الْعِلْمِ ... وَالظَّنِّ، وَالْإِدْرَاكُ دُوْنَ حُكْمِ

تَصَوُّرٌ، وَمَعْهُ تَصْدِيقٌ جَلِي ... جَازِمُهُ التَّغْيِيْرَ إِنْ لَمْ يَقْبَلِ

عِلْمٌ، وَمَا يَقْبَلُهُ فالاعْتِقَادْ ... صَحِيحٌ انْ طَابَقَ أَوْ لا ذُو فَسَادْ

وَغَيْرُهُ ظَنٌّ لِرُجْحَانٍ سَلَكْ ... وَضِدُّهُ الْوَهْمُ وَمَا سَاوَى فَشَكْ[2]

وكم يأخذ أنفاسك أن ترى التَّعليم النَّبويَّ يحثُّ على الاكتشاف، ويُنَمِّي المعرفةَ المبصِرة التي تنطق باليقين، فقد حثَّ النَّبيُّ ﷺ على التَّعلُّم لمختلف السُّنَن الحياتيَّة النَّافعة، وترى الحثَّ على معرفة الأسباب الصَّحيحة، واتباعها، فمن ذلك ما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، يبلغ به النَّبيَّ ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً، إِلَّا قَدْ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ

(١) حتى الملائكة تسأل ص٥٥.

(٢) الكوكب الساطع + الجليس الصالح (ص: ٢٩).

جَهِلَهُ»[١]، وحثَّ على تقدير الأمور حسب استحقاقها، ففي حديث الدَّجال: قلنا: يا رسول الله، وما لبثُه في الأرض؟ قال: «أربعون يومًا: يوم كسَنَّة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسَنَّة تكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «فاقدروا له قَدْرَه»[٢].

وفتح الآفاق بذكر مجمل الأحداث العالميَّة القادمة، فعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ، قَالَ: لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ، إِنْ كُنْتُ لأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُ، فَأَعْرِفُ مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ إِذَا غَابَ عَنْهُ، فَرَآهُ فَعَرَفَه[٣].

الاستكشاف وحادثة تأبير النَّخل:

من أبرز الأدلَّة التي تبيِّن بناء المنهج التَّجريبيِّ في عهد النَّبيِّ ﷺ ما جاء عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلاءِ؟». فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الأُنْثَى، فَيَلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا». قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ، فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنْ كَانَ

(١) أحمد (٣٥٧٨) قال شعيب الأرناؤوط: «صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن»، وقال الألباني في الصَّحيحة (٤٥١): «وفي "الزوائد" ... إسناد حديث عبد الله بن مسعود ﷺ صحيح، رجاله ثقات . قلت: وهو كما قال، فإن عطاء بن السائب وإن كان قد اختلط فسفيان في رواية ابن ماجه، وهو الثوري روى عنه قبل الاختلاط».

(٢) ابن ماجه (٤٠٧٥)، وذكر الأرناؤوط أنه حديث صحيح. ولكنه سقط منه يحيى بن جابر الطائي بين عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وبين عبد الرحمن بن جُبير، وقد رواه ابن منده في "الإيمان" (١٠٢٧) من طريق هشام بن عمار فذكر يحيى بن جابر. وذكره الألباني في الصَّحيحة برقم (١٧٨٠).

(٣) البخاري (٦٦٠٤).

يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، فَلْيَصْنَعُوهُ، فإني إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلا تؤاخذوني بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شَيْئًا، فَخُذُوا بِهِ، فإني لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ ﷻ»(١).

وعن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ المدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ يَقُولُونَ: يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ؟». قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لم تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا». فَتَرَكُوهُ، فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ -قَالَ- فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ مِنْ دِينِكُمْ، فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ مِنْ رَأْيٍ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»(٢).

وتصريح هاتين الرِّوايتين بأنَّ نهيه ﷺ قائم على الظنِّ، يظهر شذوذ الجزم الوارد في رواية حَمَّاد بْن سَلمةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂، وَعَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقَالَ: «لَوْ لم تَفْعَلُوا لَصَلُحَ». قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بِهِمْ، فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ». قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «أَنْتُمْ أَعْلم بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»(٣).

هنا لا بدَّ من تحرير هذه القضيَّة حتى لا تفهم على غير حقيقتها:

إذ المراد من قول النَّبيِّ ﷺ واضحٌ وهو يرجع إلى اكتشاف السُّنَن وَفْقَ المنهج التَّجريبيِّ، لا أنَّ الدُّنيا منفصلة عن الدِّين، فهو كلام عن الدُّنيا بالمعنى الخاصِّ الذي طلب فيه السَّير في الأرض والاكتشاف، وقريب من هذا الحديث: حديث أبي قتادة ﷺ الطَّويل في نومهم عن صلاة الفجر، وفيه: فقال بعضهم لبعض: فرَّطنا في صلاتنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون؟ إن كان شيء من أمر دنياكم، فشأنكم به، وإن كان شيء من أمر دينكم، فإلَيَّ»، قلنا: يا رسول

(١) مسلم (٢٣٦١).

(٢) مسلم (٢٣٦٢).

(٣) مسلم (٢٣٦٣).

الله، فرَّطنا في صلاتنا. فقال: «إنه لا تفريط في النَّوم، وإنما التَّفريط في اليقظة، وإذا سها أحدُكم عن صلاته، فليصلِّها حين يذكرها»(١).

فهذا الحديث لا يعارض قاعدة: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، بل المراد بالحديث أنَّ ما قاله النَّبيُّ ﷺ على سبيل الظنِّ لا على سبيل الأمر الشَّرعيِّ، فمردُّه إلى الخبرة، والتَّجربة الإنسانيَّة؛ ألا ترى أن النَّوويَّ رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم بوَّب لهذا الحديث، فقال: «باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدُّنيا على سبيل الرَّأي»(٢)، فالحديث يدلُّ على أنَّ الأمور التي يطلب فيها العلم التَّجريبيُّ، هي التي لم تتناولها الأدلَّة الشَّرعيَّة تناولًا عامًّا، أو تناولًا خاصًّا، أو الأمور التي تناولتها السنة لا على سبيل التشريع، وإنما على سبيل الرأي فقط، وتُظَلِّل القواعدُ التَّشريعيَّة قواعدَها العامَّة، والأصل أن ما تناولته النُّصوص الشَّرعيَّة تتعلَّق بأمور الدُّنيا والآخرة، وكلُّها تكون على سبيل التَّشريع، إلا أن يدلَّ الدَّليل، أو القرينة على خلاف ذلك؛ ولذا فالتَّشريع المتعلِّق (بالعبادات الشَّعائرية) يشكِّل ربع أو خمس الأمور التَّشريعيَّة الإسلاميَّة التي تظلِّل الحياة كلَّها.. ألم تر النَّبيَّ ﷺ نقل التشريع الإلهي في أمور الحياة كلها، حتى في بعض مسائل الطب؟ وذلك مثل ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلاثَةٍ: شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ»(٣).

---

(١) ابن خزيمة (٤١٠)، وقال المحقق الأعظمي: «إسناده صحيح».

(٢) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١١٦).

(٣) البخاري (٥٦٨١).

لا غَروَ بناء على ذلك أن تتفجَّر ينابيع الـمعرفة الإسلاميَّة في مجال الطِّبِّ، والهندسة، والكيمياء، والرِّياضيات بما تغني شهرته عن ذكره حتى سرق كثيرٌ من المشهورين في التَّقدُّم الحضاريِّ عددًا من الاكتشافات الإسلاميَّة السَّابقة لهم، وقد تفوَّق الـمسلـمون في صناعة السَّاعات التي تعمل بالـماء، والرَّمل، والزِّئبق، والأثقال الـمختلفة، واخترعوا السَّاعات الشَّمسيَّة النَّقَّالة، وساعة الرِّحلة، والسَّاعة الشَّمسيَّة الـمنبهة، وأهدى هارون الرشيد، عام ١٩٢هـ- ٨٠٧م، الـملك الصَّليبيِّ (شارلـمان) ساعة نحاسيَّة، أدهشته، فسحرته بتحرُّك منظومتها من دون طاقة، وظنَّ من في قصره أن فيها شيطانًا، فحطموها قبل أن تفيق أوروبا من ظلـمات الجهل بألف ومائتي عام.

ضابط الوسائل السابقة: اتباع المنهج العلميِّ، واطِّراح التَّفكير الخرافيِّ:

بقدر حثِّ الإسلام على إعمال العقل، واعتماد منهجيَّة العلم، فقد حارب التَّفكير الخرافيَّ، والخزعبلات الفارغة، فمن ذلك محاربته للكهانة، والسِّحر، والتَّنجيم؛ باعتبارها أسبابًا باطلة، مفسدة للـمعرفة الصَّحيحة، ومدمِّرة للعيش الإنسانِيِّ الكريم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[1].

وزخرت كتب الـمسلـمين بكمٍّ هائلٍ من الـمعرفة الـمبصرة في كيفية بناء الإنسان، وحماية البلدان، وصناعة النُّظُم السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، الـمؤسَّسة على الحقوق والواجبات، ومعرفة سبل هلاك الأمم، إلا أنها واجهت عقبة عدم التَّطبيق الكامل من الأنظمة السِّياسيَّة؛ ممَّا جعلها لا تظهر بالصُّورة الـمناسبة التي تعكس الفكر الإسلاميَّ في التَّاريخ؛

---

(١) أحمد (٩٥٣٦) قال الأرناؤوط: «حسن، رجاله ثقات، رجال الصحيح».

فنهشت الدُّول الإسلاميَّة سُنَن الإفناء والتَّدمير دون القيام بعلاج حقيقيٍّ مستمدٍّ من بصائر السُّنَن الإلهيَّة القُرآنِيَّة.

زخرت كتب المسلمين بكمٍّ هائلٍ من المعرفة المبصرة في المجالات كافَّةً، إلا أنها واجهت عقبة عدم التَّطبيق الكامل من الأنظمة السِّياسيَّة؛ ممَّا جعلها لا تظهر بالصُّورة المناسبة التي تعكس الفكرَ الإسلاميَّ في التاريخ؛ فنهشت الدُّول الإسلاميَّة سنن الإفناء والتَّدمير دون القيام بعلاج حقيقيٍّ مستمدٍّ من بصائر السُّنَن الإلهيَّة القرآنية.

خصائص السُّنَن الإلهيَّة

الخاصية الأولى	الخاصية الثانية
الشُّمول: شمول السُّنَن للأوضاع الكونية والبشرية.	الثبات: فلا تقبل السُّنَن التَّغيير، فلا تتبدَّل ولا تتحوَّل، بما في ذلك مواطن الإعجاز التي لها نظامها الخاص.
الخاصية الثالثة	**الخاصية الرابعة**
السُّنَن ربَّانيَّة الإحاطة، ونلاحظ لذلك الارتباط الوثيق بين السُّنَن الكونيَّة والشَّرعيَّة.	الاطراد والحياد، فهي لا تحابي أحدًا ولا تجامله.
الخاصية الخامسة	**الخاصية السادسة**
التَّسخير، وقابلية الاستكشاف والكشف.	ظهور الاعتبار والاستبصار بها؛ اجتنابًا للمَثُلات، وبناء للحياة.
الخاصية السابعة	**الخاصية الثامنة**
التوازن والاتساق والتقابل المتكامل.	التَّداخل والاشتراك.

عبد السلام مقبل المجيدي

الفصل السابع

خصائص السُّنَن الإلهيَّة

تعال ننظر في الخصائص العامَّة التي اتَّسمت بها هذه السُّنَن ليرينا الله ﷻ آياته فيها، حيث يسيِّر الكون وَفْقَها تقديرًا منه وتدبيرًا:

الخاصِّيَّة الأولى: الشمول: شمول السُّنَن للأوضاع الكونيَّة والبشريَّة، والتَّفاعل المنسجم بينها، فترجع أحوال العالم إليها بارتباط الأسباب، وحضور الشُّروط، وانتفاء الموانع:

وقد سبق بيان أقسام السُّنَن، وهي إجمالًا:

السُّنَن الكونيَّة المادِّيَّة الثَّابتة (سُنَن الطَّبيعة)، والسُّنَن الشَّرعيَّة، والسُّنَن الاجتماعيَّة، وسُنَن التَّغيير، وأما المعجزات الخارقة للعادة فليست سُنَنًا، بل حقيقتها خروج عن السُّنَن ترتبط بخارقة خارجةٍ عن العادة، وتسبِّب الظهور المفاجئ أو الاختفاء المفاجئ، وكما ترى فهي تشمل الواقع الحياتيَّ للكون كلِّه، وقد كنتُ جعلت المعجزات سننًا خارقة لها نظامها، وتخضع لمدبرها ﷻ ثم قرَّرْتُ هذا التقرير بعد، وما زال التقرير الأول له وجاهته.

والله ﷻ جعل العالم قائمًا على قوانين كلِّيَّة، وإجرائيَّة جزئيَّة، يعرفها العالمون، والسَّامعون، والمتفكِّرون: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ

ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٠ - ٢٤].

وانظر كيف يلفت نظرنا إلى السُّنَن الكونيَّة في سورة الرُّوم، ويدهشك الرَّبط بين هذه السُّورة وبين محاولة فريقٍ من أبناء الرُّوم حَرْف نظرنا عن المعاني الحقيقيَّة لهذه السُّنَن، والإصرار على تغيير هذه السُّنَن التي تحفظ البشريَّة إلى سبلٍ أخرى لم تعرفها البشريَّة سبيلًا صحيحًا من قبل للنُّمو الإنسانيِّ.

وترى هذا في السُّنَن الإنسانيَّة (الاجتماعيَّة، والشَّرعيَّة) واضحًا في السُّورة ذاتها، حيث يقول الله ﷻ ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم: ٦ - ١٠].

العالَمون جميعًا يسيرون على سُنَنٍ محدَّدة، رضوا أم كرهوا، عرفوا أم أنكروا، فالسُّنَّة لغة: الطَّريقة المسلوكة، ومن ذلك يقال: هُوَ طريقٌ سَنَّه أَوَائِل النَّاس، فَصَارَ مَسلَكًا لمن بعدَهم، **فهذه الفئة تسير على سُنَّة الإهمال مثلًا، وتلك الأمَّة تسير على سُنَّة الإعمال، وهؤلاء يسيرون على سُنَّة الحذر**، وأولئك يسيرون على سُنَّة الأمن.. ذلك أن أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحقِّ للباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنِّزال، والملك والسِّيادة،

وغير ذلك قد جرى على طرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضاها النِّظام العامُّ[١]، تتحرَّك دواليب الحياة والعوالم بسُنَنيَّة عامَّة شاملة، لا يخرج عنها مخلوقٌ كائن من كان إلا ما شاء الله ﷻ.

ولعل من هذا قول النَّابغة الذُّبيانِيِّ:

نُبئتُ حِصْـنًا وحَيًّا من بني أسـدٍ ... قاموا فقالوا: حِمانا غيرُ مَقْروبِ

ضَـلَّتْ حُلومُهُمُ عنهمْ، وغَرَّهُمُ ... سَنُّ الـمُعَيْديِّ في رعيٍ وتعزيبِ[٢]

فكأن النَّابغة يقول: يا معشرَ مَعَدٍّ، لا يغرَّنَّكم عِزُّكُمْ، وأنَّ أصغَرَ رجلٍ منكم يسير على سُنَّة الرَّعي كيف شاء، فإن الحارثَ بنَ حِصْنٍ الغسَّانِيَّ قد عَتَب عليكم، وعلى حِصْنِ بن حذيفة، فلا تأمنوا سَطوتَه.

«فالسُّنَّة الإلهيَّةُ تجري على الجميع، لا فرق بين مجتمع ومجتمع، ولا فرق بين ديانة وديانة، ولا فرق بين جيل وجيل، وإلَّا لَمَا دعا القرآن الكريم إلى التفكُّر في آثار السَّابقين. فالذي يفهم السُّنَن الإلهيَّة وعمومَها يملك القدرة على التَّعامل مع هذه السُّنَن، ويحسن الاستعداد لنتائجها»[٣].

(١) تفسير المنار، (٤/ ١١٥).

(٢) ديوان النَّابغة الذُّبيانيِّ (ص:٤٩، ٥٠) وفيه (بأن حصنًا) بدلًا من (نبئت حصنًا)، وقوله: (ضلت حلومهم)، أي ذهبت، وقوله: (سَنُّ الـمُعَيْديِّ): أي قيامه على الماشية وإصلاحه لها بحسن الرعي، والتعزيب: أن يبيِّتَ الرجل ماشيته في المرعى، ولا يريحها إلى أهلها.

(٣) مفهوم السنن الربانية (ص: ٤٨).

الخاصِّيَّة الثانية: الثبات: فلا تقبل السُّنَن التَّغيير، فلا تتبَّدل ولا تتحوَّل، بما في ذلك مواطن الإعجاز التي لها نظامها الخاص، ويبصِّرنا الله ﷻ بذلك، فيقول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ۝٤٣﴾ [فاطر: ٤٣]:

فالسُّنَن الكونيَّة قوانين إلهيَّة وضعها الله ﷻ في الطَّبيعة لا تقبل التَّغيُّر، والسُّنَن الاجتماعيَّة قوانين إلهيَّة وضعها الله ﷻ في البشريَّة فهي ثابتة لا تتبدَّل، فهي عبارة عن مقدِّمات ولا بدَّ أن تؤدِّي إلى نتائج، فالإهمال يؤدِّي إلى الإخفاق والاختلال مثلًا.

وأما السُّنَن الشَّرعيَّة فلا مبدِّل لكلمات الله ﷻ فيها، فهي النِّظام الإلهيُّ الذي إن سار الخلق وَفْقَهُ ساروا على الصِّراط المستقيم في أمورهم الحياتيَّة، ولكن الجهود الشَّيطانيَّة ما فتئت تزيِّن لهم أن يُشرِّعوا لأنفسهم ما لم يأذن به خالقهم، وأن يضعوا من القوانين ما نهاه عنهم صانعهم، ومثال ذلك تواطؤ العرب على تحريم الأشهر الحرم، وهي سنةٌ شرعيَّة ورثوها من الملة الإبراهيمية، ثم حاول بعضهم بفعل القوة والجاه أن يغيرها، وفعلوا ذلك، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ قَالَ: ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾: أَنَّ جُنَادَةَ بْنَ عَوْفِ بْنِ أُمَيَّةَ الْكِنَانِيَّ كَانَ يُوَافِي الْمَوْسِمَ كُلَّ عَامٍ، وَكَانَ يُكْنَى أَبَا ثُمَامَةَ، فَيُنَادِي أَلَا إِنَّ أَبَا ثُمَامَةَ لا يُحَابُ وَلا يُعَابُ، أَلَا وَإِنَّ عَامَ صَفَرٍ الأَوَّلَ الْعَامَ حَلالٌ، فَيُحِلُّهُ لِلنَّاسِ، فَيُحَرِّمُ صَفَرًا عَامًا وَيُحَرِّمُ الْمُحَرَّمَ عَامًا، فَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]، وذكر النَّبيُّ ﷺ عبث الجاهليين بملَّة إبراهيم عليه السلام، وتغييرهم لمعالمه، وضرب النَّسيء مثلًا لذلك، فعَن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٣)، والطبري في تفسيره (٥/ ٨٨٣)، طبعة دار الحديث، والبيهقي في الكبرى (١٠٠٥٦)، واللفظ له. وقال إسلام منصور في تخريج أحاديث تفسير الطبري: «ضعيف؛ أبو صالح كاتب الليث، يكتب حديثه».

ابن عُمَر ﵄ قال: نزلت هذه السُّورة على رسول الله ﷺ بمنى، وهُو في أوسط أيام التَّشريق في حجَّة الوداع ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت له، ثُمَّ ركب فوقف للناس بالعقبة، واجتمع إليه ما شاء الله من المسلمين، فحمد الله ﷻ، وأثنى عليه بما هو أهله، ثُمَّ قال: «أيُّها النَّاس إنَّ الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السَّمَوَات والأرض، وإن عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم: رجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجَّة، والمحرَّم، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٦- ٣٧]»[1]

وأما السُّنَن الاجتماعيَّة فإنها تنقسم إلى قسمين:

فالأول: قد يتواطؤون على تغييره طلبًا للأحسن، ومن أمثلة ذلك نظام الحكم: هل يكون مَلَكيًّا أم يكون جُمهوريًّا، أم يكون قَبَلِيًّا، أم يكون شُوَرويًّا، أم يكون أم غير ذلك، وهنا لا يضرُّ الشَّكل ما دام الجوهر محفوظًا.

والثاني: قد يجترحون أنظمة يظنونها مميزة لهم لكنها تخضع لسنن الله في اجتماعهم، فيخيبون، ويدمرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ومثال ذلك العادات الاجتماعيَّة المرتبطة بقضايا التَّرف أو بقضايا الاستضعاف؛ فإن تغيير الحسن منه إلى السَّيئ تدميرٌ يضاف إلى العادات السَّيِّئة التي تكون موجودة أصلًا.

هنا نعلم أن قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] يراد به السُّنَن التي تحكم الكون، والسُّنَن التي يضبط بها الشَّرع أوضاع الحياة، وهي لا تقبل

---

(١) مسند البزَّار (١٢ / ٢٩٨) برقم (٦١٣٥)، وقال الهيثمي: «رواه البزار، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٣/ ٢٦٨).

التَّبديل ولا التَّحويل، ومحاولة الهرب منها وتكوين سُنَن جديدة في التَّعامل مع الحياة لا يثمر إلا الخسارة المحقَّقة.

ومن أبرز الأمثلة أن يظنَّ المرء أنه يمكن أن يصادق الذِّئب، ويأتمنه على رعاية أبنائه، والذِّئب هو الذِّئب.

ولندخل إلى محراب أبي إسحاق الشَّاطبيِّ رحمه الله لنجده يبيِّن أن السُّنَن الشَّرعيَّة تصبح سُنَنًا اجتماعيَّة، وهذا يعني عدم جواز التَّغيير، فهي الحُسْن كلُّه، فيذكر أن العوائد المستمرَّة ضربان:

أحدهما: العوائد الشَّرعيَّة، التي أقرَّها الدَّليل الشَّرعيُّ أو نفاها، ومعنى ذلك أن يكون الشَّرع أمر بها إيجابًا أو ندبًا، أو نهى عنها كراهة أو تحريمًا، أو أذن فيها فعلًا وتركًا.

والضرب الثاني: العوائد الجارية بين الخلق بما ليس في نفيه ولا إثباته دليلٌ شرعيٌّ.

أمَّا الأول: فثابت أبدًا، كسائر الأمور الشَّرعيَّة -وذكر من أمثلتها- الأمر بإزالة النَّجاسات، والتَّأهُّب للمناجاة، وستر العورات، والنَّهي عن الطواف بالبيت على العُرْي، وما أشبه ذلك من العوائد الجارية في النَّاس، إمَّا حسنة عند الشَّارع، أو قبيحة؛ فإنها من جملة الأمور الدَّاخلة تحت أحكام الشَّرع؛ فلا تبديل لها، وإن اختلفت آراء المكلَّفين فيها؛ فلا يصحُّ أن ينقلب الحسن فيها قبيحًا، ولا القبيح حسنًا.

والسُّنَن الكونيَّة ترجع إلى (الخلق)، والسُّنَن الشَّرعيَّة الاجتماعيَّة ترجع إلى مبدأ الأمر، وقد جمعهما الله عز وجل في قوله -تعالى ذكره-: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهذا يعني

ضرورة اكتشاف كِلا النَّوعين؛ للوصول إلى التَّآزر والتَّعاضد بين السُّنَن الكونيَّة والإنسانيَّة؛ ولذا تقترن السُّنَن الاجتماعيَّة بالسُّنَن الكونيَّة في القرآن الكريم(١).

ثم مثَّل لذلك، ولنخرج عن تمثيله إلى مثال نضعه نحن:

فالطَّهارة، والمبادئ الشَّرعيَّة للحفاظ على كرامة المرأة سُنَنٌ شرعيَّة اجتماعيَّة، ولن يأتي يوم يمكن عكس أحكامها.. لن يأتي يوم يقال فيه مثلًا: إيجاد القذر سُنَّة، أو يقال: إن الزَّواج يمكن أن يكون خارج الرَّابطة الفطريَّة التي يجتمع فيها الرَّجل والمرأة.

لقد حاول المحرِّفون القدامى، والمحرِّفون الجدد أصحاب القراءات المعاصرة وتطوير الخطاب الديني تغييرَ السُّنَن الشَّرعيَّة الاجتماعيَّة.. حاولوا أن يغيِّروا المعاني القرآنيَّة، لكنهم لم يزيدوا على أن يكونوا زَبَدًا يذهب جفاء مع مرور الأيام، وتبقى كلمات الله ﷻ لا مبدِّل لها.

فلن يأتي يوم يوصف فيه كشف العورات بالحُسن الثَّقافيِّ، وأنه في العصر الحاضر ليس بعيب، ولا قبيح؛ فيمكن أن نقول بجوازه!! لا يمكن أن يأتي ذلك اليوم الذي يقال فيه ذلك.. وإن سمعت أحيانًا من يتفوَّه بمثل هذه التُّرَّهات فسيقال في كلامه: هذا تحريفٌ للسُّنَن الشَّرعيَّة، ولا يمكن أن يكون شرعًا.

كلَّا! فالسُّنَن الشَّرعيَّة حُسْنٌ كلُّها ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(١) انظر: إعجاز النظم القرآني في اقتران السنن الاجتماعيَّة بالسُّنَن الكونيَّة (ص: ١٨).

[المائدة: ٥٠]؛ إذ لو صحَّ أن يتلاعب النَّاس بتلك السُّنَن الشَّرعيَّة؛ لكان نسخًا للأحكام المستقرَّة المستمرَّة، والنَّسخ بعد موت النَّبيِّ ﷺ باطل، فرفع العوائد الشَّرعيَّة باطل[1].

ومن ابتغاء التَّغيير للسُّنَن محاولة الخاملين في الحياة تحقيق الانجازات والانتصارات دون التَّعامل الحقيقيِّ مع سُنَن الابتلاء، والاكتفاء بالانسحاب الدَّائم أمام التَّبِعات التي تسبِّبها الاستقامة على الحقِّ.. هذا خلاف سُنَّة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

ويقرِّر الغزاليُّ رحمه الله ذلك بأسلوبه التَّربويِّ العذب، فيقول: «فلا تظنَّنَّ أن هذه الضَّرورة اختصت بآدم عليه السلام، وقد قيل:

فَلَا تَحسِــبَنْ هندًا لَهَا الغَدرُ وَحدَهَا ... سَــجيَّةُ نَفسٍ، كُلُّ غَـانيـةٍ هِـنـدُ[2]

بل هو حكم أزليٌّ مكتوب على جنس الإنس، لا يمكن فرض خلافه، ما لـم تتبدَّل السُّنَّة الإلهيَّة التي لا مطمع في تبديلها»[3].

وتوفُّر وصف الثَّبات على السُّنَن يجعلها من البساطة والوضوح والجلاء، بحيث يعلمها بعض الناس حتى قبل أن تقرأ في كلام الله عز وجل، فهذا (ورقة بن نوفل) الذي كان لديه علم بما عند أهل الكتاب يقول للنَّبيِّ ﷺ بعد سماعه خبر نزول الوحي لأوَّل مرَّة: «يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ»، فيسأله النَّبيُّ ﷺ في تعجُّب: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟!»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ[4].

(١) الموافقات (١/ ٤٥٩).

(٢) البيت لأبي تمام الطائي في ديوانه (ص: ١٢٠).

(٣) إحياء علوم الدين ومعه تخريج الحافظ العراقي (٥/ ٢٨٢).

(٤) البخاري (٣).

ويؤكِّد الشَّاطبيُّ رحمه الله على ذلك وهو يبني الوعي الصَّحيح في الأمة: «إن الإخبار الشَّرعيَّ قد جاء بأحوال هذا الوجود على أنها دائمة غير مختلفة إلى قيام السَّاعة؛ كالإخبار عن السَّمَوَات والأرض وما بينهما، وما فيهما من المنافع، والتَّصاريف، والأحوال، وأنَّ سُنَّة الله عز وجل لا تبديل لها، وأنْ لا تبديل لخلق الله عز وجل؛ كما جاء بإلزام الشَّرائع على ذلك الوِزان أيضًا، والخبر من الصَّادق لا يكون بخلاف مُخْبِرِهِ بحال؛ فإنَّ الخلاف بينهما محال»[1].

وهذا ينقلنا إلى الخاصِّيَّة الثَّالثة:

الخاصِّيَّة الثَّالثة: السُّنَن ربَّانيَّة الإحاطة، ونلاحظ لذلك الارتباط الوثيق بين السُّنَن الكونيَّة والشَّرعيَّة:

فالسُّنَن الكونيَّة نوامس وقوانين ثابتة وقصارى ما يستطيعه البشر تجاهها توظيفها بعد بذل الجهد في اكتشافها، فلا يستطيع البشر لها حولًا، وأما السُّنَن الشَّرعيَّة الاجتماعيَّة فالبشر مكلَّفون بأن يتعاملوا معها التَّعامل الإيجابيَّ الصَّادق؛ ليجدوا آثارها التي لا تتغيَّر.. فإن فعلوا وإلا حلَّت بهم سُنَن تضييع السُّنَن ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٤]، ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: ١٣٥].

تظل السُّنَن الشَّرعيَّة مرتبطة بالسُّنَن الكونيَّة؛ لتعلَمَ البشريَّة أنَّها مهما فعلت من أعمال، أو قدَّمت من أفعال، فإن ذلك لا يعني أنها تخرج عن الإرادة الإلهيَّة الكونيَّة.

واضرب لهم على ذلك مثلًا قرآنيًّا مبهرًا يبين الارتباط بين السُّنَن الكونيَّة والشَّرعيَّة:

---

(١) الموافقات (٢/ ٤٨٣-٤٨٤).

فقد اقترنت سُنَّة الله ﷻ في إيتاء الملك ونزعه بسُنَّة إيلاج اللَّيل في النَّهار، وإيلاج النَّهار في اللَّيل ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦- ٢٧]، ويربط محمَّد رشيد رضا ﵀ بين السُّنَن الكونيَّة والشَّرعيَّة (الواقعيَّة-الاجتماعيَّة) ممَّا ورد في هاتين الآيتين، فيقول: «أَيْ: إِنَّكَ بِحِكْمَتِكَ فِي تَدْبِيرِ الْأَرْضِ، وَتَكْوِيرِهَا، وَجَعْلِ الشَّمْسِ بِحُسْبَانٍ، تَزِيدُ فِي أَحَدِ الْجَدِيدَيْنِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِنَقْصِ الْآخَرِ، فَلَا يُنْكَرُ عَلَى قُدْرَتِكَ، وَحِكْمَتِكَ أَنْ تُؤْتِيَ النُّبُوَّةَ، وَالْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، كَمُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ، وَتَنْزِعَهُمَا مِمَّنْ تَشَاءُ، كَبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّكَ تَتَصَرَّفُ فِي شُئُونِ النَّاسِ، كَمَا تَتَصَرَّفُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»(١).

وكذلك بالعكس: أن تنزع الملك والسيادة العالمية من الأمَّة الخاتمة، وتعيده لبني إسرائيل عندما تتخلَّى الأمَّة الخاتمة عن أسباب بقاء النِّعمة عندها ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

وعلى الرَّغم من هذا التَّنظير الجميل فإنَّه يمكن أن ترى معنى أوسع يتجلَّى في هذا الاقتران، ومن ذلك سُنَّة إيتاء الحكم ونزعه، فإذا كانت سُنَّة إيلاج اللَّيل في النَّهار، والنَّهار في اللَّيل كونيَّةً محضةً، فإنَّ سُنَّة إيتاء الملك ونزعه بشريَّة التَّنفيذ، ربَّانيَّة الإحاطة، فلها إجراءاتها التي تتمُّ بها المدافعة بين النَّاس، ومن سلك تلك السُّنَن الإجرائيَّة نال الغلبة، ولكنه لا يخرج عن الإحاطة الرَّبَّانيَّة، فقد ينال مراده، وقد يمنعه الله ﷻ من قطف ثمرة جهوده، وهنا نتذكَّر أنَّ عبد الرحمن الدَّاخل ﵀ اتَّبع سُنَنًا إجرائيَّة سببيَّة، فنال مُلْكَ الأندلس، وأنَّ مروان بن محمد

(١) تفسير المنار (٣/ ٢٢٦).

الخليفة الأمويَّ رحمه الله كان على ملكٍ، ووصف بالكفاءة، إلا أنه حاول اتِّباع السُّنَن الإجرائيَّة في الـمحافظة على ملك بني أميَّة، ولكن عوامل الفشل كانت أعظم منه، وأحيط به، وفَنِيَ ذلك الـمُلك.

ولنوسِّع القول في العلاقة بين السُّنَن الجارية والإرادة الإلهيَّة:

فالإرادة الإلهيَّة تنقسم إلى قسمين: كونيَّة قدريَّة، وشرعيَّة كسبيَّة:

والسُّنَن الجارية تنقسم إلى قسمين أيضًا، وتكون السُّنَن تعبيرًا عن تلك الإرادة، وإظهارًا لها.. وهنا تغالب القَدَر بالقَدَر، وتقابل السُّنَّة بالسُّنَّة، وتنظر إلى الأحداث الكونيَّة نظرة مبصرة لعمقها الحقيقيِّ، وتكون كما قال ابن القَيِّم رحمه الله:

وانظر إلى الأقدارِ جاريةً بما ... قد شاء من غَيٍّ ومن إيمانِ
واجعلْ لقَلْبِك مُقْلَتَينِ كلاهما ... بالحقِّ في ذا الخلقِ ناظِرتانِ
فانظرْ بعينِ الحُكْم، وارْحَمْهُمْ بها ... إذ لا تُردُّ مَشِيئةُ الدَّيَّانِ
وانظرْ بعينِ الأمرِ، واحْمِلْهُمْ على ... أحكامِه، فهما إذًا نَظَرانِ
واجعل لوجهك مُقْلَتَينِ كِلاهما ... من خشيةِ الرَّحمن باكيتانِ
لو شاء ربُّكَ كنتَ أيضا مِثْلَهمْ ... فالقلبُ بين أصابعِ الرَّحمنِ
واحذرْ كمائنَ نَفْسِك اللَّاتي متى ... خَرَجَتْ عليك كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ
وإذا انتصرتْ لها فأنتَ كَمَنْ بَغَى ... طَفْيَ الدُّخان بموقِد النِّيرانِ[1]

وقد اهتدى قوم إلى ثبات السُّنَن والنَّواميس، ولكنَّهم نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهيَّة، وأنَّه إلى الله عز وجل تصير الأمور.. فأما هذه الأمَّة المختارة فقد استيقنت هذا كلَّه، واتَّسع

---

(١) الكافية الشافية (ص: ١٩).

له تصوُّرها، ووقع في حسِّها التَّوازن بين ثبات السُّنَن وطلاقة المشيئة، فاستقامت حياتها على التَّعامل مع سُنَن الله ﷻ الثَّابتة والاطمئنان- بعد هذا- إلى مشيئته الطَّليقة!.

الخاصِّيَّة الرابعة: الاطراد والحياد، فهي لا تحابي أحدًا ولا تجامله:

فالاطِّراد يعني وجود الحكم مع وجود العلَّة، والجريان في سهولة، وانتفاؤه مع انتفائها، والانتظام يدلُّ على عدم التَّخلُّف، فيجري على الخلق دون استثناء، أو محاباة إلا لـمعجزة، أو كرامة خارقة للعادة؛ إذ السُّنَّة من أسنَنْتُ الرُّمْح: إِذا جعلتَ لَهُ سِنانًا، وسَنَّ الإِبل يَسُنُّها سَنًّا: إِذا أحسَن رِعْيَتَها، حتّى كَأَنَّهُ صَقَلها، وسَنَنْت الـماءَ عَلَى وَجْهِي أَسُنُّهُ سَنًّا، إِذَا أَرْسَلْتَهُ إِرْسَالًا، قَالَ خالد بن إبراهيم لأبي ذؤيب الْهُذَلِيِّ:

فَـلَا تَجْـزَعَنْ مِـنْ سُـنَّةٍ أَنْـتَ سِـرْتَهَا فَـأَوَّلُ رَاضٍ سُـــنَّةً مَـــنْ يَسِـــيرُهَا[١]

فكلـمة "سُنَّة": تعني القانون الـمطَّرد الذي لا يتخلَّف إلا في قضايا السُّنَن الخارقة.. أما السُّنَن الجارية فلا تتخلَّف، وإن كان لا يرى اطِّرادها واضحًا وصارخًا، كقوانين الـمادَّة[٢].

ويزيد الشَّاطبيُّ رحمه الله الأمر إيضاحًا، فيقول: «**لَوْلَا أَنَّ اطِّرَادَ الْعَادَاتِ معلوم**، لـما عرف الدِّين مِنْ أَصْلِهِ، فَضْلًا عَنْ تَعَرُّفِ فُرُوعِهِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا عِنْدَ الِاعْتِرَافِ بِالنُّبُوَّةِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِهَا إِلَّا بِوَاسِطَةِ الـمعْجِزَةِ، وَلَا مَعْنَى لِلـمعْجِزَةِ إِلَّا أَنَّهَا فِعْلٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَلَا يَحْصُلُ فِعْلٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ إِلَّا بَعْدَ تَقْرِيرِ اطِّرَادِ الْعَادَةِ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ، كَمَا اطَّرَدَتْ فِي الـماضِي، وَلَا مَعْنَى لِلْعَادَةِ إِلَّا أَنَّ الْفِعْلَ الـمفْرُوضَ لَوْ قُدِّرَ وُقُوعُهُ غَيْرَ مُقَارِنٍ لِلتَّحَدِّي، لـم يَقَعْ إِلَّا عَلَى الْوَجْهِ الـمعْلُومِ فِي أَمْثَالِهِ، فَإِذَا وَقَعَ مُقْتَرِنًا بِالدَّعْوَةِ، خَارِقًا لِلْعَادَةِ، عُلـم أَنَّهُ لـم يَقَعْ

(١) ديوان الـمعاني لأبي هلال العسكري (١/ ١٥٨).

(٢) كيف نتعامل مع القرآن (ص: ٤٧).

كَذَلِكَ مُخَالِفًا لما اطَّرَدَ إِلَّا وَالدَّاعِي صَادِقٌ، فَلَوْ كَانَتِ الْعَادَةُ غَيْرَ مَعْلُومَةٍ، لما حَصَلَ الْعِلم بِصِدْقِهِ اضْطِرَارًا»[1].

لقد جاء القرآن يبيِّن للنَّاس أنَّ مشيئة الله -تعالى- في خلقه إنما تنفَّذ على سُنَن حكيمة وطرائق قويمة، فمن سار على سُنَّته في الحرب -مثلًا- ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدًا أو وثنيًّا، ومن تنكَّبها خسر وإن كان صدِّيقًا أو نَبِيًّا[2].

وينبغي أن نفرِّق بين اطِّراد السُّنَّة، وظهور نتائجها، فالذي لا يعتريه التَّبديل والتَّحويل هو السُّنَن، سواء أكانت سُنَنًا كلِّيَّة أم سُنَنًا إجرائيَّة.. أمَّا ظهور النَّتيجة المتوقَّعة، فتظلُّ في حيِّز الإحاطة الإلهيَّة، فقد يمتنع ظهور النَّتيجة لخللٍ في إحدى السُّنَن الإجرائيَّة المفصِّلة للسُّنَن الكلِّيَّة، وقد يكون ذلك لتدافع مجموعة من السُّنَن المتقابلة، مثل تدافع: سُنَن العدل الدَّاخليِّ والظُّلم الخارجيِّ في وقوع الدَّمار على المجتمعات، ممَّا هو مشاهد في الدُّول المستكبرة هذه الأيام.

فإن قلت: هلَّا ذكرت مثالًا يوضِّح هذه خاصِّية اطِّراد السُّنَن وعمومها وانتظامها؟

من الأمثلة على العموم والانتظام:

في السُّنَن الكونيَّة: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق: ٩]، وفي السُّنَن الشَّرعيَّة الاجتماعيَّة ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣﴾ [النساء: ١٢٣].

---

(١) الموافقات (٢/ ٤٨٤)، وانظر: السُّنَن الإلهيَّة وخصائصها للدكتور رشيد كهوس (ص: ١١).

(٢) انظر: تفسير المنار، (٤/ ١١٦).

كما أنَّ كون السُّنَن مطَّردة يعني أنها لا تتوقف، ولا تتأجل فيما خلا مواطن الإعجاز، فإن الله ﷻ ينقضها حينها بما شاء، ومواطن الإعجاز تبنى غالبًا على مواقف شرعيَّة ابتدائيَّة، ولها سننها الخاصة، كما رأينا توقُّف الشَّمس ليوشع بن نون ؈، فعن أَبي هُرَيْرَةَ ؄ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ، مِنْهَا: قول رَسُولِ اللهِ ﷺ: «غَزَا نبي مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لا يتبعني رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلما يَبْنِ، وَلا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا وَلما يَرْفَعْ سُقُفَهَا، وَلا آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَمًا، أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلادَهَا. قَالَ: فَغَزَا، فَأَدْنَى لِلْقَرْيَةِ حِينَ صَلاةِ الْعَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا. فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ، حَتَّى فَتَحَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِ...»[1].

وبيَّن لنا النَّبيُّ ﷺ أنَّ النَّبيَّ المقصود هنا هو يوشع، فعن أبي هريرة ؄ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشَّمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ؈، ليالي سار إلى بيت المقدس»[2].

والعموم عبارة عن إحاطة الأفراد دفعة[3]، فهذه السُّنَن لا تُنتقى، ولا تُنتَخب فيما هي عامَّةٌ فيه، بل تعمُّ الخلق جميعًا ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وممَّا يبيِّن عمومها للخلق جميعًا قول ربِّنا جلَّ مجده: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

---

(١) مسلم (١٧٤٧).

(٢) أحمد (٨٣١٥)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٣) التعريفات (ص: ١٥٧).

وبذا تسري السُّنَن على جميع الخلق دون استثناء إلا على سبيل الاصطفاء، والاختيار، والإعجاز، وممَّا يدلُّ على الأمرين معًا، أن عائشة ﵂ قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»(١)، فقد أوقف الله ﷻ أَلَمَ السُّمِّ عن السَّريان في الجسد الشَّريف على سبيل الإعجاز، فعطَّل الأسباب عن العمل، وذلك إلى أجل، ولما حان الوقت أعاد الأسباب لتقوم بعملها المعتاد، فالعموم والاطِّراد في وقوع أثر التَّسمُّم في الجسد قائم حتى في حالة النَّبيِّ ﷺ إلا أنَّ الإعجاز تمَّ في تأخير الوقوع المباشر للأثر.

هل يستثنى أحد من عموم السُّنَن واطِّرادها؟ وما علاقة زعم اليهود بأنهم شعب الله المختار بالسُّنَن واطِّرادها؟

الجواب: لا يستثنى من العموم والاطِّراد أحد، فلا يوجد ما يسمى نظرية (شعب الله المختار) لا عند أمَّة محمَّد ﷺ ولا عند أمَّة موسى عليه الصَّلاة والسَّلام، وانظر إلى الإسرائيليين:

فَهُمْ عندما اعتمدوا على هذه النَّظرية تاهوا في الأرض أذلاء، وقال الله ﷻ لموسى ﵇ عنهم: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، ولكن الأمر اختلف بعد ذلك، فقد بقي شعورهم بالتَّميُّز لكنَّهم لم يكتفوا به بل قرنوه بالعمل، وطبقوا سنن الانتصار والتَّغيير، وكانت النَّتيجة أن قال الله ﷻ عنهم: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

(١) البخاري (٤٤٢٨).

لم يَعمَلوا بمفهوم نظرية (الشَّعب المختار) بعيدًا عن العمل الدَّؤوب الذي من خلاله استطاعوا السَّيطرة على النُّفوذ الدَّوليِّ في الغالب.

ومقابل الحالة الإسرائيليَّة تجد كثيرًا من أفراد الأمَّة الخاتمة يعتمدون على قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أو يستندون إلى قول النَّبيِّ ﷺ: «وجعلت أمَّتي خير الأمم»(١)، أو إلى قوله: «إنَّكم تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً. أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ»(٢).. إنَّ الأمانِيَّ لا تغني من الحقِّ شيئًا، كما لم تغن عن بني إسرائيل بادئ الرَّأي.. هلمَّ فلنخاطب أنفسنا وسائر أمَّة النَّبيِّ ﷺ قائلين:

ففرُّوا إلى الله ﷻ بأن تطبِّقوا عمليًّا شرط هذه الخيريَّة الواضح في تتمَّة الآية ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وترى هنا أنه ﷻ أخَّر شرط الإيمان لأنه خاصٌّ بمن يعتنقه، وقدَّم الأمر بالمعروف الذي يعني الأمر بكلِّ ما تعارف النَّاس على حسنه ممَّا يبني حياتهم على العدل والإحسان، والنَّهي عن المنكر الذي يعني النَّهي عن كلِّ ما أنكره النَّاس ممَّا يدمِّر حياتهم.

أمثلة نبويّة لبعض سُنَن الدَّمار في المجتمعات:

يضرب النَّبيُّ ﷺ خمسة أمثلة لسُنَن من سُنَن الدَّمار في المجتمعات تنتظم، ولا تتخلَّف آثارها:

---

(١) أحمد (٧٦٣)، وحسن إسناده الأرناؤوط.

(٢) أحمد (٢٠٠٢٩)، وحسن إسناده الأرناؤوط.

وأنها تصيب الأمَّة الخاتمة كغيرها من الأمم، **ولها أثرها في العمار والدَّمار**، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الـمهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، -وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ-.

لـم تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالأَوْجَاعُ، الَّتِي لـم تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

وَلـم يَنْقُصُوا الـمكْيَالَ وَالـميزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الـمؤُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلـم يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لـم يُمْطَرُوا.

وَلـم يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

وَمَا لـم تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[(١)].

وجاء موقوفًا عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «ما ظهر الغُلول في قوم قطُّ، إلا أُلقي في قلوبهم الرُّعب، ولا فشا الزنى في قوم قطُّ، إلا كثر فيهم الـموت، ولا نقص قوم الـمكيال والـميزان، إلا قُطع عنهم الرِّزق، ولا حكم قوم بغير الحقِّ، إلا فشا فيهم الدَّم، ولا ختر قوم بالعهد، إلا سلَّط الله عليهم العدوَّ»[(٢)].

---

(١) ابن ماجه (٤٠١٩)، وقال الأرناؤوط: «حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف ابن أبي مالك»، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه (٤/ ١٨٦): «هذا حديث صالح للعمل به، وقد اختلفوا في ابن أبي مالك وأبيه»، وصحَّحه لغيره الألباني في سلسلة الأحاديث الصَّحيحة (١٠٦).

(٢) الـموطأ -رواية يحيى الليثي- (٢ / ٤٦٠)، وقال الألباني: «وهذا منقطع، إن لم يكن معضلًا؛ فإن يحيى بن سعيد، وهو الأنصاري النجاري من صغار التابعين، ولم يذكروا له رواية عن أنس من الصحابة، ورواه الطبراني مرفوعًا». ضعيف الترغيب والترهيب (١/ ٥٣٨).

ألا ترى أنه ينبغي أن نستحضر هذين الحديثين عند الكلام في قضايا الأمَّة، وعمارها أو دمارها؟ ألا ترى أنه ينبغي أن نجعلهما قوانين عمليَّة في معرفة عوامل التَّنمية ومسبِّبات التَّعرية؟ فما لأقوامٍ يعرضون عن القوانين التي تنجيهم من المهالك، وترقِّيهم، وترفع حياتهم؟! كأنَّ الله ﷻ عناهم بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧].

إن هنالك فهمًا نَصْفيًّا عليلًا يتوجَّب اطِّراحه وتفنيده، مفاد هذا الفهم العليل والفكر الكليل أن علينا تعاطي الأسباب وليس علينا مناقشة مدى ترتُّب النَّتائج على هذه الأسباب، وهذه قضية خطيرة تزري بالعقل المسلم وتتعارض مع سُنَن الله ﷻ في الحياة والأحياء التي أمرنا بالتزامها.

إنَّ تسلُّل مثل هذه القضية الخطيرة إلى عقول من يوسمون بالصَّفوة دفعهم إلى الاستسلام المرفوض شرعًا وعقلًا، ولقد استراح عقل مسلم اليوم إلى هذه المقولة التي جاءت ثمرة لعصر التَّخلُّف؛ لأنَّها تعفيه من المسؤوليَّة تجاه القضايا التي يخفق فيها، وتعفيه من إعادة النَّظر لاكتشاف الثَّغرات وتسديدها لأنَّ الأمر ليس بمقدروه وإنَّما هو من قدر الله ﷻ.

كما أعفى نفسه من الاستشعار بالمسؤوليَّة من وجه آخر بإلقاء التَّبعة على الآخرين في تقصيره وأخطائه دون أن يدري أنه نجَّى نفسه ظاهرًا ليقع بما هو أسوأ، وذلك بالحكم على نفسه أنه دون سوية المرحلة ودون سوية التَّعامل مع هذه المرحلة أيضًا![1].

(١) انظر: انظر مقدمة مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب (حول تشكيل العقل المسلم) (ص: ١٥).

ولعلنا نستملح الاستشهاد بما ينسب لبعض مؤمني عاد؛ إذ ذكر بعض المؤرِّخين أنَّ نبيَّهم هودًا عليه السلام دعا عليهم بأن تُسَلَّط عليهم ثلاث من السِّنين العجاف، علَّهم يعتبرون، فلما كانت السَّنَة العجفاء الثانية، سمُّوها: كحلًا، وأنشد بعض مؤمنيهم يقول:

قد نزلت كحل بآل عادِ	من السِّنينَ الأُزُمِ الشِّدادِ
حين بغت عن سنن السَّدادِ	تذلُّ ذا الإتراف والفسادِ
مَنْ في القرى منهم وفي البوادي	كلوحها على العزيز بادي
تمنع عادًا سُنَنَ الإيرادِ	عقوبة من ملك العبادِ
إذ جانبت عادٌ هدى الرَّشادِ	ثم طغت في البغي في البلادِ
مغترةً بأوهن الأجنادِ	بعد إصامتنا مع المرادِ
فأصبحوا في سِمَةِ الحُسَّادِ	وسلكوا في طرق الفسادِ[(١)]

الخاصِّيَّة الخامسة: التَّسخير، وقابلية الاستكشاف والكشف:

وهذه من أعظم الخصائص التي يتمُّ من خلالها بناء الإنسان، والحضارات، فقد جعل الله عز وجل هذه السَّمَوَات والأرض مسخَّرة للإنسان، وجعل قوانينها التي تكفل تسخيرها للإنسان قابلة لأن تستكشف، فتعرف وتكشف ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣]، وانظر لجمال ختم الآيتين بقوله:

(١) التيجان في ملوك حمير (ص: ٣٤١).

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ ليتمَّ التَّفكُّر فيها، فتستكشف سُنَنها الإجرائيَّة، وقوانينها الكلِّيَّة التي تعمل وَفْقَها، وعلاقاتها ببعضها.

إنه أمرٌ رائعٌ وجميلٌ ويشكِّل إحدى العلامات الفارقة التي تعكس تميُّز الإنسان بالعلم الأساسي (أسماء كلِّ شيء)، واستعداده لاكتساب المعرفة المتراكمة المبنيَّة على التَّفكُّر فيها ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].. والعقلاء يتخذونها علامة واضحة تهديهم إلى معرفة خالقهم العليم اللَّطيف الخبير؛ إذ العالَـم لم يُسَمَّ عالَـمًا في العربية إلا لأنه علامة على وجود خالقه.

ستجد الاستكشاف في السُّنَن الكونيَّة مدهشًا يقودك إلى القوانين الفيزيائيَّة، والكيميائيَّة والحياتيَّة.. واسمع إلى الله ﷻ كيف يلفت الأنظار لاستكشاف الكون الواسع للاستفادة منه، وتسخيره للنفع الإنساني، فيقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

«من هنا فإن أوجب ما يجب على المسلمين أن يفهموا أولًا سُنَن الله ﷻ في الحياة والأحياء، وأن يتعاملوا معها بعد ذلك على هذا الأساس، فإن أكثر المسلمين اليوم لا ينقصهم إخلاص

ولا ينقصهم إيمان بقدر ما ينقصهم من فَهْمٍ واعٍ لقضايا الدِّين وتصوُّر معطياته ...إن العلم بالسُّنَن والتَّعرُّف عليها أوَّلُ درجة من درجات حسن التعامل معها»[1].

أما السُّنَن الشَّرعيَّة فإنه يتمُّ إعمال الفكر وبلوغ أقصى الاجتهاد للوصول إلى معرفتها، ويتمُّ ذلك بصورةٍ مباشرةٍ عند تدبُّر المصدر المعرفيِّ الأوَّل للبشريَّة، وهو القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة، ومثل ذلك السُّنَن الاجتماعيَّة، كما يتمُّ معرفتها أيضًا من خلال التَّجارب الإنسانيَّة التَّاريخيَّة، وقد تناولنا ذلك بتوسُّع عند كلامنا عن وسائل معرفة السُّنَن الإلهيَّة.

الخاصِّيَّة السَّادسة: ظهور الاعتبار والاستبصار بها؛ اجتنابًا للمَثُلات، وبناءً للحياة:

القرآن الكريم.. يا لَعظَمته! إنه الكتاب الذي يقدِّم الحماية للبشريَّة؛ إنه صادرٌ عن الرَّحمة الإلهيَّة؛ فكيف لا يكون كذلك؟

فانظر كيف يبيِّن الله -تعالى ذكره- سخافةَ عقول الذين يصرُّون على أن يثبت لهم النَّبيُّ ﷺ أن القرآن حقٌّ، ولكن من خلال إنزال العقوبة عليهم، فما فائدة البيان عندئذٍ؟ لا يؤتمنون على حياتهم فكيف يؤتمنون على البشريَّة؟

ويحدِّث الله ﷻ عن عقولهم الغافلة؛ إذ ماذا يظنُّون لو وقع عليهم العذاب، فلم يستطيعوا عندها العودة، ولا الاعتذار، ولا الرُّجوع للتَّوبة والاستغفار ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٤٨ - ٥٠].

(١) مفهوم السنن الربانية (ص: ١٣٠).

لا تستطيع أن تردَّ أنفاسك حين يحبسها جمال الوصف القرآنيِّ للدَّخائل النَّفسيَّة لكلِّ إنسان؛ فانظر كيف أجمل الله ﷻ التَّحذير من هذا التَّفكير المعوجِّ باستعجال وقوع العقوبة باعتبارها دليلًا على أنَّ القرآن حقٌّ.

وخذ آية الرَّعد العجيبة في حكاية عقولهم المعاندة المستعجلة بالشَّرِّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ [الرعد: ٦].

يطالبك المجرمون، وتُلِحُّ عليك قوى الاستكبار المحلِّيَّة والعالميَّة بإنزال العذاب عليهم؛ لتظهر صدقك أمام العالم، فيستعجلونك بالسَّيِّئة قبل الحسنة، ويقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ويشمخون بأنوفهم ليظهروا أنهم واثقون من أنفسهم فيقولون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٢]، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦].

المَثُلات طرائق للاعتبار، ومراكز للاستبصار:

وآية الرَّعد تبدأ بقوله -تعالى عزُّه-: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ لتكون عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾ [الرعد: ٥]؛ «لِأَنَّ كِلْتَا الْجُمْلَتَيْنِ حِكَايَةٌ لِغَرِيبِ أَحْوَالِهِمْ فِي المكَابَرَةِ، وَالْعِنَادِ، وَالِاسْتِخْفَافِ بِالْوَعِيدِ، فَابْتَدَأَ بِذِكْرِ تَكْذِيبِهِمْ بِوَعِيدِ الْآخِرَةِ لِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ تَكْذِيبَهُمْ بِوَعِيدِ الدُّنيا؛ لِتَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ، وَفِي

الِاسْتِخْفَافِ بِوَعِيدِ نُزُولِ الْعَذَابِ وَعَدِّهِمْ إِيَّاهُ مُسْتَحِيلًا فِي حَالِ أَنَّهُمْ شَاهَدُوا آثَارَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِالْأُمَمِ قَبْلَهُمْ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِذُهُولِهِمْ عَنْ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى»[١].

يا لهؤلاء المساكين المستكبرين! كيف جمعوا الجهل، والسذاجة، والكبر في الوقت ذاته! ألا يعلمون ما حَلَّ بمن خلا قبلهم من الأمم المجرمة من (**المثلات**)، **وهي العقوبات المُنكِّلات**، كما قال ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «المثُلَةُ: الْعُقُوبَةُ المبَيِّنَةُ في المعَاقَبِ شَيْئًا، وَهُوَ تَغْيِيرٌ تَبْقَى الصُّورة مَعَهُ قَبِيحَةً»، والواحدة منها: (مَثُلَة) بفتح الميم وضم الثاء، ثم تجمع (مَثُلات)، كما واحدة "الصَّدُقَات" "صَدُقَة"، ثم تجمع "صَدُقَات"، وذكر أن تميمًا من بين العرب تضم الميم والثاء جميعًا من (المُثُلات))»[٢]، وقَالَ الْوَاحِدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَصْلُ هَذَا الْحَرْفِ مِنَ المِثْلِ الَّذِي هُوَ الشَّبَهُ، وَلما كَانَ الْأَصْلُ أَنْ يَكُونَ الْعِقَابُ مُشَابِهًا لِلمعَاقَبِ، وَمُمَاثِلًا لَهُ، لَا جَرَمَ سُمِّيَ بِهَذَا الِاسْمِ»[٣].

وكما أنَّهم لا ينظرون في آفاق الكون، وآيات الله عَزَّ وَجَلَّ المبثوثة في السَّماء والأرض، فَهُمْ لا ينظرون إلى مصارع الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ، فأصابهم، وتركهم مُثلة يعتبر بها من بعدهم: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ فَهُمْ في غفلة حتى عن مصائر أسلافهم من بني البشر، وقد كان فيها مَثَلٌ لمن يعتبر.

ولا تتركك الآية حائرًا؛ إذ يجيب الله جَلَّ جَلَالُهُ عن هذا الاستعجال فيقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، **فالله العليُّ العظيم يغفر للنَّاس ظلمهم، لكنَّه شديد العقاب لمن يأبون إلا الإصرار على الإجرام، ولكن العقوبة المنكِّلة إنما تأتي في وقتٍ**

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٩١).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٣٥٠)، تفسير الرازي (١٩/ ١١).

(٣) تفسير الرازي (١٩/ ١٢).

محدَّد لا يتغيَّر ولا يُخْلَف، وهذا الأجل المسمَّى عند الله ﷻ، ولن يأتي مخلوق ليفرضه على ربِّه ﷻ، ويوضِّح الله ﷻ ذلك فيقول: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: ٢]، **وذلك لتكون المثلات طرائق للاعتبار، ومراكز للاستبصار.**

فهذه إحدى السُّنَن الإلهيَّة الحاكمة للمنظومة الكونيَّة:

نزول العذاب على الظَّالمين مرهونٌ بأمرين: حِلم الله ﷻ وعفوه، والأجل المسمَّى، ولا يتقيَّد باستعجال المستعجلين من المؤمنين، وسائر العالمين، ولا باستهزاء المجرمين:

فأما عفو الله ﷻ وحلمه، فاسمع إلى القرآن المجيد يقرِّر ذلك بصورٍ متعدِّدة، حيث يقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٦﴾ [الرعد: ٦]، ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٧].

فإن سألت: ما الحكمة في تقديم المغفرة على العقاب في الآيات السَّابقة؟

الجواب: السِّياق في هذه الآيات يقدِّم «مغفرة الله ﷻ على عقابه، في مقابل تعجُّل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية؛ ليبدو الفارق الضَّخم الهائل بين الخير الذي يريده الله ﷻ لهم، والشَّرِّ الذي يريدونه لأنفسهم، ومن ورائه يظهر انطماس البصيرة، وعمى القلب، والانتكاس الذي يستحقُّ درك النَّار».

وكما أنَّ هذه الآيات تبيِّن سبب تأخير العذاب، فهي تكشف النَّفسيَّة المريضة لهؤلاء المستهزئين؛ إذ سببُ استهزائهم تأخُّر العذاب عنهم فيما يظنُّون، ويظنُّ غيرهم.. عندها يلوون أشداقهم، ويرفعون عقائرهم ظانِّين التَّأخير عجزًا من المتوعِّد لهم ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨﴾ [هود: ٨]، والمراد بالعذاب هنا عَذَاب الدُّنيا وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّأْخِيرَ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾ [الدُّخان: ١٥]، أَيْ: عَذَابِ الدُّنيا، وَهُوَ الْجُوعُ الَّذِي أُصِيبَ بِهِ قُرَيْشٌ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يُطْعِمُهُمْ مِنْ جُوعٍ(١).

وأما الأجل المسمَّى فهو عنده لا يجلِّيه لوقته إلا هو جلَّ ثناؤه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾ [النحل: ٦١]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ۝٤٥﴾ [فاطر: ٤٥]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾ [الكهف: ٥٨، ٥٩].

الخاصِّيَّة السابعة: التَّوازن والاتِّساق والتَّقابل المتكامل:

لقد بلغ التَّوازن، والاتساق، والتَّكامل في السُّنَن الكونيَّة حدَّ الإعجاز في الوضوح، فاضرب لهم مثلًا منه في قول الله تعالى، وهو يقرِّر عموم هذه السُّنَّة الكونيَّة: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾ [الحجر: ١٩]، وهذا التَّوزان هو الذي يقيم المصالح المختلفة للبشريَّة، وبقية المخلوقات، ويوضِّح ذلك الزَّمخشريُّ رحمه الله فيقول: «وُزِنَ بميزان الحكمة، وقُدِّرَ بمقدارٍ تقتضيه، لا يصلح فيه زيادةٌ ولا نقصان، أو له وزنٌ وقدرٌ في أبواب النِّعمة والمنفعة»(٢).

وهذا التَّوازن قائم على القدرة المطلقة، والعلم الكامل ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [الأنعام: ١٠١]، والعلم، والملك، والقدرة صفاتٌ أنتجن التَّقدير المناسب ﴿ٱلَّذِى

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٩١).

(٢) الكشاف (٢/ ٥٣٧).

لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ [الفرقان: ٢].

والتَّوازن الكونيُّ يعتمد على التَّقدير الإلهيِّ الذي لا يمكن لأيِّ مخلوق أن يصل إلى ربعه.. «فالموجودات بأَسْرِها كعسكرٍ واحدٍ، له مَلِكٌ واحدٌ، وسلطانٌ واحدٌ، يحفظ بعضه ببعضٍ، ويُنَظِّمُ مصالحَ بعضِه ببعضٍ، ويسدُّ خلل بعضه ببعض، فيمدُّ هذا بهذا، ويُقَوِّي هذا بهذا، وينقص من هذا فيزيده في الآخر، يولج اللَّيل في النَّهار، ويولج النَّهار في اللَّيل، ويُخرج الحيَّ من الميِّت، ويخرج الميِّت من الحيِّ، ويبيد هذا فينشئ مكانه من جنسه ما يقوم مقامه، ويَسُدُّ مسدَّه، فيشهد حدوث الثَّاني أن الذي أحدثه وأوجده هو الذي أحدث الأوَّل لا غيره، وأن حكمَتَه لم تتغيَّر، وعلمه لم يَنقص، وقدرتَه لم تَضعُف، وأنه لا يتغيَّر بتغيير ما يُغَيَّر منها، ولا يضمحلُّ باضمحلاله، ولا يتلاشى بتلاشيه، بل هو الحيُّ القيُّوم العزيز الحكيم»[1]، وانظر للبشر يقفون حائرين أمام الآيات الباهرات التي يقول الله جل جلاله عن بعضها: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ٢٧ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٨﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٨].

التَّوازن الكونيُّ أساس للتَّوازن الشَّرعيِّ:

وبناءً على التَّوازن في السُّنَن الطَّبيعيَّة كان التَّوازن في السُّنَن الشَّرعيَّة، فالتَّوازن الشَّرعيُّ أساسه التَّوازن الكونيُّ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]، والتَّوازن المحكم في السُّنَن الكونيَّة والشَّرعيَّة يجعلنا نستنبط خاصِّيةً أخرى من خواصِّ السُّنَن الإلهيَّة، هي خاصِّية التقابل المتكامل بين

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٣٢).

السُّنَن، فـ«الطَّبيعة البشريَّة مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ، وَذَلِكَ كَامِنٌ فِيهَا كُمُونَ النَّارِ في الزِّنَادِ، فَخُلِقَ الشَّيطان مُسْتَخْرِجًا لما في طَبَائِعِ أَهْلِ الشَّرِّ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، وَأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ تَسْتَخْرِجُ مَا في طَبِيعَةِ أَهْلِ الْخَيْرِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، فَاسْتَخْرَجَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ مَا في قُوَى هَؤُلَاءِ مِنَ الْخَيْرِ الْكَامِنِ فِيهَا، لِيَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ آثَارُهُ»[(١)]، ويبين الله ﷻ اتصال التوازن في السُّنَن الكونيَّة مع السُّنَن الشَّرعيَّة فيما رواه أبو موسى الاشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عليه السلام مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ»[(٢)].

ومن أهمِّ أساسيَّات التَّوازن: أساسيَّة البدء والإعادة ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٣٤﴾ [يونس: ٣٤]، فالله ﷻ هو الملك القدير العليم الحكيم المهيمن، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾ [البروج: ١٣]... والبدء والإعادة يحقِّقان دورة قدريَّة ثابتة تعطي للوجود وحركته الكونيَّة إطارًا ومحورًا ثابتًا[(٣)].

ولنأخذ مثالًا يبيِّن لنا ضرورة البحث الحكيم عن التَّوازن لينتج السَّداد في الاختيار، وتقديم ما حقُّه التَّقديم في كلِّ موطن، وهذا المثال يبيِّنُ أنموذجًا للتَّوازن المطلوب في السُّنَن الشَّرعيَّة، والاجتماعيَّة:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ١٩٢).

(٢) الترمذي (٢٩٥٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصحَّحه الألباني.

(٣) راجع قدر الدعوة لرفاعي سرور (ص: ٣٩).

مثال تطبيقيٌّ:

سُنَّة التَّوازن الحكيم في الرَّحمة والعقوبة أساس الفلاح والانتصار الفرديِّ والجماعيِّ:

فأهمُّ الأهداف المقاصديَّة الكلِّيَّة للشَّريعة الإسلاميَّة الرَّحمة بالعالم، والرَّحمة للعالم، ويكفي في ذلك بيان سورة الفاتحة التي يكرِّرها المسلم في اليوم واللَّيلة سبع عشرة مرة في الفريضة بَلْهَ النافلة، **ولكن هذا المقصد يقوِّيه، ويحقِّق أهدافه إيقاع العقوبة المناسبة في الوقت المناسب**، ولا يمكن أن يقوِّي مفهوم الرَّحمة أن يتمَّ إلغاء العقوبة بالكلِّيَّة خوفًا من الوسم بالسَّادية، أو الإفراط في القسوة، فهذا لا يقوله عاقل، فقوانين العقوبات أحد أهمِّ أركان النِّظام الحياتيِّ في الواقع البشريِّ، وفي قِصَّة أسرى بدر بحث المسلمون عن نقطة التَّوازن بين مقاصد متعدِّدة:

أهمُّها: مقصد الرَّحمة، ومقصد تأليف القلوب، ومقصد البحث عن مصادر ماليَّة تقوِّي الاقتصاد النَّاشئ للمجتمع المدنيِّ، ومقصد إبراز المُثُل الإسلاميَّة المتقدِّمة في تقديم العفو، والصَّفح والحلم.

> **ويقابل هذه المقاصد مقصد إبراز القوَّة الرَّادعة التي تؤدِّي إلى زجر قوى الإجرام وخفافيش الظَّلام الغادرة، ومقصد ردع قوى الاستبداد التي تفرض الكفر والفسق في العالم وتجبر البشريَّة عليه**

ويحكي ابن عبَّاس رضي الله عنهما ذلك فيقول: فَلما أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاءِ الأُسَارَى؟». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: يَا نبيَّ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ عز وجل أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو

بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا، فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ، فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلانٍ -نَسِيبًا لِعُمَرَ- فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، [حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين]، فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ[1].

وبيَّن النَّبيُّ ﷺ أن اختلاف الصَّحابيَّينِ الكبيرين يعود لمقاصد معتبرة دارت أفعال الأنبياء حولها، ففي رواية: فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ اللهَ لَيُلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ، حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللهَ لَيَشُدُّ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ، حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [نوح: ٢٦]، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام، قال: رب ﴿ٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. **عَالَةٌ، فَلَا يَنْفَلِتَنَّ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ، أَوْ ضَرْبَةِ عُنُقٍ**»[2].

فَلما كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أخبرني مِنْ أيِّ شيء تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لم أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «أَبْكِي للذي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»، -شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ- وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ:

---

(١) مسلم (١٧٦٣)، وما بين قوسين عند أحمد (٢٠٨)، وقال الأرناؤوط: «إسناده حسن، رجاله رجال الصحيح».

(٢) أحمد (٣٦٣٢)، وقال الأرناؤوط: «إسناده ضعيف؛ لانقطاعه».

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]، فَأَحَلَّ اللهُ ﷻ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ(١).

فظهر أنَّ رَأْيَ عُمَرَ ﷺ ومن هوي رأيه كان الأصوب، إلا أنَّ رَأْيَ الصِّدِّيقِ ﷺ لم يكن خطأ، بل كان يمثِّل الصَّواب في مقابل الأصوب، للمقاصد التي راعاها الطَّرفان، فإن قال قائل: رأي أبي بكر ﷺ وافق فيه المبدأ الحاكم للواقع الكونيِّ، وهو مبدأ: (الرَّحمة الَّتِي سَبَقَتِ الْغَضَبَ)، فهو الصَّواب.. عندها يجاب عنه: إِنَّ سَبْقَ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى لِغَضَبِهِ، لَا يَقْتَضِي أَنْ تُرَجَّحَ الرَّحمة عَلَى الْغَضَبِ في كلِّ موطن، بل إن الرَّحمة تقتضي إعمال الغضب في مواطن، فالله أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ في كُلِّ شَيْءٍ، وهل الرَّحمة البشريَّة مثلًا منعت إيجاد قوانين حازمة في أنظمة العقوبات تتعلَّق بحفظ النِّظام العامِّ؟ وَمِنَ المعْقُولِ المجَرَّبِ أَنَّ وَضْعَ الرَّحمة في غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَغَيْرِ وَقْتِهَا المناسِبِ لَهَا، ضَارٌّ، كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المتَنَبِّي:

وَمَن يَجعَلِ الضِّرغامَ بازًا لِصَيدِهِ ... تَصَيَّدَهُ الضِّرغامُ فيما تَصَيَّدا

رَأيتُكَ محْضَ الحِلمِ في محْضِ قُدرَةٍ ... وَلوْ شئتَ كانَ الحِلمُ منكَ المهنَّدَا

وَما قَتَلَ الأحرارَ كالعَفوِ عَنهُمُ ... وَمَنْ لكَ بالحُرِّ الذي يحفَظُ اليَدَا

إذا أنتَ أكْرَمتَ الكَريمَ مَلَكْتَهُ ... وَإنْ أنتَ أكْرَمتَ اللئيمَ تَمرّدَا

وَوَضْعُ النَّدى في موْضعِ السَّيفِ بالعلا ... مُضِرٌّ كوضْعِ السَّيفِ في موضعِ النَّدى

وَلكنْ تَفُوقُ النَّاسَ رَأيًا وَحِكمةً ... كما فُقْتَهمْ حالًا وَنَفسًا وَمحْتِدَا

يَدِقُّ على الأفكارِ ما أنْتَ فاعِلٌ ... فيُترَكُ ما يخفَى وَيُؤخَذُ ما بَدَا(٢)

---

(١) مسلم (١٧٦٣)، أحمد (٢٢١).

(٢) ديوان المتنبي (ص: ٣٧٢)، وفيه: (وَمَن يَجعَلِ الضِرغامَ للصيد بازَه) بدلًا من (وَمَن يَجعَلِ الضِرغامَ بازًا لِصَيدِهِ).

رشيد رضا رحمه الله والتَّوازن الحكيم بين السُّنَن الإلهيَّة:

وبعد مناقشة رشيد رضا رحمه الله لما سبق، يقرِّر حقيقة خطيرة لم يرزق كثير من المسلمين فيها السَّداد في البحث عن التَّقابل المتوازن الحكيم بين السُّنَن الإلهيَّة، فيقول: «وَمِنَ المثُلَاتِ وَالْعِبَرِ فِي هَذَا: أَنَّ المسْلمينَ أَبَاحُوا فِي حَالِ عِزَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ لِأَهْلِ الملَلِ الْأُخْرَى حُرِّيَّةً وَاسِعَةً فِي دِينِهِمْ، وَمُعَامَلَاتِهِمْ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ، عَادَتْ عَلَى المسْلمينَ وَدُوَلِهِمْ بِأَشَدِّ المضَارِّ وَالمصَائِبِ فِي طَوْرِ ضَعْفِهِمْ، كَامْتِيَازَاتِ الْكَنَائِسِ، وَرُؤَسَاءِ الْأَدْيَانِ، الَّتِي جَعَلَتْ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ذَاتَ حُكُومَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ فِي دَاخِلِ الْحُكُومَةِ الإسلاميَّة، وَمِنْ ذَلِكَ: مَا يُسَمُّونَهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِالِامْتِيَازَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فَضْلًا وَإِحْسَانًا مِنْ مُلُوكِ المسْلمينَ، فَصَارَتِ امْتِيَازَاتٍ عَلَيْهِمْ مُذِلَّةً لَهُمْ، مُفَضِّلَةً لِلْأَجْنَبِيِّ عَلَيْهِمْ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ، حَتَّى إِنَّ الصُّعْلُوكَ مِنْ أُولَئِكَ الْأَجَانِبِ صَارَ أَعَزَّ فِيهَا مِنْ أَكَابِرِ أُمَرَائِهِمْ، وَعُلمائِهِمْ»[1].

ويرسم التَّوازنَ الشَّرعيَّ وَفْقَ صورةٍ خلَّابةٍ الشاعر في قوله:

لي وإنْ كنتُ كقَطْرِ الطَّلِّ صَافِي ... قَصْفَةُ الرَّعدِ وإعْصَارُ السَّوافي

أتحاشى الشَّرَّ جهدي فإذا ... لجَّ في عَسْفي تحدَّاه اعتسافي

خُلُقٌ وَرَّثَنيهِ أحمد ... فَجَرَى مِلءَ دِمائي وشِغافي

لم يُغَيِّرْهُ على طُولِ المدى ... بَطْشُ جبَّارٍ ولا كَيدُ ضِعافِ[2]

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٨٥).

(٢) هذه الأبيات للشاعر محمد بن علي السنوسي. الأعمال الكاملة له (ص: ٣٢٠)، نقلًا من مقال للدكتور عبد الباسط أحمد علي حمودة.

الخاصِّيَّة الثامنة: التداخل والاشتراك:

فتجد سُنَن النَّصر مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بسُنَن التَّغيير، وترى سُنَن الابتلاء مرتبطةً بسُنَن صنع العاقبة، واضرب لذلك مثلًا الصَّحابة ﷺ عندما تساءلوا عن سرِّ الهزيمة في أُحُدٍ، مع أنَّ كونهم على الحقِّ الذي يقتضي الانتصار، فقالوا: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾، فيجيبهم الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وينبِّهُهم بذلك إلى سُنَّة أخرى ربما قضت على استحقاق المؤمنين للانتصار، وهي قوانين التَّنازع، والعصيان، وعدم التزام الطَّاعة للنِّظام المتَّفق عليه، وهذه كلُّها تؤدِّي إلى حلول سُنَّة الفشل، ثم هناك سُنَّة الابتلاء، وفصَّل الله ﷻ لهم ذلك في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

التَّداخل والاشتراك بين السُّنَن يجعل دراساتها وتنزيلها على الواقع المعاصر مفتقرةً إلى بصرٍ مُرْهَفٍ وبصيرةٍ متَّقدةٍ بالعلم والإيمان، واجتماع للآراء مع التَّجرُّد والتَّداول للسُّلطة، وخاصَّة مع تقارب الزَّمان وانتشار الفتن التي تزيغ العقول وتحيِّرُ الأذهان وترقِّقُ الإيمان.

وهنا تدرك لماذا يضمحلُّ التَّفكير الواعي مع اشتداد فتن آخر الزمان، ولماذا ترى نقع الغبار المنبعث من عجيج الأصوات الإعلاميَّة المنطلقة من الميادين المختلفة.. يحسب المستمع أن بعضها على شيء.. ثم يحقِّق أنَّها كالسَّراب، أو كإدراك الطُّيور والدَّوابِّ، بل هم -في تحليلاتهم- أضلُّ سبيلًا.

النَّبيُّ ﷺ يصف فتن آخر الزَّمان بدقَّةٍ عجيبة:

ويصوِّر النَّبيُّ ﷺ ذلك بدقَّةٍ عميقة، ويتلقَّاه الصَّحابة ﷺ مدركين خطورة المضمون، ينقلونه بأمانة للأجيال القادمة، الذين قد يكونون ضحايا لصناعة الزَّيف في الأمَّة، فقد روى أَسِيدُ بن المُتَشَمِّسِ رَحِمَهُ اللَّه قال: أقبلنا مع أبي موسى ﷺ من أصبهان، فتعجَّلنا وجاءت عُقَيلَةُ، فقال أبو موسى ﷺ: ألا فتى ينزل كَنَّتَهُ؟ قال: يعنى أَمَةَ الأشعري. فقلت: بلى، فأدنيتها من شجرة، فأنزلتها، ثم جئت فقعدت مع القوم، فقال: ألا أحدثكم حديثًا كان رسول الله ﷺ يحدِّثناه؟ فقلنا: بلى، يرحمك الله. قال: كان رسول الله ﷺ يحدِّثنا أنَّ بين يدي السَّاعة الهَرْج. قيل: وما الهَرْج؟ قال: «الكذب، والقتل» قالوا: أكثر ممَّا نَقْتُلُ الآن؟ قال: إنه ليس بقتلكم الكفَّار، ولكنَّه قتلُ بعضكم بعضًا: حتى يَقْتُلَ الرَّجل جارَه، ويَقْتُلَ أخاه، ويَقْتُلَ عمَّه، ويَقْتُلَ ابنَ عمِّه. قالوا: سبحان الله ومعنا عقولنا؟ قال: «لا، إلَّا أنَّه يُنْزَعُ عقولُ أهل ذاك الزَّمان، حتى يحسب أحدكم أنَّه على شيء وليس على شيء». والذي نفس محمَّد بيده لقد خشيت أن تدركني وإيَّاكم تلك الأمور، وما أجد لي ولكم منها مخرجًا فيما عهد إلينا نبيُّنا ﷺ، إلا أن نخرج منها كما دخلناها، لم نُحْدِثْ فيها شيئًا [١]، ويُستأنس هنا بما جاء عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ عَلَامَاتِ الْبَلَاءِ، وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تَعْزُبَ الْعُقُولُ، وَتَنْقُصَ الْأَحْلَامُ، وَيَكْثُرَ الْهَمُّ، وَتُرْفَعَ عَلَامَاتُ الْحَقِّ، وَيَظْهَرَ الظُّلْمُ»[٢].

---

(١) أحمد (١٩٦٣٦)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أسيد بن المتشمِّس فمن رجال ابن ماجه، وهو ثقة».

(٢) الفتن لنعيم بن حماد (١/ ٦٦) وهو مرسل، وأخرجه الطبراني مرفوعًا عن كثير بن مرة عن ابن عمر. المعجم الكبير (١٤١١١)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني، وفيه عافية بن أيوب؛ وهو ضعيف». مجمع الزوائد (٧/ ٣٢٩).

الأسس القيمية الكبرى لجريان السُّنن الاجتماعية والكونية

الأساس الأول (السنة الغائية الأولى)

الحق

فكلُّ ما يجري من سُنَن كونيَّة واجتماعيَّة محكومة بالسُّنَن الشَّرعيَّة إنما هو قائم على الحقِّ

الأساس الثاني

العدل

فقد جمع بين الحقِّ في السُّنَن الكونيَّة، والعدل في السُّنَن الشَّرعيَّة الاجتماعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المائدة: 50]

الأساس الثالث

الإحسان

فحكم الله عز وجل الشَّرعيُّ أحسن الأحكام ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]

الأساس الرابع

الرحمة

فالانتظام الكونيُّ المدهش المسخَّر لخير الإنسان دالٌّ على عموم الرَّحمة الإلهيَّة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]

الأساس الخامس

الخير

الخير أحد أهمِّ الأسس التي قامت عليها السَّمَوَات والأرض، والله عز وجل خالق الخير، والشَّرُّ في بعض مخلوقاته، فليس الشَّرُّ في أصل الخلق والأفعال الإلهيَّة.

عبد السلام مقبل المجيدي

الفصل الثامن

الأسس القيمية الكبرى لجريان السُّنَن الاجتماعيَّة والكونيَّة

وهذه الأسس يمكن أن نسميها: السُّنَن الغائيَّة، أو السُّنَن الحاكمة للسُّنَن الجارية، وتسميتنا إيَّاها سُنَنًا باعتبار اطِّرادها، وثباتها، ومركزيَّة حضورها، وتأثيرها في حركة الكون، وارتباط نواميسه بها، وأهمُّ هذه السُّنَن الغائيَّة:

الأساس الأول (السُّنَّة الغائيَّة الأولى): الحقُّ:

فكلُّ ما يجري من سُنَن كونيَّة واجتماعيَّة محكومة بالسُّنَن الشَّرعيَّة، إنما هو قائم على الحقِّ، ويؤدِّي إلى إقامة الحقِّ، مهما خالف البشر هذه الإرادة الإلهيَّة في إحقاق الحقِّ، ويقرِّر الله ﷻ ذلك بصيغةٍ واضحةٍ:

ففي السُّنَن الكونيَّة يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٦ – ١٨]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وعندما يقول ربنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فإن هذا الاستفهام يدلُّ على أنه لا يليق بالحقِّ أن يخلق الخلق عبثًا.

كما تجد تقرير ذلك في السُّنَن الشَّرعيَّة، حيث يبيِّن الله ﷻ أنَّ الكتاب الذي يحكم حركة العالم إنما يحكمها ويديرها بالحقِّ، وإقامة للحقِّ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

الحقُّ أساس وجود الخلق، وممَّا ينتمي للحقِّ أن يُعرف الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، وأن يتمَّ التَّقيُّد بالأمر والنَّهي وَفْقَ شرائعه، وأن يُدبَّر الأمر ويُبرمَ القضاء، وَفْقَ الحقِّ.

وبوَّب البخاريُّ رحمه الله بابًا: (وهو الذي خلق السَّمَوَات والأرض بالحقِّ)، ثم روى حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما «اللَّهمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَات وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أنت مَلِكُ السَّمَوَات وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَات وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهمَّ لَكَ أَسْلمتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المقدِّمُ، وَأَنْتَ المؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ»(١).

والفرق الواضح بين الرؤية الإسلاميَّة ورؤية العابثين من أهل الملل والدَّهريِّينَ، أنَّهم يعتقدون أن الكون يسير وَفْقَ منطق اللَّهو واللَّعب والعبث، لا وَفْقَ منطق الحقِّ.. من أجل ذلك قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، وبناء على ذلك؛ شرعوا لأنفسهم دينًا زعموه حقًّا، ثم أرادوا تحريف الحقِّ الذي عندنا(٢). وكم بات يشبههم الذي لا يعدون العُدَّة ليوم يلقون فيه ربَّهم عز وجل.

فإن كنت تريد هداية النَّاس إلى أساسٍ هو الحقُّ، فينبغي أن يكون ذلك أيضًا بحقٍّ.

---

(١) البخاري (٧٣٨٥).

(٢) يراجع كتاب القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى (ص: ١١، ١١٢).

اقتران سُنَّة النصر على الباغي بسُنَّة إيلاج الليل في النهار:

اقتران سُنَّة النصر على الباغي بسُنَّة إيلاج الليل في النهار

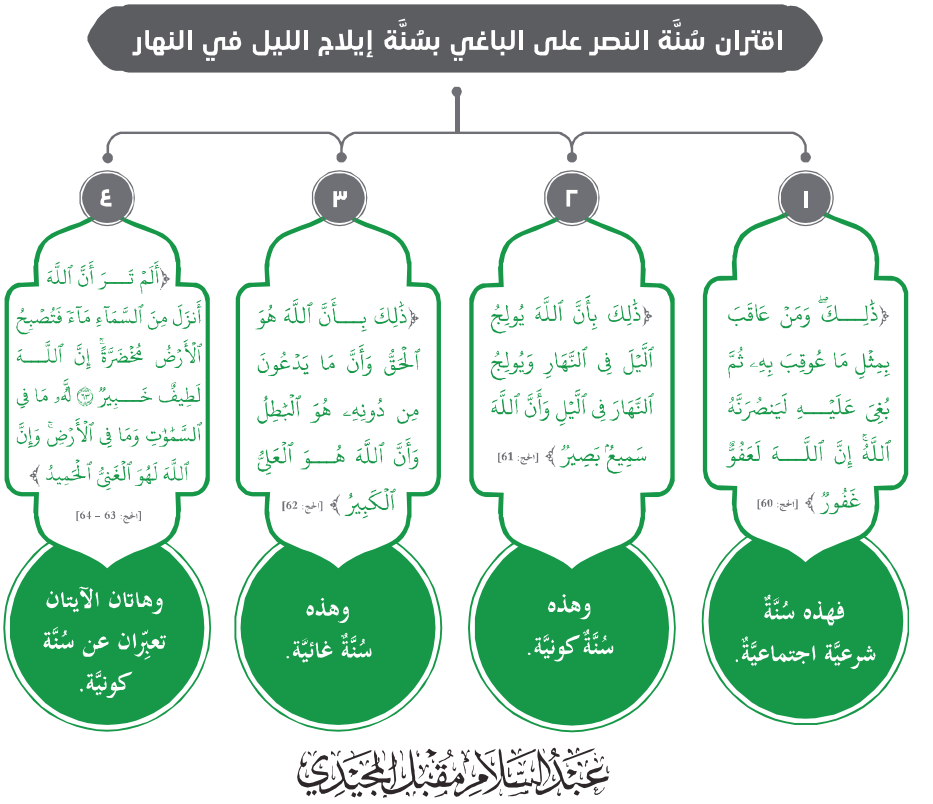

١
﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: 60]
فهذه سُنَّةٌ شرعيَّة اجتماعيَّة.

٢
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 61]
وهذه سُنَّةٌ كونيَّة.

٣
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62]
وهذه سُنَّةٌ غائيَّة.

٤
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: 63 – 64]
وهاتان الآيتان تعبِّران عن سُنَّة كونيَّة.

عبد السلام مقبل المجيدي

وتأمَّل ذلك في سُنَّة النَّصر على الباغي؛ فإنَّها سُنَّةٌ شرعيَّة من ناحية الفعل البشريِّ، كونيَّةٌ من ناحية الإرادة الإلهيَّة.

وقد قرنها الله ﷻ بسُنَّة إيلاج اللَّيل في النَّهار، وإقامة الحقِّ، وهنا سترى سُنَّةً اجتماعيَّةً شرعيَّةً اقترنت بسُنَّة كونيَّة، وبينهما سُنَّة غائيَّة، ثم أعقب ذلك بسُنَن كونيَّة أخرى، وذلك في سورة الحجِّ.. تأمَّل ذلك:

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج: ٦٠]، فهذه سُنَّةٌ شرعيَّة اجتماعيَّةٌ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٦١]، فهذه سُنَّةٌ كونيَّة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢]، فهذه سُنَّةٌ غائيَّة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: ٦٠ - ٦٤]، فالآيتان الأخيرتان تعبِّران عن سُنَّة كونيَّة.

والآن تأمَّل الباء في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ..﴾ لترى أنها «لِلسَّبَبِيَّةِ، أَيْ: لَا عَجَبَ فِي النَّصْرِ الْموْعُودِ بِهِ المسْلمونَ عَلَى الْكَافِرِينَ مَعَ قِلَّةِ المسْلمينَ، فَإِنَّ الْقَادِرَ عَلَى تَغْلِيبِ النَّهَارِ عَلَى اللَّيْلِ حِينًا بَعْدَ أَنْ كَانَ أَمْرُهُمَا عَلَى الْعَكْسِ حِينًا آخَرَ، قَادِرٌ عَلَى تَغْلِيبِ الضَّعِيفِ عَلَى الْقَوِيِّ، فَصَارَ حَاصِلُ المعْنَى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى نَصْرِهِمْ.

وَالْجَمْعُ بَيْنَ ذِكْرِ إِيلَاجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَإِيلَاجِ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ؛ لِلْإِيمَاءِ إِلَى تَقَلُّبِ أَحْوَالِ الزَّمَانِ، فَقَدْ يَصِيرُ المغْلُوبُ غَالِبًا، وَيَصِيرُ ذَلِكَ الْغَالِبُ مَغْلُوبًا، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى تَمَامِ الْقُدْرَةِ، بِحَيْثُ تَتَعَلَّقُ بِالْأَفْعَالِ المتَضَادَّةِ، وَلَا تَلْزَمُ طَرِيقَةً وَاحِدَةً، كَقُدْرَةِ الصُّنَّاعِ مِنَ الْبَشَرِ، وَفِيهِ إِدْمَاجُ التَّنْبِيهِ بِأَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي اسْتَبْطَأَهُ المشْرِكُونَ مَنُوطٌ بِحُلُولِ أَجَلِهِ، وَمَا الْأَجَلُ إِلَّا إِيلَاجُ لَيْلٍ فِي نَهَارٍ وَنَهَارٍ فِي لَيْلٍ.

وَفِي ذِكْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي هَذَا المقَامِ إِدْمَاجُ تَشْبِيهِ الْكُفْرِ بِاللَّيْلِ، وَالْإِسْلَامِ بِالنَّهَارِ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ ضَلَالَةُ اعْتِقَادٍ، فَصَاحِبُهُ مِثْلُ الَّذِي يَمْشِي فِي ظُلمةٍ، وَلِأَنَّ الْإِيمَانَ نُورٌ يَتَجَلَّى بِهِ الْحَقُّ

وَالِاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ، فَصَاحِبُهُ كَالَّذِي يَمْشِي فِي النَّهَارِ، فَفِي هَذَا إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْإِيلَاجَ الْمَقْصُودَ هُوَ ظُهُورُ النَّهَارِ بَعْدَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، أَيْ ظُهُورُ الدِّينِ الْحَقِّ بَعْدَ ظُلْمَةِ الْإِشْرَاكِ؛ وَلِذَلِكَ ابْتُدِئَ فِي الْآيَةِ بِإِيلَاجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ، أَيْ: دُخُولِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ تَحْتَ ضَوْءِ النَّهَارِ»(١).

انتصار الحقِّ والعدل سُنَّة لا تتخلَّف:

«والسِّياق يوجِّه النَّظر إلى تلك الظَّاهرة الكونيَّة المكرَّرة التي يمرُّ عليها النَّاس غافلين؛ ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة، وهي تطوي النَّهار من جانب وتسدل اللَّيل من جانب، وهي تطوي اللَّيل من جانبٍ وتنشر النَّهار من جانب، في دِقَّة عجيبةٍ لا تختلُّ، وفي اطِّرادٍ مدهشٍ لا يتخلَّف.. **وكذلك نصر الله ﷻ لمن يقع عليه البغي وهو يدفع عن نفسه العدوان.. إنه سُنَّة مطَّردة، كسُنَّة إيلاج اللَّيل في النَّهار وإيلاج النَّهار في اللَّيل، فكذلك يزوي الله ﷻ سلطان المتجبِّرين، وينشر سلطان العادلين. فهي سُنَّة كونيَّة كتلك السُّنَّة، يمرُّ عليها الناس غافلين**، كما يمرُّون على دلائل القدرة في صفحة الكون وهم لا يشعرون! ذلك مرتبط بأنَّ الله ﷻ هو الحقُّ، فالحقُّ هو المسيطر على نظام هذا الكون، وكلُّ ما دون الله ﷻ باطلٌ يختلُّ، ويتخلَّف ولا يطَّرِد أو يستقيم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

وذلك تعليل كاف، وضمان كاف لانتصار الحقِّ والعدل، وهزيمة الباطل والبغي، وهو كذلك ضمان لاطِّراد سُنَن الكون وثباتها، وعدم تخلخلها، أو تخلُّفها، ومن هذه السُّنَن: انتصار الحقِّ، وهزيمة البغي».

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٥).

ولا يفهم من كلام سيِّد رحمه الله أن دولة الباطل ساعة، ودولة الحقِّ إلى قيام السَّاعة.. هذا غير صحيح، بل دولة الحقِّ التي تدوم إنما تكون في الآخرة، أما في الدُّنيا فيحكم ذلك سُنَّة التَّداول والتَّدافع.

والتَّعليلُ لنصر مَنْ بُغيَ عليه على الباغي بإيلاج اللَّيل في النَّهار وإيلاج النَّهار في اللَّيل، يدلُّ على هذا التَّداول، كما أن البدء باللَّيل يدلُّ على قلَّة مُدَد بقاء الحقِّ في الدُّنيا، شأنَ الاختبار الدُّنيويِّ، فأراد الله عز وجل من ربط السُّنَّة الاجتماعيَّة بالسُّنَّة الكونيَّة أن يبيِّن أن مآل السُّنَّة الاجتماعيَّة إلى أن تكون سُنَّة كونيَّة بالنَّظر إلى التَّدبير الإلهيِّ، ولكنها تبغي من النَّاس كُفْأها.. فسُنَّة نصر المظلوم لا بدَّ أن تقع كوقوع إيلاج النَّهار في اللَّيل، ولكن السُّؤال الذي يطرح نفسه: من سيشرِّف نفسه ليكون أداة القدرة الإلهيَّة لتحقيق هذا النَّصر؟

فيأيها السَّالك على الدَّرب، المُمَسِّك بالحقِّ: إيَّاك ونوزاع الارتياب في وعد العزيز الغلَّاب؛ فإنما هي ظلمة تطردها أنوار، وليل يلاحقه نهار، وهزيمة يعقبها انتصار، فاقدمْ ولا تُحْجِمْ، وخذ في سبيل الحقِّ الأقوم.

أَسْمِعْ حُدَاءَكَ لِلْأُمَمْ ... مِنْ بَينِ آهاتِ الأَلَمْ
واحفِرْ بِحَدِّكَ في جِدَارِ ... الصَّمْتِ للقُدْسِ النَّغَمْ
أَشْعِلْ شُمُوعَ النَّصْرِ ... للأَجْيَالِ في عَالِي القِمَمْ
قُلْهَا نَعَمْ قُلْهَا نَعَمْ ... قُلْهَا أُخَيَّ بِأَلْفِ فَمْ
قُلْهَا يُرَدِّدُهَا وَرَاءَكَ ... أَلْفُ حُرٍّ في شَمَمْ
نَحْنُ الفِدَاءُ لأُمَّةِ ... التَّوحِيدِ بَلْ خيرُ الأُمَمْ
نحنُ الفِداءُ لِشِرْعَةٍ ... تَهْدِي الحَيَارَى في الخِضَمْ

وجُنُـــــــودُ ربِّ الكـــــــونِ لا ... نَرْضَــــى سِـــوَاهُ لنـــا حَكَـــمْ
قَـــدْ قَالَهَـــا مَـــنْ قَبْلَنَـــا ... أَهْـــلُ العَـــزَائِمِ والشِّـــيَمْ
دُوَلٌ هِـــيَ الأيـــامُ تَتْـــرَى ... دَأْبُهَـــا مُنْـــذُ القِـــدَمْ
مَـــنْ يَنْتَضِـــي فِيهَـــا الحُسَـــامَ ... بِسَـــاحَةِ الهَيْجَـــا حَسَـــمْ
ســـتعودُ خَيلُـــك قاذفـــاتٍ ... مِـــنْ حَوَافِرِهـــا الحِمَـــمْ
كَفْكِـــفْ دُمُوعَـــكَ وامتشِـــقْ ... أســـيافَ عَزْمِـــك والهِمَـــمْ
واقـــدحْ شِـــرارًا لا تَـــنَمْ ... أشـــعِلْ مصـــابيحَ الظُّلَـــمْ
أَهْـــرِقْ لِحُبِّـــكَ في الضَّـــريحِ ... فِـــداءَ قُرْبَـــانٍ وَدَمْ
لا لا تَقُـــلْ سَـــقَطَ العَلَـــمْ ... كُـــنْ أنـــتَ يـــا صـــاحِ العَلَـــمْ[١]

سُنَّة النَّصر على الباغي: سنةٌ شرعيَّةٌ من ناحية الفعل البشريِّ، كونيَّةٌ من ناحية الإرادة الإلهيَّة.

الأساس الثاني: العدل:

العدل مظهر عظيم من مظاهر الحقِّ.. ألا ترى ملك الملوك ﷻ يجمع بين الحقِّ في السُّنَن الكونيَّة، والعدل في السُّنَن الشَّرعيَّة الاجتماعيَّة، فيقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

(١) الأبيات لسعيد بن دحباج. ينظر: عتب القوافي (ص: ٣٢).

أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

والِاجْتِرَاحُ: الِاكْتِسَابُ، وَمِنْهُ الْجَوَارِحُ التي يتمُّ اكتساب الصَّيد بها، ومن ذلك قوله تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الْأَنْعَام: ٦٠]، وكلمة: ﴿أَمْ﴾ هنا تُبرز عدَّة معانٍ:

فالمعنى الأول: (أم) كَلِمةٌ وُضِعَتْ لِلِاسْتِفْهَامِ عَنْ شَيْءٍ حَالَ كَوْنِهِ مَعْطُوفًا عَلَى شَيْءٍ آخَرَ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ المعْطُوفُ مَذْكُورًا أَم مُضْمَرًا[1]، فيكون هذا الحرف في هذه الحالة مبيِّنًا لمعنى رائع، لا بدَّ من استنباطه ممَّا سبق ليتمَّ به مقارنة اللَّاحق لـ(أم) بالسَّابق المستنبط، فيكون المعنى: القرآن بصائر للنَّاس، وهدى، ورحمة لقوم يوقنون، أفيعلم العالم ذلك ليطبِّقوا مضمونه بعمل الصَّالحات، أم يحسبون أنَّا نجعل المجترحين للسَّيِّئات كالعاملين للصَّالحات؟!

والمعنى الثاني: (أم) حَرفٌ لِلْإِضْرَابِ الِانْتِقَالِيِّ، وَالِاسْتِفْهَامُ الَّذِي يَلْزَمُ تَقْدِيرُهُ بَعْدَ (أَمْ) اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، وَالتَّقْدِيرُ: بل أيحسب الذين اجترحوا السَّيِّئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصَّالحات في الحياة، وفي الممات[2]؟ وذلك مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السَّجْدَة: ١٨]، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الْقَلَم: ٣٥، ٣٦]، وَقَوْله ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٧/ ٦٧٦).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٥١).

وأما قوله تَعَالَى: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ فتحتمل معانيَ متعدِّدة، بناء على مبدأ عدم التَّسوية بين الذين يجترحون السَّيِّئات والذين آمنوا وعملوا الصَّالحات:

فالمعنى الأول: أَحَسِب المجترحون للسَّيِّئات أَنَّ حَيَاتَهُمْ كَحَيَاةِ المؤْمِنِينَ العاملين للصَّالحات سواء؟ أحسب المجترحون للسَّيِّئات أنَّ مماتهم مثل مَوْت العاملين للصَّالحات؟ كَلَّا، فَإِنَّ المجرمين يَعِيشُونَ مجرمين، وَيَمُوتُونَ مجرمين، والصَّالحون يحيون صالحين وَيَمُوتُونَ صالحين، فمجرد الاشتراك في الحياة لا تعني التَّساوي في الواقع، ومجرد الاشتراك في الموت لا يعني التَّساوي في المصير.

إن الصَّالحين يقدِّمون الخير للإنسانيَّة في الحياة، والمجترحين للسَّيِّئات يقدِّمون لها الهلاك والدَّمار.. فقد اختلفت حياة الفريقين ومصيرهم، فكما أنهم لـم يستووا في الحياة، فكذلك لا يستوون في الممات وما بعده، فقَوْله: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ مُسْتَأْنَفٌ عَلَى مَعْنَى أَنَّ مَحْيَا المسِيئِينَ وَمَمَاتَهُمْ سَوَاءٌ، فَكَذَلِكَ مَحْيَا المحْسِنِينَ وَمَمَاتُهُمْ، أَيْ: كُلٌّ يَمُوتُ عَلَى حَسَبِ مَا عَاشَ عَلَيْهِ، فهي بيانٌ بصورةٍ أخرى لقوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، فأدمجت هذه الجملة المباركة صنفين من النَّاس جعل الله ﷻ مَحْيَاهُمْ مِقْيَاسًا لِمَمَاتِهِمْ، أَيْ: حَالُهُمْ في الْآخِرَةِ مُخْتَلِفٌ، كَمَا هُوَ في الدُّنيا مُخْتَلِفٌ، فَالمؤْمِنُونَ يَحْيَوْنَ في الْإِقْبَالِ عَلَى رَبِّهِمْ، وَرَجَاءِ فَضْلِهِ، وَالْكَافِرُونَ يَعِيشُونَ مُعْرِضِينَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، آيِسِينَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، وَالتَّقْدِيرُ: حَالُ الْفَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفٌ في الْآخِرَةِ، كَمَا كَانَ مُخْتَلِفًا في الْحَيَاةِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى صَرَّحَ بِإِنْكَارِ تِلْكَ التَّسْوِيَةِ فَقَالَ: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

والمعنى الثاني: اشتراك الفريقين في الحياة مع علوِّ المجترحين للسَّيِّئات لا يعني الاشتراك في المصير، إذ يظهر فوز المؤمن في الموت وفيما بعده، فَإِنَّ حَالَ المؤْمِنِ ذكره الله ﷻ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]،

وَحَالُ المجرم ذكَرَهُ الله ﷻ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النَّحل: ٢٨]، وَأَمَّا في الْقِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ [عبس: ٣٨- ٤١].

المعنى الثالث: أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الجملة إِنْكَارًا أَنْ يَسْتَوُوا في الممَاتِ كَمَا اسْتَوَوْا في الْحَيَاةِ؛ فقد يستوي مَحْيَا الفريقين في الصِّحَّةِ، وَالرِّزْقِ، وَالْكِفَايَةِ، وكونهم استووا في الحياة، لا يعني أن يستووا في الممات، ويمكن إيضاح هذا المعنى وتعديله بأن يقال: زعم المجرم أن حياته تستوي مع موته، وكذلك زعم أن المؤمن يكون كذلك، فكما كان غنيًّا قويًّا ذا جاه، وسلطة، وقوَّة في الدُّنيا، فكذلك يكون بعد الموت، كما قال تعالى عن بعضهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم: ٧٧]، فبيَّن الله ﷻ أن ذلك لا يكون.

وَعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ بَاتَ لَيْلَةً يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَيَرْكَعُ، وَيَسْجُدُ، وَيَبْكِي إِلَى الصَّبَاحِ. وَرُوِيَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنِ الرَّبيع بن خثيم رحمه الله، وَعَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ رحمه الله: أَنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يُرَدِّدُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ يَقُولُ: لَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ أَنْتَ. يُخَاطِبُ نَفْسَهُ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تُسَمَّى: **مَبْكَاةَ الْعَابِدِينَ**(١).

وبعد هذه الآية يأتي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [الجاثية: ٢٢]؛ ليكون بمثابة الدَّليل عَلَى أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي مَنْ عَمِلَ السَّيِّئَاتِ مَعَ مَنْ عَمِلَ الصَّالحات في نَعِيمِ الْآخِرَةِ(٢)، «والمعْنَى أَنَّ المقْصُودَ مِنْ خَلْقِ هَذَا

---

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ٦٧٦)، التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٥١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١١٠).

الْعالـم إِظْهَارُ الْعَدْلِ وَالرَّحمة، وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا إِذَا حَصَلَ الْبَعْثُ وَالْقِيَامَةُ، وَحَصَلَ التَّفَاوُتُ فِي الدَّرَجَاتِ وَالدَّرَكَاتِ بَيْنَ الـمحِقِّينَ وَبَيْنَ الـمبْطِلِينَ»(١).

ولعلك تسأل: ما المناسبة والاتِّصال بين قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾، وبين الآيات التي قبلها، والتي تتحدَّث عن تفضيل بني إسرائيل على العالمين؟

الجواب: خذ هذا الـمعنى فاجعله زادك صباحك ومساءك، ثم التفت إلى هذا النَّبأ الـمدهش الذي يفاجئك في سورة الشَّريعة (الجاثية) الـمكِّيَّة.. ألا ترى أن الله ﷻ يذكر مجد بني إسرائيل وانحرافهم مباشرة قبل هاتين الآيتين، فيقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية:١٦-١٧]. تدخل هذه الآيات في صميم فَهْمِ السُّنَن الكونيَّة، والشَّرعيَّة، وواقعها الـمحيط بنا هذه الأيَّام.. فما علاقة بني إسرائيل بالواقع الـمؤلـم الذي كان يعيشه النَّبيُّ ﷺ في مكَّة، مع الرُّدود الغاضبة العنيفة الجاهليَّة التي ظهرت من الوثنيين؟

لقد أراد الله ﷻ أن يبيِّن الانحراف السَّيِّئ الذي وقع فيه الإسرائيليُّون، وترتَّب عليه فشو الشِّرك عند الوثنيين الذين يعيشون قريبًا منهم، وسبب ذلك نسيان مبدأ الحقِّ الذي قامت عليه السَّمَوَات والأرض؛ ولذا استباحوا الأمِّيِّينَ: دماءهم، وأموالهم، وأعراضهم، فمَقَتَهُم الله ﷻ، ويسطِّر لنا الإمام مسلم رحمه الله رواية تبيِّن ذلك بوضوح، **فَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الـمجَاشِعِيِّ** رضي الله عنه **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِى أَنْ أُعَلـمكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلـمنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ،**

---

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ٦٧٧)، وانظر: إعجاز النظم القرآني في اقتران السنن الاجتماعيَّة بالسُّنَن الكونيَّة (ص: ٢٧).

وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...»(١).

فلمَّا تسبب الإسرائيليُّون في هذا الانحراف المريع، أراد الله ﷻ أن يبيِّن حال الأمَّة المنقِذة، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩]، ثم بين قيامها على الحقِّ والعدل.

ومعنى آخر تلوح أنواره من بين ثنايا سياق ذات الآيات، وهو أن مجد بني إسرائيل الباذخ الذي أثبتته لهم الآيات ليس ضربة لازب، وإنما هو وصف مؤقَّت استحقَّه الإسرائيليُّون حين التزامهم وأخذهم بسبيل الحقِّ، فلما اجترحوا السَّيِّئات وتنكَّبوا مهيع الهدايات جرت فيهم السُّنَن، وأذن الله ﷻ بانتقال المجد والسُّؤدد للأمِّيِّين، وفي هذا مدحضة لكلِّ متمسِّك ومدَّع للتَّفضيل النَّسَبيِّ والسُّلاليِّ المطلق سواء أكان من بني إسرائيل، أو من هذه الأمَّة.

الأساس الثالث: الإحسان:

فحكم الله ﷻ الشَّرعيُّ أحسن الأحكام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصِّلت: ٣٣].

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

وحكمه القَدَريُّ الكونيُّ أحسن التَّقديرات ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨]، ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٣]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].

وأما قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٨]، فتشمل السُّنَن الكونيَّة والشَّرعيَّة.

وأنت إن تأملت تجد هذا الأساس (الإحسان) لا يتحقَّق بغير الأساس الذي قبله (العدل)، بل هو من لوازمه وأهمِّ مقوِّماته، فلا يُتَصَوَّر إحسان دونما عدل، ولذا قرن الله ﷻ بينهما فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقد رغَّب سبحانه في الإحسان بخاصَّته حينما قال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]، وإنَّ أمرًا يكون سببًا لحب الله سبحانه لجدير بأن يُحرص عليه، ويُتنافس فيه ويُبادر إليه(١).

الأساس الرابع: الرَّحمة:

حسبك لترى آلاء ذلك أن تتأمَّل في البسملة، أما ترى أنَّها مفتاح كلِّ سُوَر القرآن، ما عدا سورة التَّوبة؟.. أَوَلا ترى أن الصِّفتين المكرَّرتين في السُّورة المتكرِّرة سبع عشرة مرَّة في اليوم واللَّيلة (سورة الفاتحة) هما: الرَّحمن الرَّحيم؟

وأُشِيعَ أنَّ بعضَ المشكِّكين كان يقف على المجذوم، فيقول: أرحم الرَّاحمين يفعل مثل هذا؟ فيُرَدُّ عليه: بأن الانتظام الكونيَّ المدهش المسخَّر لخير الإنسان دالٌّ على عموم الرَّحمة

(١) الفوائد في اختصار المقاصد، العز بن عبد السلام، (ص: ٣٣).

الإلهيَّة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم نزيد الأمر تفصيلًا بالقول[1]:

عندما نصل إلى هذا الحدِّ من تقرير الرَّحمة، ربما انبعث سائلٌ صاخبٌ يقول مزمجرًا: كيف تزعمون أنَّ رحمةَ الله ﷻ عامَّةٌ وأنتم تنظرون إلى الحوادث المؤلمة التي تصيب البشريَّة، وتبكي منها الإنسانيَّة، سواء أكانت حوادث كونيَّة، أم حوادث بسبب رعونة الإنسان؟

ولعلَّ من مسالك الصَّواب أن نطلب من صاحب السُّؤال أن يستمع إلى الجواب، ولا يأخذ نفسه بالضَّجيج الذي يصحب هذا السُّؤال عادةً؛ إذ إنَّ مثل هذا السُّؤال كان مفتاحًا لعالِم الرِّياضيات: (جيفري لانغ Gwffery Lang) للدُّخول في الإسلام، وألَّف كتابه: (الصِّراع من أجل الإيمان Struggling to Surrender)؛ وذلك بناء على تجربته التي بها أبصر نور الحقيقة في القرآن.. نعم هو تساءل كما يتساءل أيُّ إنسان عن سرِّ وجود الآلام في الحياة، وهل ينافي ذلك أنَّ الله ﷻ هو الرَّحمن الرَّحيم، الذي وسعت رحمته كلَّ شيء؟

إن الرَّحمة هي الهدف الحقيقيُّ من **الأفعال الإلهيَّة الكونيَّة (الخلق) والتَّكاليف الشَّرعيَّة** (الأمر)، أما الإجابة المختصرة على السُّؤال، فتتَّضح من خلال الأمور المرتَّبة الآتية:

الأمر الأول: الْحَوَادِث التي تَحْدُث للعباد قسمان:

القِسم الأوَّل: ظاهره الرَّحمة وباطنه العذاب، كالْوَالِد إذا أَهمَلَ وَلَدهُ حتَّى يفعل ما يشاءُ، ولا يُؤَدِّبُهُ.

(١) من كتابي: الإسلام في سبع آيات (ص: ١٣٢).

القِسم الثاني: ظاهره العذاب وباطنه الرَّحمة، كَالوَالِدِ إِذَا حبس وَلَدَهُ للعلم، والإنْسانِ إذا وقع في يده مرض الآكِلةِ (التي تسبب تآكل الجسد)، فإذا قُطعت تلك اليد، فهذا في الظَّاهر عذابٌ، وفي الباطن راحةٌ، ورحمةٌ.

فكلُّ ما وجد من المصائب فهو لصالح بني الإنسان بالنَّظر إلى اختبار العاجلة ونتائج الآجلة، **فالغافل يَغْتَرُّ بِالظَّوَاهِرِ، وَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ بعين بصيرته إلى الحقائق -ولو كانت من السَّرَائِرِ-**:

فالظَّواهر التي يُظَنُّ أنها منافيةٌ للرحمة، فحقيقتها الرَّحمة عند سبر أغوارها، ومعرفة حِكَمِها وأسرارها، وأقرب مثالٍ لهذا الباب قصَّةُ موسى والخضر عليهما السلام، فإنَّ موسى عليه السلام كان يبني الحُكم على ظواهر الأمور، وَأَمَّا الخضر عليه السلام فإنَّهُ كان يبنِي أَحكامهُ على الحقائق والأسرار؛ فاسمع الخضر عليه السلام يفتر ثغره ببيان الحق، ويظهر الحِكَم والأسرار لأفعاله الغريبة، فيقول: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

إنَّ كلَّ مَا في العالـم من محنةٍ وبلِيَّةٍ وألـم ومشَقَّةٍ، فهو ذو حكمةٍ ورحمةٍ في الحقيقة وإن كان عذابًا في الظَّاهر، فوجود المصائب والحوادث يكون لحكمةٍ خاصَّةٍ تعود في حقيقتها إلى الرَّحمة.

ويكفي لبيان ذلك ذكر هذه النَّماذج من الأحاديث العظيمة المبيِّنة لبعض الحِكَم من المصائب الدُّنيويَّة، فعن الأَسْوَد بن يزيد النخعي رحمه الله قال: دخل شبابٌ من قريشٍ على عائشة رضي الله عنها وهي بِمِنًى، وهم يضحكونَ، فقالت: مَا يُضْحِكُكُم؟ قالُوا: فُلانٌ خرَّ على طُنُبِ فُسطاطٍ[١]، فكادت عُنُقُهُ أو عَينُهُ أن تذهب. فقالت: لا تضحكوا؛ فإنِّي سمعت رسول اللهِ

(١) الطنب: حبل الخِباء أو السرادق، والفسطاط: الخيمة العظيمة أو البناء العظيم، والمراد أنه تعثر بحبل الخيمة، فسقط.

ﷺ قَالَ: «ما من مُسلم يُشَاكُ شوكةً فما فوقها، إلَّا كتبت له بها درجةٌ، وَمُحِيت عنه بها خطيئةٌ»(١)، وعنها ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ضرب على مؤمنٍ عِرقٌ قط، إلا حطَّ اللهُ عنه خطيئةً، وكتب له حسنةً، ورفعَ له درجةً»(٢)، وعن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ»(٣)، وماذا يكون الابتلاء في الدُّنيا بجانب حسنات الآخرة؟

الأمر الثاني: التَّكاليف وضعت للمصلحة الإنسانيَّة، وإن كانت خلاف الأهواء والشَّهوات:

فهي كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وتَركُ الخير الكثير لأجل الشَّرِّ القليل شرٌّ كثِيرٌ، فترك التَّكاليف لأنها تقيِّد الرَّغبات والأهواء، يؤدِّي إلى شرور الضِّيق، والبؤس، والعناء، وانظر إلى حال الناس لو تركوا التَّقيُّد بنظام المرور لموافقة أهوائهم في السُّرعة، كيف يكون حالهم؟ وكذلك الالتزام بالتَّكاليف الشَّرعيَّة التي تكون أنظمة المرور مثلًا أحد أصغر ملامحها.

الأمر الثالث: من الرَّحمة خلق النَّار؛ فإن المقصود من خلقها صرف الأشرار إلى الأعمال الصَّالحة الإيجابيَّة المثمرة.. إلى أعمال الأبرار.

إن وجود العقوبة الدُّنيويَّة والأخرويَّة يساعد العصاة والفاسقين ليتركوا أعمالهم السَّيِّئة خوف العقوبة المتوقَّعة؛ وبذا يتمُّ جذبهم أو دفعهم لا ليفكِّروا في العقوبة العاجلة الزَّائلة، بل في العقوبة الآجلة التي يدوم ألمها، وتضيع الآمال في جحيم عذابها.. هاهنا ترى الخلائق

---

(١) مسلم (٢٥٧٢).

(٢) المعجم الأوسط (٣/ ٥٦)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣٤)، وجوَّد إسناده ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ١٠٥).

(٣) الترمذي (٢٤٠٢)، وقال: «غريب لا نعرفه إلا بهذا الإسناد»، وعلى القول بضعفه يغني عنه أو يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٨١٧٧).

يفرُّون إلى ربِّهم ﷻ، ويعيدون صياغة حياتهم؛ وَفْقَ ما يُصلح الأرض، وينفع الناس، لا وَفْقَ الأنانيَّات الشَّخصيَّة، والطمع الفرديِّ، والْحَظْ ذلك بصورةٍ واضحةٍ رائعةِ التَّرتيب، شائقة الأسلوب في سورة اللَّيل من أوَّلها حتى تصل إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [الليل: ١٤ – ١٨].

وهنا لا يعزب عنك –أيَّدك الله– أنَّ الرَّحمة صفة ذات، وأما العذاب فهو صفة فعل؛ ولذا تلحظ الفرق واضحًا بينهما في قوله –تعالى مجده–: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، والرَّحمة مقصودةٌ لذاتها، والعذاب وسيلة؛ لذا تراه قَرَنَ استواءه على العرش باسمه الرَّحمن غالبًا؛ لإحاطة العرش بالمخلوقات كما تحيط الرَّحمة بهم[1].

الأساس الخامس: الخير:

الخير أحد أهمِّ الأسس التي قامت عليها السَّمَوَات والأرض، والله ﷻ خالق الخير، والشَّرُّ في بعض مخلوقاته، فليس الشَّرُّ في أصل الخلق والأفعال الإلهيَّة، بل في بعض مخلوقاته ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، فخلق الله ﷻ كامل تامٌّ، واعتراء النَّقص والعيب فيه ناتج عن عدم قبوله من قومٍ جعل الله ﷻ لهم الاختيار في قبول الخير، أو ردِّه، أو عن إساءة استعمال الخير، وأما النَّقص الخَلْقيُّ في بعض الخلق، فنسبته ضئيلة، وله حِكَمه المستقلَّة؛ ولذلك أقسم إبليس ليغيرنَّ خلق الله ﷻ، ولا يفهم من هذا أنَّ الشَّرَّ لم يُخلق بالقدرة الإلهيَّة، بل بها خُلِق، ولكنه ليس مقصودًا من الخلق في ذاته، بل وجد لحكمة، وممَّا يبيِّن أنَّ **الخير لا**

(١) راجع قدر الدعوة (ص: ٧).

يكون سببًا ذاتيًّا للشَّرِّ، وإنما سبب وجوده استخدام النَّاس للخير بغير الحقِّ، فهو الذي ينشئ الشَّرَّ، فلا شرَّ على الحقيقة، بل الشَّرُّ تألفه المخلوقات لاستخدامها الخير بغير الحقِّ: ما بيَّنه النَّبيُّ ﷺ بيانًا تصويريًّا واضحًا في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى المنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ، ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنيا، فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا وَثَنَّى بِالأُخْرَى»، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ. قُلْنَا: يُوحَى إِلَيْهِ، وَسَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ، ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ، فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا؟ أَوَ خَيْرٌ هُوَ - ثَلاثًا-؟ إِنَّ الْخَيْرَ لا يَأْتِي إِلَّا بِالْخَيْرِ. وَإِنَّهُ كُلَّمَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا، أَوْ يُلِم، إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرَةِ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ، فَاجْتَرَّتْ، وَثَلَطَتْ، وَبَالَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ، وَإِنَّ هَذَا المالَ حُلْوَةٌ، مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ (فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْيَتَامَى، وَالمسَاكِينِ)، فَنِعْمَ المعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ، وَلا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

فقَوْله ﷺ: «وَإِنَّهُ كُلَّمَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا»، وفي رواية: «وإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُل حَبَطًا»[(٢)]، تَمْثِيلٌ للحرِيص المفْرِط في الْجمع والمنْع؛ وَذَلِكَ أَن الرَّبِيع -الذي هو المطر- يُنبِت أَحْرارَ العُشْب الَّتِي تحْلَوْلِيها[(٣)] الماشِيَة، فَتَسْتَكْثِر مِنْهَا حَتَّى تَنْتَفِخَ بطونها وتَهْلِكُ،

---

(١) البخاري (٢٨٤٢).

(٢) ينظر: االبخاري (١٤٦٥).

(٣) احلولى الشيء يحلوليه استحلاه، أي وجد طعمه حلوًا، وَجَعَلَ حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ احْلَوْلَى مُتَعَدِّيًا، فَقَالَ:

فلمَّا أَتى عامانِ بعدَ انْفِصالِه ... عَنِ الضَّرْعِ واحْلَولَى دِثارًا يَرودُها

وَلَمْ يَجِئ افْعَوْعَل مُتَعَدِّيًا إِلَّا هَذَا الْحَرْفُ، وَحَرْفٌ آخَرُ وَهُوَ اعْرَوْرَيْت الفَرَسَ. ينظر: لسان العرب (١٤/ ١٩٠).

كَذَلِك الَّذِي يجمع الدُّنيا، ويحرص عَلَيْهَا، ويَشحُّ على مَا جَمَعَ حَتَّى يمنَع ذَا الحقِّ حَقّه مِنْهَا، يَهلِكُ فِي الْآخِرَة بِدُخُول النَّار، واستِيجابِ الْعَذَاب، وأمَّا مَثَلُ الـمقْتَصِد الـمحْمُود، فَقَوله ﷺ: «إِلَّا آكِلَة الخَضِر، فَإِنَّهَا أكلَتْ حَتَّى إِذا امْتَلَأت خواصِرُها، استَقْبَلَتْ عينَ الشَّمْس، فَثلَطَتْ، وبالَتْ، ثمَّ رتَعَت»، وَذَلِكَ أَن الخَضِر لَيْسَ من أَحْرار الْبُقُول الَّتِي تستكثر مِنْهَا الـماشِيَة، فتُهْلكُه أكْلًا، وَلكنه من الجَنْبَة الَّتِي ترْعاها بَعدَ هَيْج العُشبِ ويُبْسِه. وأكثرُ الْعَرَب يَجعَلون الخضِرَ مَا اخضَرَّ من الحَلِيِّ الَّذِي لـم يَصْفَرَّ، والـماشِيَةُ ترتَع مِنْهُ شَيئًا شَيئًا، وَلَا تستكثر مِنْهُ، فَلَا تحبَطُ بطونُها عَنهُ[1]، وَقد ذكره طرفَةُ فَبيَّن أَنه من نَبَات الصَّيف فِي قَوْله:

كَبَنَاتِ الْمَخْرِ يَمْأَدْنَ إِذا ... أَنبَتَ الصَّيفُ عَسالِيجَ الخَضِر[2]

فأخذ النَّاس للخير بصورةٍ خاطئةٍ هو الذي ينشئ الشَّرَّ؛ ولذا كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[3]، فالشَّرُّ يرجع إلى العدم، أي: عدم الخير، فهو من هذه الجهة شرٌّ، أما من جهة وجوده الـمحض، فلا، كعقوبة موضوعة في مجالها خير في نفسها وإن كانت شرًّا بالنسبة للـمحلِّ الذي حلَّت به.

---

(١) تهذيب اللغة (٤/ ٢٢٩).

(٢) ديوان طرفة بن العبد (ص: ٤١)، (المخر): سحاب أبيض يمر في أواخر الربيع. (يمأدن): يتمايلن. (العساليج): واحدها العسلوج، وهو الغصن الأخضر اللين.

(٣) مسلم (٧٧١).

عبد السلام مقبل المجيدي

الفصل التاسع

قوانين عملية تطبيقية لإعمال السُّنَن في البناء، ومعالجة الأزمات، وصناعة النَّصر والعاقبة

سورة البقرة تؤسِّس لإشراق الحضارة الإسلاميَّة على العالـم، وقد بيَّنتُ ذلك في تفسيرها الـمقاصديِّ في كتابي عن هذه السُّورة المذهلة، وعندما تقرؤها ستكتشف شيئًا رائعًا في بنائها الـمنطقيِّ للـمعرفة البشريَّة؛ إذ تجد الله -تعالى مجدُه- يذكر فيها تسخير البيئة الكونيَّة (مادةً وحركة) سُنَنًا للبشريَّة، فيقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ثم يذكر بعد ذلك الاستخلاف الإلهيَّ للإنسان في الأرض، فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وهو استخلاف تكريميٌّ، يقوم الإنسان فيه بالاستفادة من البيئة الـمسخَّرة لإعمار الأرض وَفْقَ أمر الله ﷻ وحُكْمه.

وقد بيَّن الله ﷻ -بعد ذلك- أنه سخَّر للإنسان ما في السَّمَوَات وما في الأرض جميعًا منه؛ لينظر الإنسان في سُنَنها، ويستكشف قوانينها، ويستفيد منها في سَيْرِه إلى ربِّه ﷻ وقُرْبِه منه وبناء حياته وَفْقَ الـمراد الإلهيِّ الذي يريد للبشريَّة اليسر في الحياة، ويقدِّم لها البيانَ الحاميَ من الضَّلال، ويهيئ لها التَّطهيرَ الـمُنَقِّيَ من الأرجاس، ويعينها على إحقاق الحقِّ وإزهاق الباطل، ويهديها لأجمل التَّشريعات في إعمار الحياة.

اسمع لسورة الشَّريعة (الجاثية) تبيِّن ذلك واضحًا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣]؛ ولذا لا بد من توظيف السُّنَن الإلهيَّة، والاستفادة من الكرامة الإلهيَّة، التي أعطيت للبشريَّة بتسخير

السَّمَوَات والأرض.

فلْنَقُمْ لله مثنى وفرادى، ثم نتفكَّر في القوانين العمليَّة؛ لجعل التَّسخير أداةً مساعدةً على التَّنوير والتَّعمير، لا وسيلة للاستغلال والإجرام والإفساد والتَّدمير.

فدونك القوانين التَّطبيقيَّة الآتية:

القانون الأول: الدِّراسة والرَّصد للسُّنَن، وقياس واقع الأمَّة لمعرفة السُّنَّة التي تعيشها:

إعمال السُّنَن وتوظيف قوانينها لا بدَّ أن يسبقه شمول إدراك وإحاطة علم بالماجريات والوقائع، وعلم دقيق بتوازن القوى الإقليميَّة والعالميَّة، واستشراف لمآلات العلاقات والوقائع المعاصرة.. كلُّ ذلك يشكِّل فَرْشَة وأرضيَّة لا بدَّ منها لتفعيل قوانين السُّنَن الإلهيَّة، وإنما أُتِيت الأمَّة من تفريطها بتخصيص مراكز بحث ورصد وتوقُّع للمآلات مستهدية في علمها ببصائر الكتاب وسُنَن الملك العزيز الغلَّاب في خلقه.

اضرب لهم مثلًا بسُنَّة الاغترار بالمكتسبات الأرضيَّة:

حيث يصف الله ﷻ هذه السُّنَّة بتفصيلٍ، يزلزل القلوب الغافلة، ويُوقف الأهواء القاتلة، فيقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٢ – ٨٥].

هؤلاء فرحوا بما عندهم من المعارف الأرضيَّة، وبما حقَّقوه من الإنجازات المختلفة، وبما وصلوا له من التَّقدُّم المغري الذي جعلهم أشدَّ قوَّة وأكثر تأثيرًا على مستوى الأرض من غيرهم من الأمم.. وردُّوا الوحي الإلهيَّ الذي جاءت به الرُّسل، بل استهزأوا به، وسخروا منه.

ودعني أقصُّ عليك شيئًا شبيهًا بهذه المأساة العقليَّة: أحد كبار أغنياء المسلمين ناقش داعية حول مصير الكافر الذي يخترع للناس ما ينفعهم، يقول: كيف يكون من العدل أن يكون مصير هذا الكافر النَّار؛ لأنه لا يؤمن بالله ﷻ، أو برسوله ﷺ، وقد اخترع للنَّاس كلَّ هذه الأمور النَّافعة في الحياة؟

نسي هذا الغافل الفَرِح بما عنده من العلم أنه أنكر من أعطاه -الله ﷻ-.. نسي أنه جحد بفجور آثم خائن مَنْ مَلَّكه الفكرَ الذي اخترع به، والعقلَ الذي فَكَّر به، والسمعَ والبصرَ اللَّذين أعاناه على الملاحظة والاستنتاج، والأدوات التي ركَّب منها اختراعاته.. ولم يكتف بنسيان خالقه ومصوِّره حتى جحده فأنكره..

يا ربِّ هذا العصر ألحدَ عندما ... سخَّرتَ يا ربِّي له دُنياكا
علَّمتَهُ مِنْ علْمِكَ النَّوَوِيَّ ما ... علَّمتَهُ فإذا به عادَاكا
ما كادَ يُطلِقُ للعُلا صَاروخَهُ ... حتى أشاحَ بوجهِهِ وقَلَاكا
واغترَّ حتى ظَنَّ أنَّ الكونَ في ... يُمْنَى بني الإنسانِ لا يُمْنَاكا
أَوَ ما دَرَى الإنسانُ أنَّ جميعَ ما ... وَصَلَتْ إليه يداه مِن نُعْمَاكَا؟
أَوَما دَرَى الإنسانُ أنَّك لو أردتَّ ... لظَلَّتِ الذَّرَّاتُ في مَخْبَاكا
لو شئتَ يا ربِّي هوى صاروخُهُ ... أو لو أردتَّ لَمَا استطاعَ حَرَاكا
يا أيُّها الإنسانُ مَهْلًا واتَّئِدْ ... واشكُرْ لربِّك فَضْلَ ما أولاكا
واسجدْ لمولاكَ القديرِ فإنَّما ... مستحدثاتُ العلمِ مِنْ مولاكا

أفـــإنْ هـــداك بعلمِـــهِ لعَجِـيــبــةٍ ... تَـــزْوَرُّ عنـــه ويَـنْـثَـــنِي عِـطْفَـاكـــا
إنَّ النَّـــــواةَ ولكـتـرونـــــاتِ التــــي ... تجـــري بـــراهـــا اللهُ حـــينَ بَـــرَاكـــا
مـــا كنـــتَ تَقْـــوَى أنْ تُـــفَتِّتَ ذَرَّةً ... منهـــنَّ لـــــولا اللهُ قـــد قَـــوَّاكـــا
كـــلُّ العجائـــبِ صَـنعةُ العقـــلِ الـــذي ... هـــو صَـــنعةُ اللهِ الـــذي ســـوَّاكـــا
والـــعقلُ ليـــس بمُـــدركٍ شـــيئًا إذا ... مـــا اللهُ لـــم يَـــكـتـبْ لـــه الإدراكـــا[١]

(١) الأبيات للشاعر إبراهيم بديوي. ينظر: تعظيم الله ﷻ (تأملات وقصائد) (ص: ٢٤٥).

القانون الثاني: تواؤم الإنسان وانسجامه معها:

بأن يجعل الإنسان معرفته بالسُّنَن التي تنظِّم حركة المخلوقات مؤدِّيةً إلى انسجامه معها، وإفادته منها.

يقول د. عماد الدِّين خليل: «إنَّ الإنسان بمجرَّد انتمائه الجادِّ إلى هذا الدِّين، يضع نفسه وقدراته في سياق واحد، وتوجُّه واحد، ومجرى واحد مع خلائق الله كافة، وسُنَنه المذخورة في الطَّبيعة، ونواميسه العاملة في الكون.. إنه سيتجاوز مواقع الارتطام التي تفتِّت الطَّاقة وتضعف فاعليتها.. إلى الانسجام والتَّناغم مع السُّنَن والنَّواميس، سوف يضيف إليها ويأخذ منها.. ومن هذا الشَّدِّ المتبادل من هذا الوفاق.. من هذا الأخذ والعطاء على الدَّرب الواحد، بالقانون الواحد، صوب الهدف الواحد.. يتحوَّل الإنسان المؤمن إلى (طاقة) فذَّة في ميدان الفعل والإنجاز.. قدرة مذهلة في مجال العطاء والإبداع.. شعلة متوهِّجة يمتدُّ إشعاعها إلى أعماق الذَّات فيضيئها ويدفعها، وإلى آفاق العالم فتتبيَّن ملامح الطريق»[(١)].

انظر مثالًا تطبيقيًّا حيًّا لهذا القانون والإرشاد الإلهيِّ لنا للانسجام مع سُنَّة كر اللَّيل والنَّهار مثلًا في قوله -تعالى مجده-: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: ٦١].

أفرأيت إن عكس ذلك المرء ذلك.. هل يجد تلك الفوائد الضَّخمة للانسجام مع هذه الطَّبيعة الرَّائعة؟ فلا ينبغي له أن يَقْلِب عمل اللَّيل ليكون في النَّهار، ولا عمل النَّهار ليكون في

---

(١) حول إعادة تشكيل العقل المسلم (ص: ١٩).

اللَّيل؛ ولذا كان النَّبيُّ ﷺ -مثلًا- «يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ العشاء، وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا»[(١)]، وحسبك الأبحاث المعاصرة في بيان فوائد النَّوم في الليل، وأضرار النَّوم بالنَّهار.

هذا بشأن السُّنَن الكونيَّة (المادِّيَّة الطَّبيعيَّة)، وقل مثل ذلك بشأن (السُّنَّة الاجتماعيَّة والشَّرعيَّة)، فإنَّ الأمر يفوق مجرَّد طلب (التَّواؤم والانسجام) إلى وجوب الوحدة والالتئام، وخاصَّة في العصر الذي نعيشه حيث يسعى جنود الظَّلام، ومعسكر الشَّيطان لتغيير المسمَّيات والنُّعوت والصِّفات، بل والافتئات على خلق الله ﷻ وصنعه، ومن ذلك السَّعي الحثيث للتَّلاعب بمصطلحات الذَّكر والأنثى، وإعادة تعريف الأسرة، واستحداث صور جديدة لها بدعًا من القول والفعل الممقوتين، يحدوهم في ذلك صوت شيطانهم الأكبر، كما حكى الله ﷻ عنه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

القانون الثالث: المجاراة، وعدم المصادمة لما يعلم عدم إمكانية تغييره (المسايرة):

ويبيِّن محمد عبده رحمه الله ذلك متأمِّلًا في آيات السُّنَن في القرآن، فيقول: «ومن سار على سُنَن الله ﷻ، ظفر بالفوز، وإن كان ملحدًا أو وثنيًّا، ومن تنكَّبها، خسر وإن كان صدِّيقًا أو نبيًّا»[(٢)] على أنَّك ينبغي أن تكمل كلامه، فتقول: وحاشا لنبيٍّ اختاره الله ﷻ، أو لصدِّيقٍ اجتباه ربُّه ﷻ أن يصادم السُّنَن الإلهيَّة، ولأجل المصلحة الإنسانيَّة في الاستفادة من السُّنَن يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

---

(١) البخاري (٥٦٨).

(٢) تفسير المنار (٤/ ١٤١)، وانظر: على عتبات الحضارة - بحث في السنن وعوامل التخلق والانهيار (ص: ٢٠).

ألا فخُذْ هذا القانون، وأخبِر به الكاذبين والواهمين الذين يشوِّشون على العقيدة ويزعمونها أفيونًا للشُّعوب، ضلَّت أفكارهم وأعمالهم، فلا تراهم إلا معاول تدميرٍ للعالم وفؤوس ثأر من البشريَّة.

كم غاب ويغيب هذا القانون عن أنظار أولئك الذين لا يقدِّرون الأمور قدرها فيندفعون دون تحسُّب لمواقع الأقدام قبل خطوها، ودون استشراف مآلات الأحداث والوقائع، فإذا ما وقعوا في الرَّقمة الرَّقماء، وحلَّت الدَّاهية الدَّهياء، باؤوا بالنَّدم، أوما علم القوم أن شجاعة الرَّأي بمكان كما قال شاعرهم:

الرَّأي قبل شجاعَةِ الشُّجعانِ ... هو أوَّلٌ وهي المحلُّ الثَّاني

فإذا هما اجتمعا لنَفْسٍ حُرَّةٍ ... نَالتْ من العَلْياءِ كلَّ أمانِي[1]

أو لم يسمعوا قول الشاعر الحكيم:

وَمن لَا يُصَانِع فِي أُمُور كَثِيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بأنْيابٍ ويُوطَأْ بمَنْسِمِ[2]

واضرب لهم مثلًا بزعماء الشُّيوعية الذين اعتقدوا نتيجة لأفكارهم الزَّائفة أنَّ ما قدَّره الله ﷻ من أقوات في الأرض لا يمكن أن يكفي العالم.. لماذا؟ لأنهم لا يؤمنون بوجود إلهٍ مدبِّر في الأصل.. ماذا نتج عن الشُّعور بالمعركة المفترضة مع الأقوات الطَّبيعيَّة: أن يقوموا بالإعدامات البشعة للبشريَّة بزعم أن ذلك يصبُّ في مصلحتها، هذا (بول بوت) قائد الحركة

(١) البيت للمتني، ينظر ديوانه، (٢/ ١٧١).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، ينظر ديوانه، (ص: ٧٠)، يصانع: يترفق ويداري، فإنه من لا يصانع الناس، ولم يدارهم في كثير من الأمور قهروه، وأذلوه، وربما قتلوه، ويضرَّس: يمضغ بضرس ويوطأ بمَنسِم، والضرس العض على الشيء بالضرس، والمَنسِم خُفُّ البعير. شرح المعلقات التسع (ص: ٢١٢).

الشُّيوعية والتي كانت مشهورة بالخمير الحمر لمَّا تولَّى منصب رئيس وزراء كمبوديا لفترة ثلاث سنوات من (١٩٧٦-١٩٧٩م) أجبر سكان المناطق الحضريَّة على الانتقال إلى الرِّيف للعمل في المزارع الجماعيَّة، وكانت نتيجة سياسته المجرمة أن أباد بأدوات القتل والجوع والإهمال الطِّبيِّ ما يزيد على (٢٥٪) من سكان كمبوديا البالغ عددهم أكثر من ثمانية ملايين نسمة.

وهلمَّ معي إلى معنى آخر يظهر من هذا الخطاب الذي يحمل كمال التَّحبُّب إلى البشريَّة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، حيث قدَّم ﴿لَكُم﴾ كأنه يقول سبحانه: كيف تكفرون به -جلَّ مجده- ولا تقبلون كلامه، وتقولون: ماذا أراد الله ﷻ بهذا مثلًا، وهو الذي أحياكم ثمَّ يميتكم، وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا؟ والإنسان عندما ينظر إلى نِعَم الله جَلَّ جَلَالُهُ في نفسه، وفيما حواليه، فإنه ينبغي أن يزداد إيمانًا ويقينًا، وذكر بعض أهل العلم مثالًا جميلًا لهذا، فقال: كم يحتاج الإنسان لتوصيل الكهرباء إلى بيته؟ وكم يستهلك من أموال وطاقات؟ قارن ذلك فقط بنعمة الشَّمس.

ولاحِظ في تركيب قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لتجد أنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ عمَّم كلَّ ما في الأرض لتكون في خدمة الإنسان ورعايته، سواء أكانت جمادات، أم كانت حيوانات، أم كانت نباتات، وهذا يعني أن الإنسان ينبغي أن يدرسها، ويتعرَّف إلى خصائصها، حتى يتمكَّن من استغلالها على الوجه الأمثل.

وقد جاء في سفر التَّكوين من التَّوراة الحاليَّة ما يشبه ذلك مع اختلاف في التعبير:

١ : ٢٦ وقال الله: «نعمل الإنسان على صورتنا كشَبَهِنا، فيتسلَّطون على سمك البحر، وعلى طير السَّماء، وعلى البهائم، وعلى كلِّ الأرض، وعلى جميع الدَّبَّابات التي تدبُّ على الأرض»(١).

«وقد امتنَّ الله ﷻ على النَّاس بما وهبهم من قدرة على تعمير البيوت، وصناعة الأثاث، وصناعة الألبسة المختلفة الأنواع، والمختلفة المصالح، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل: ٨٠، ٨١].

ألسنا نرى أنَّ الله تبارك وتعالى امْتَنَّ علينا بالبيوت، وبالأثاث، وبالسَّرابيل، مع أن هذه الأشياء لا تتمُّ بحسب السُّنَن الأرضيَّة المستمرَّة ما لم تدخل فيها يد الإنسان بالتَّعمير، والصِّناعة»(٢).

القانون الرابع: مغالبة السنن بما يقابلها:

مغالبة السُّنَن تعني عدم اليأس عند الوقوع في سُنَّة ما.. لأنَّ هناك سُنَّةً تقابلها، فعند الوقوع في سُنَّة المرض هناك سُنَّة البحث عن الدَّواء شرعيًّا وماديًّا، وعند الوقوع في سُنَّة الاستضعاف هناك البحث عن المخرج الكلِّيِّ أو الجزئيِّ، وهكذا..

(١) انظر كتابي: بصائر المعرفة القرآنية (سورة البقرة): إشراق الحضارة الإسلامية على العالم آية (٢٩).

(٢) الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم (ص: ٣٤٥).

أنموذج قرآنيٌّ للقانونين الثالث والرابع:

واضرب لهم مثلًا للقانونين الثالث والرابع قوم يونس عليه السلام لـما أدركوا أن العذاب واقع بهم، وأنهم غير معجزي الله عز وجل لـم يأنفوا، ولا ركبوا متن عمياء، بل لـم يصادموا سُنَّة العذاب بكبرهم، فلجؤوا إلى التَّضرُّع ليكشفوا به العذاب.. وهكذا ذكر الله عز وجل كيفية كشف العذاب، فقال جل جلاله: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾ [المؤمنون: ٧٦].. فأما قوم يونس عليه السلام، فتضرَّعوا فكشف الله سبحانه وتعالى عنهم عذاب الخزي ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس: ٩٨]، ويوضِّح قتادة رحمه الله شدَّة إدراكهم للفائدة العظيمة التي سيحرزونها بشدَّة التَّضرُّع، فيقول: «لـم يكن هذا في الأمم قبلهم، لـم ينفع قريةً كفرت ثم آمنت حين حضرها العذابُ، فتُرِكت، إلا قوم يونس، لـما فقدوا نبيَّهم عليه السلام وظنُّوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله عز وجل في قلوبهم التَّوبة، ولبسوا الـمُسُوح، [وفرَّقوا] بين كلِّ بهيمة وولدها، ثم عجُّوا إلى الله عز وجل أربعين ليلةً. فلـما عرف الله سبحانه وتعالى الصِّدق من قلوبهم، والتَّوبة، والنَّدامة على ما مضى منهم، كشف الله جل جلاله عنهم العذاب بعد أن تدلَّى عليهم». قال: «وذُكِر لنا أنَّ قوم يونس عليه السلام كانوا بنينوى أرضِ الـموصل»(١)، فَهُمْ «بَادَرُوا إِلَى الْإِيمَانِ بَعْدَ أَنْ فَارَقَهُمْ يُونُسُ عليه السلام، تَوَقُّعًا لِنُزُولِ الْعَذَابِ وَقَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُعَامَلَةَ اللهِ عز وجل إِيَّاهُمْ لَيْسَتْ مُخَالِفَةً لـما عَامَلَ بِهِ غَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى، وَأَنْ لَيْسَتْ لِقَوْمِ يُونُسَ خُصُوصِيَّةً، وَبِذَلِكَ لَا يكون استثناؤهم اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعًا»(٢).

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٠٧)، والمُسُوح: الصُّوف.

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٨٩).

ومن الـمغالبة التي نستفيدها من فعل قوم يونس عليه السلام: مغالبة السُّنَن الكونيَّة القدريَّة، أو الاجتماعيَّة، التي تؤول نتيجتها إلى الأمر القدري، بسننٍ مقابلة تبذل فيها الأسباب، مثل مغالبة الأخطاء بالتَّوبة، والدُّعاء، فعن سلـمان الفارسيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَرُدُّ القضاءَ إلا الدُّعاء، ولا يزيد العُمرَ إلا البِرُّ»[١].

ولقد فقه أئمة التَّغيير الإيجابيِّ ذلك، فعندما نزل الطاعون بالشَّام وكان عمر رضي الله عنه ومن معه خارجها أزمع على المغادرة وعدم الدُّخول، فقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ! نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: خَصبَةٌ، وَالأُخْرَى: جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ؟»[٢].

وإنَّ ممَّا يدخل في حيِّز المغالبة في مرحلة الاستضعاف الذي تمرُّ به الأمَّة العمل على إعادة إحياء الهُويَّة الإسلاميَّة فإنه صيغة من صيغ التَّحوُّلات الحضاريَّة، ويمكن أن يقدَّم بديلًا حضاريًّا متكاملًا باستطاعته أن يتحدَّى الحضارة الغربية[٣]، ويسحب البساط على مهل من تحت أقدام المستهترين.

---

(١) الترمذي (٢١٣٩)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وقال المناوي في كشف المناهج (١٦١٢): «سنده جيد».

(٢) البخاري (٥٧٢٩).

(٣) العالم الإسلامي في مهب التحولات د. أحمد داود أوغلو، (ص: ١٠).

القانون الخامس: الاستخدام، فننتقل بالسُّنَن الإلهيَّة من الفهم إلى الإعمال، ومن الإدراك إلى التَّوظيف، ومن الأمل إلى العمل، ومن تنقيح المناط إلى "تحقيق المناط":

فإن أردنا مثالًا لذلك في السُّنَن الاجتماعيَّة الشَّرعيَّة، فلننظر في سُنَّة وجود عدوٍّ من المجرمين أمام الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].. عدوًّا من المجرمين يجد العون والنُّصرة من شياطين الإنس والجنِّ.. يدرك المرء هذه السُّنَّة، ليأخذ في مقابلها ولأجل التَّغلُّب عليها بالأسباب المادِّيَّة: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠]، والأسباب الشَّرعيَّة: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

وبناء على استغلال المسلمين للسُّنَن الكونيَّة وصلوا إلى بناء أدقِّ المناهج التَّجريبيَّة، وفي ذلك يقول عبَّاس محمود العقَّاد رحمه الله: «وقد أصاب "أبانيز" حين قال: إن عصر النَّهضة مدين للحضارة الأندلسيَّة قبل الحضارة الإيطاليَّة التي أعقبتها؛ لأنَّ عصر النَّهضة لم يكن عصر تجديد للفنون الإغريقيَّة القديمة، ولا مزيد على ذلك من عنده، ولكنه كان عصر تجديد في الحياة العمليَّة والمرافق الصِّناعيَّة والتِّجاريَّة، وفَهْم مستحدث للعقيدة وللعالم وللعلاقات بين الحاكمين والمحكومين، أو كان عصر معيشة جديدة، تناولت بالتَّبديل والتَّعديل طبقات الشُّعوب من العلية إلى السَّواد، وذلك أولى أن يأتي من القدوة الشَّعبية في جميع الشُّؤون العمليَّة بعد اتِّصال المعاشرة بين حضارة العرب وأبناء أوروبة الغربيَّة عدَّة قرون..

وفي وسع الأرقام والألفاظ أن تحصي لنا آثار العرب في بعض العلوم أو بعض الصِّناعات، ولكن آثار العرب في الحضارة العامَّة، لا تستقصيها الأرقام ولا الألفاظ... »[1].

والانتقال بالسُّنَن الإلهيَّة من الفهم إلى الإعمال ومن الإدراك إلى التَّوظيف، بحاجة لتعزيز أهمِّيَّة علم السُّنَن وضرورة الاستبصار به في إدارة الصِّراع والتَّعامل مع الآخر ومع الوقائع، ولا يتُصوَّر شيء من ذلك في وجود نُخَبٍ قياديَّة لا ترفع رأسًا بهذا العلم وأصوله وتقعيداته نظريًّا، فضلًا عن التَّوظيف العمليِّ لقوانينه.

القانون السادس: التَّعضيد للسُّنَّة بالسُّنَّة:

بالاستفادة من السُّنَن الكونيَّة في تكوين سُنَن النَّصر والفلاح في الشَّرعيَّة والاجتماعيَّة، وبالعكس، والاستعانة ببعض السَّنَن كونيَّة أو اجتماعيَّة على الأخرى.

ولنضرب على ذلك مثلًا بعمر بن الخطاب ﷺ وهو يستعين بالسُّنَن النَّفسيَّة الكونيَّة على تحديد الأمور الإداريَّة؛ لتَنْتُجَ حضارةٌ باسقة مدهشة في نظامها الإداريِّ.

فقد خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ ظَهْرَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللهُ ﷻ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، أَلا وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَد انْطَلَقَ، وَقَد انْقَطَعَ الْوَحْيُ، وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ: مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا، وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا، وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ، سَرَائِرُكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ ﷻ، أَلا إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ، وَأَنَا أَحْسِبُ أَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ اللهَ ﷻ وَمَا عِنْدَهُ، فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِآخِرَةٍ

(١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية (ص: ٩١)، وانظر: الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم (ص: ٦٥٢).

أَلا إِنَّ رِجَالًا قَدْ قَرَؤوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ، فَأَرِيدُوا اللهَ ﷻ بِقِرَاءَتِكُمْ، وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ، أَلا إِنِّي وَاللهِ مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ، وَلا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّموكُمْ دِينكُمْ وَسُنَّتَكُمْ، فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذَنْ لأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رضي الله عنه، فَقَال: يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ؛ أَوَرَأَيْت إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِن المسْلمينَ عَلَى رَعِيَّةٍ، فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ، أَئِنَّكَ لمقْتَصُّهُ مِنْهُ؟ قال: «إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، إِذَنْ لأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ، أَلا لا تَضْرِبُوا المسْلمينَ فَتُذِلُّوهُمْ، وَلا تُجَمِّرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ، وَلا تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ، وَلا تُنْزِلُوهُم الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ»(١).

فانظر لهذه النُّظُم الإداريَّة الرَّائعة، وكيف استقاها عمر رضي الله عنه من السُّنَن الكونيَّة النَّفسيَّة، ويكفي أن تأخذ منها قوله: «وَلا تُجَمِّرُوهُمْ، فَتَفْتِنُوهُمْ»؛ إذ قَوْله: (لَا تجمروهم) من التَّجمير، وَذَلِكَ أَن يُتْرك الْجَيْش في مغازيهم لَا يقفلون.

قَالَ الشَّاعِر:

فـاليـوم لَا ظلــــمٌ وَلَا تسـيـيـرُ ... وَلَا لـغـازٍ إن غـزا تـجـمـيـرُ

وقَالَ الآخر:

مُـعَـاوِي إِمَّـا أَن تُـجَـهِّـزَ أهـلَـنـا ... إِلَـيْـنَـا وَإِمَّـا أَن نَـؤوبَ مُـعَـاوِيَـا

---

(١) أحمد (٢٨٦)، وقال شعيب الأرناؤوط: «أبو فراس وهو النهدي، لـم يرو عنه غير أبي نضرة المنذر بن مالك، ولم يوثقه غير ابن حبان، وقال أبو زرعة: لا أعرفه، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين»، ورواه أبو يعلى في مسنده (١/ ١٧٤) قال حسين سليم أسد: «أبو فراس قال الحافظ: مقبول وباقي رجاله رجال الصحيح»، و(الغِيَاض): جَمْعُ غَيْضَة، وَهِيَ الشَّجَرُ الملتَفّ، لِأَنَّهُمْ إِذَا نَزَلُوهَا تفرَّقوا فِيهَا فَتَمَكَّن مِنْهُمُ العَدوُّ. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٠٢).

أأجْمَرْتَنا إجمارَ كسْرَى جُنُودَهُ ومَنَّيْتَنا حَتَّى مَلَلْنَا الأَمَانِيَا[١]

القانون السابع: الانتقال من سُنَّةٍ إلى سُنَّةٍ أخرى لقرائن ترجح الإعمال للسُّنَّة الثانية:

كما قال عمر بن الخطاب ﵁ وهو يبيِّن كيفيَّة الاستفادة الحقيقيَّة من السُّنَن: «نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: خِصبَةٌ، وَالأُخْرَى: جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخِصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ؟!»[٢].

(١) غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٥٩٦).

(٢) البخاري (٥٧٢٩).

القانون الثامن: ترقُّب لحظات الفلاح والانتصار بعد القيام بالعمل الذي يحقِّقهما وَفْقَ القدرة البشريَّة:

فإن انتظار الفلاح والانتصار سُنَّة من السُّنَن البارزة في تداول الأيام كما فصَّلناه في الفصل السابق.

مثال تطبيقيٌّ لهذه القوانين:

قال الله -تعالى ذكره-: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: ٣٩ - ٤١].

ففي هذه الآيات الأولى يذكر الله -تبارك وتعالى- عددًا من السُّنَن، وهي:

السُّنَّة الأولى: سُنَّة النَّصر لـمن ظُلِـم:

إذ تجد القرآن يُبصِّر العقول بتشريع الانتصار من الظَّالمين، وإنزال نصره جلَّ ذكرُه على المظلومين، فيقول الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، وفيها قراءتان[1] تحدِّدان طبيعة هذه السُّنَّة:

القراءة الأولى: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ بالكسر؛ ليُظهر الإذن لـمن يقدر على القتال؛ ليقوم بالاستعداد بالعُدَد والعتاد، والتَّهيئة الجسميَّة، والبيئيَّة للدُّخول في معركة كسر الظُّلـم.

(١) قرأ المدنيان، والبصريان، وعاصم بضم الهمزة، واختلف عن إدريس عن خلف، فروى عنه الشَّطِّيُّ كذلك، وروى عنه الباقون بفتحها، وكذلك قرأ الباقون، (واختلفوا) في: ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ فقرأ المدنيان، وابن عامر وحفص بفتح التاء مُجَهلًا، وقرأ الباقون بكسرها مُسمًّى. النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٢٦).

القراءة الثانية: ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ بالفتح؛ لتدلَّ على أنَّ أمر الظُّلم إذا وصل إلى الاعتداء المسلَّح، فيؤذن للمظلومين بالرَّدِّ، وعند جمعها مع القراءة السَّابقة تتَّضح لنا حالتان:

الحالة الأولى: أن يبلغ المظلومون حدَّ الاستعداد للرَّدِّ القتاليِّ، فيجب عليهم القتال، فالإذن هنا إذن إيجاب، وليس إذن مشروعيَّة.

الحالة الثانية: أن لا يبلغوا حدَّ الاستعداد القتاليِّ:

فإن وصل الظُّلم إلى حدِّ استئصالهم، وجب عليهم في هذه الحالة الدَّفع بما يستطيعون، ولا يجوز لهم الاستئسار كما ذهب إليه بعض الفقهاء، إلا أن يعلم أنه إذا أُسِرَ كان أخفَّ عليه من الموت.

وإن لم يصل الظُّلم إلى حدِّ الاستئصال، بل كان بغيًا عامًّا، فقد يجب على المظلومين أن يكفُّوا أيديهم، ولا ينبغي لهم أن ينساقوا وراء المغامرات غير المحسوبة، ويصوِّر (بائع الأمراء) العزُّ بن عبد السَّلام رحمه الله ذلك فيقول: «التَّولي يوم الزحف مفسدة كبيرة، لكنه واجب إذا عَلِمَ أنه يُقتَل من غير نكاية في الكفَّار؛ لأنَّ التَّغرير بالنُّفوس إنما جاز لما فيه من مصلحة إعزاز الدِّين بالنِّكاية في المشركين، فإذا لم تحصل النِّكاية؛ وجب الانهزام؛ لما في الثُّبوت من فوات النُّفوس، مع شفاء صدور الكفَّار، وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثُّبوت ههنا مفسدة محضة، ليس في طيِّها مصلحة»(١).

السُّنَّة الثانية: نصر المظلوم يستلزم سُنَّة التَّدافع لتتمَّ النُّصرة، وإلا لم يحز النَّصر: حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فقد أخبرنا جل جلاله أنه لو أراد أن ينصرهم لنصرهم، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [الحج: ٣٩]، ولكنَّه أخبرنا أنه لا بدَّ من المدافعة.

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١١٢).

السُّنَّة الثالثة: سُنَّة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

السُّنَّة الرابعة: سُنَّة التَّمكين يوجب فعل المؤمنين، وتنظيم النَّاس وَفْقَ الشَّرع المبين: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. وسنستعرض سُنَن النَّصر في سورة الأنفال إن شاء الله في كتاب "عاقبة المنذَرين".

وصلَّى الله تعالى وسلَّم على نبيِّنا السَّيِّدِ العبدِ المُنِيب مُحَمَّدٍ، وعلى آله وصَحْبِه، عَدَدَ خَلْقِهِ، ورِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ.

والحَمْدُ لله ربِّ العالمين.

الفقير إلى ربِّه الغني جلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

s1435y@gmail.com

فهرس المصادر والمراجع

١) الإبهاج في شرح المنهاج، أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي، وولده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢) أثر العرب في الحضارة الأوروبية، عباس محمود العقاد، دار نهضة مصر.

٣) إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٤) إعجاز النظم القرآني في اقتران السنن الاجتماعيَّة بالسُّنَن الكونيَّة، د توفيق علي زبادي، دار الحضارة، الرياض، ط١، ١٤٣٦هـ.

٥) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

٦) أزمة التنظيمات الإسلامية، دز جاسم سلطان، الشبكة العربية للأبحاث، ط٢، ٢٠١٥م.

٧) الإسلام في سبع آيات، د. عبد السلام مقبل المجيدي، دار الأصول العلمية، إسطنبول، ٢٠٢١م.

٨) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ، الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ)، تحقيق: سالم بن غتر بن سالم الظفيري،: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م.

٩) أهل السنة والجماعة، معالم الانطلاقة الكبرى، محمد عبد الهادي المصري، دار الاعلام الدولى، ط٤، ١٩٩٢م.

١٠) الإيمان، الشيخ عبد المجيد الزنداني وآخرون، دار المجتمع، جدة- السعودية، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، ط٧، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٢) البحر الزخار المعروف بمسند البزار، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي، المعروف بالبزار (ت ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

١٣) البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي (ت: نحو ٣٥٥ هـ)، اعتنى بنشره: كلِمان هُوار [ت ١٩٢٧ م - ١٣٤٥ هـ، أَرنست لرُو الصَحّاف - باريس، ما بين ١٨٩٩ - ١٩١٩م، طبع: مطبعة برطرند في مدينة شالون، وأعادت نشره: مؤسسة الخانجي بمصر، وغيرها.

١٤) البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، أبو حفص عمر بن علي بن أحمد، ابن الملقن الشافعي المصري (ت ٨٠٤هـ)، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وآخرين، دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض-السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٥) تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقَّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، وزارة الإعلام بالكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٦) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤هـ)، دار الثقافة - بيروت، ط١، ١٩٦٠م.

١٧) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطَّبَرِي (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم [ت ١٩٨٠ م]، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.

١٨) تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي(ت: ٧٤٨هـ) تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٩) تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.

٢٠) تأصيل علم السنن الربانية، راشد شهوان، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب لاهور، باكستان، عدد ١٥، ٨-٨٩، ٢٠٠٨م.

٢١) التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

٢٢) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف، دار الكتب العلمية بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٣) التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٩١م.

٢٤) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢٥) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرَّازِي (ت ٣٢٧هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.

٢٦) تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. .

٢٧) التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف بالأمير (ت ١١٨٢هـ)، تحقيق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٨) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٢٩) جامع الرسائل، أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، دار العطاء – الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

٣٠) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطَّبَرِي (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، وكذا طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٣١) الجامع الكبير، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٣٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطُبِيّ (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٣٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر، ١٣١١ هـ.

٣٤) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت.

٣٥) حتى الملائكة تسأل: رحلة إلى الإسلام في أمريكا، د. جيفري لانغ، ترجمة د. منذر العبسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣٦) الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (ت ١٤٢٥هـ)، دار القلم- دمشق، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٣٧) الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، علي بن نايف الشحود.

٣٨) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودي، ط١، ١٤٢٣هـ.

٣٩) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، د. عماد الدين خليل، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والؤون الدينية، قطر، ط١، رمضان ١٤٠٣هـ.

٤٠) ديوان أبي تمام الطائي، فسر ألفاظه: محيي الدين الخياط، طبع مرخصًا من نظارة المعارف العمومية الجليلة.

٤١) ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي (ت٤١٦هـ)، تحقيق: د. محمد بن عبد الرحمن الربيع، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٤٢) ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٣م.

٤٣) ديوان ابن زمرك الأندلسي، حققه د. محمد يوسف النيفر، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م.

٤٤) ديوان ابن زيدون، شرح: د. يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤.

٤٥) ديوان ابن عُنين، تحقيق: خليل مَردم بك، دار صابر، بيروت.

٤٦) ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٧) ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤٨) ديوان المتنبي، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٤٩) ديوان محمد إقبال، إعداد سعيد عبد الماجد الغَوري، دار ابن كثير، بيروت/ دمشق.

٥٠) ديوان المعاني، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ)، دار الجيل – بيروت.

٥١) ديوان النَّابغة الذُّبيانيِّ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢.

٥٢) رجال المعلقات العشر: كتاب أدب وتاريخ ولغة، مصطفى بن محمد سليم الغلاييني (ت ١٣٦٤هـ)، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٥٣) روح الاجتماع، د. رجوُستاف لوبُون، ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا، ط٢، المطبعة الرحمانية، مصر.

٥٤) سفر التثنية، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.

٥٥) سفر الخروج، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.

٥٦) سفر العدد، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.

٥٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، نشر (ج ١ – ٤) ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، ونشر (ج ٦) ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م، ونشر(ج٧) ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢ م.

٥٨) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، دار المعارف، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٥٩) سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم: دراسة موضوعية، خالد بن موسى بن غرم الزهراني، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٦٠) سُنَّة الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن الكريم، وموقف المسلمين منها بين الوعي والسعي، أ.د/ رمضان خميس، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٦١) السنن الإلهية: حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، أ.د. ذو الكفل محمد يوسف، مجلة الإمام الشاطبي، العدد السابع (جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ).

٦٢) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، الدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٦٣) السُّنَن الإلهيَّة وخصائصها للدكتور رشيد كهوس، جامعة القرويين، كلية أصول الدين- تطوان.

٦٤) سُنَن أبي داود، أبو دَاوُدَ سُلَيْمَان بن الأَشْعَثِ السِّجِسْتَانِيُّ (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩م.

٦٥) سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٦٦) سنن الدارقطني، لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني (ت ٣٨٥هـ)، تحقيق: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٦٧) السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، مجلس دائرة المعارف، حيدر أباد، ط، ١٣٤٤هـ.

٦٨) الشاكلة الثقافية: مساهمة في إعادة البناء، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٦٩) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٧٠) شرح علل الترمذي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) تحقيق: الدكتور همام عبد الرحيم سعيد، مكتبة المنار – الزرقاء – الأردن، ط١، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٧١) شرح المعلقات التسع، منسوب لأبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) ولا تصح نسبته، تحقيق وشرح: عبد المجيد همو، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، ط١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

٧٢) شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٧٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: زاهر بن سالم بَلفقيه، دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، ط٢، ١٤٤١ هـ – ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم).

٧٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٧٥) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، أبو حاتم محمد بن حبان التميمي الدارمي البُستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٧٦)صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت ٣١١هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت.

٧٧) صحيح سنن أبي داود، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٧٨) صحيح سنن الترمذي، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٧٩) صحيح مسلم بشرح النووي، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، المطبعة المصرية بالأزهر، ط١، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م.

٨٠) ضعيف الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.

٨١) طَيِّبَةِ النَّشْرِ فِي الْقِرَاءَاتِ الْعَشْرِ، أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت ٨٣٣هـ)، تحقيق: محمد تميم الزغبي، دار الهدى، جدة، ط١، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م.

٨٢) العالم الإسلامي في مهب التحولات د. أحمد داوود أوغلو، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٨٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، من آل الوزير (ت ٨٤٠هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٨٤) العين، عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٨٥) غريب الحديث، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني – بغداد، ط١، ١٣٩٧هـ.

٨٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٨٧) فلسفة الحضارة، ألبرت أشفيستر، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، مراجعة د. زكي نجيب محمود، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٨٨) الفوائد في اختصار المقاصد، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت ٦٦٠هـ)، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر، دار الفكر – دمشق، ط١، ١٤١٦هـ.

٨٩) فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد، المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي (ت ١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

٩٠) قدر الدعوة، رفاعي سرور، منبر التوحيد والجهاد، ط٢.

٩١) قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون دِيوي، حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم، ولْ دْيورانت، ترجمة: د. فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط٦، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٩٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت ٦٦٠هـ)، دار المعارف، علق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤١٤هـ.

٩٣) الفتن، أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي (ت ٢٢٨هـ)، تحقيق: سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد – القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ.

٩٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزَّمَخشَرِيّ (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٩٥) كشف المشكل من حديث الصحيحين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن – الرياض.

٩٦) كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري ، مكتبة عيسى البابي الحلبي.

٩٧) الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع ومعه شرحه المسمى الجليس الصالح، الكوكب: للسيوطي، والجليس: لعلي بن آدم الأثيوبي الولوي، مكتبة ابن تَيْمِيَةَ، ط١، ١٩٩٨م.

٩٨) كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، نهضة مصر، ط٧/ ٢٠٠٥م.

٩٩) لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، ابن منظور الأنصاري (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٠٠) الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية، للعالم (توشيهيكو إيزوتسو)، ترجمة وتقديم د هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٧م.

١٠١) اللزوميات، أبو العلاء المعري، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الهلال، بيروت، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٠٢) المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي (ت ٣٣٣ هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

١٠٣) مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ وَمَنْبَعُ الفَوَائِدِ، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الدّاراني، دَارُ المَأْمُون لِلتُّرَاثِ.

١٠٤) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

١٠٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٠٦) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

١٠٧) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

١٠٨) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٩) مسند أبي يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي (ت ٣٠٧ هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، جدة، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١١٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م، وكذا طبعة مؤسسة قرطبة، القاهرة.

١١١) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م.

١١٢) المسودة في أصول الفقه، آل تيمية، جمعها وبيضها: أحمد بن محمد بن أحمد الحراني الدمشقي (ت ٧٤٥ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني.

١١٣) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري (ت ٨٤٠هـ)، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١١٤) المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.

١١٥) معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

١١٦) المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تَيْمِيَةَ، القاهرة، ط٢.

١١٧) المغني عن حمل الأسفار، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت ٨٠٦هـ)، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١١٨) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرَّازِي، الملقب بفخر الدين (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١١٩) مفاتيح العلوم، محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الكاتب البلخي الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب العربي

١٢٠) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرَّازِي، (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٢١) مناهل العرفان في علوم القرآن: لمحمد عبد العظيم الزرقاني (ت١٣٦٧هـ)، مطبعة عيسى البابي الحَلَبِيّ وشركاه، ط ٣.

١٢٢) المنتخب من مسند عبد بن حميد، أبو محمد عبد الحميد بن حميد الكَسّي ويقال له: الكَشّي (ت ٢٤٩هـ)، تحقيق: الشيخ مصطفى العدوي، دار بلنسية، ط٢، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

١٢٣) المعلقات السبع مع الحواشي المفيدة للزوزني، تحقيق: د. محمد خير أبو الوفاء، مكتبة البشرى، كراتشي، باكستان، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١٢٤) مفهوم السُّنَن الرَّبَّانيَّة: دراسة في ضوء القرآن الكريم د/ رمضان خميس زكي، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٢٥) الموافقات: لإبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٢٦) الْمُوَطَّأ (رواية يَحيى بن يَحيى اللَّيْثِيِّ الأَنْدَلُسِيِّ)، لإمام دار الهجرة، لمالك بْنِ أَنَسٍ الأَصْبَحِيِّ (ت ١٧٩هـ)، تحقيق: الدكتور بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

١٢٧) النشر في القراءات العشر: لأبي الخير محمد بن محمد بن محمد الجَزَرِيّ (ت:٨٣٣هـ)، مراجعة: علي بن محمد الضَّبَّاع، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البِقَاعِيُّ (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١٢٩) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

١٣٠) نهاية السول شرح منهاج الوصول، أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي الشافعيّ (ت ٧٧٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٣١) النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٣٢) نونية ابن القيم (الكافية الشافية) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ.

١٣٣) الوعد الحق والوعد المفترى، د. سفر الحوالي، دار منابر الفكر.

المقالات والمواقع الإلكترونية:

١) (الإسلاميون.. وساعة الحقيقة إمكانات هائلة... وطاقات معطلة، عبد العزيز كامل)، مجلة البيان، العدد ١٦٧، ٢٠٠١م.

٢) (أخطار النزعة المادِّيَّة في العالم الإسلامي، نقد كتابات جودت سعيد)، عادل التل، مجلة البيان، العدد٦٦، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣) دراسة للتاريخ لـ(أرنولد توينبي) استعراض فؤاد محمد سبل، في مدينة العقاد: الإسلام والحضارة الإنسانيَّة من موقع الأستاذ رجائي عطية.

٤) "الروح القدس" هل هو إله حقًّا، مقال منشور إسلام ويب، بتاريخ: ١٤/ ٩/ ٢٠٠٦م.

٥) "فقر التعصب والتدين اليابس"، مقال لمحمد مختار الشنقيطي، بتاريخ ٢١/ ١٢/ ٢٠١٩م.

٦) الفوضى الخلاقة بين الفكر والممارسة، ياسر ثامر، مقال بتاريخ ٣١/ ١/ ٢٠١١م.

٧) مجلة المنار.

فهرس الموضوعات

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور رمضان خميس ٥

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور عزيز البطيوي ١٠

مقدِّمة ١٤

الفصل الأول: تمهيدٌ ملتهب بين دراستين للسُّنَن التي تحكم النُّفوس الإنسانيَّة ٢١

الفصل الثاني: التَّعرُّف إلى (السُّنَن).. إنها عَمَد قيام الحياة (ترونها) ٣٤

أولًا: تعريف السُّنَّة في اللغة والاصطلاح ٣٤

ثانيًا: الاستعمال القرآنيُّ لكلمة (سُنَّة) ٣٩

الكنز المعرفيُّ الذي يقدِّمه الاستعمال القرآنيُّ لكلمة (سُنَّة) ٤٠

الموضع الأول: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...﴾ [آل عمران: ١٣٧] ٤٢

الموضع الثاني: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] ... ٤٥

الموضع الثالث: ﴿... وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ٥٤

الموضع الرابع: ﴿... لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠ - ١٣] ٥٦

الموضع الخامس: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا...﴾ [الإسراء: ٧٧] ٥٧

الموضع السادس: ﴿... إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥] ... ٦٥

الموضع السابع: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ...﴾ [الأحزاب: ٣٨] ٧٠

الموضع الثامن: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ...﴾ [الأحزاب: ٦٢] ٧١

الموضع التاسع: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ... ﴾ [فاطر: ٤٣] ٧٣

الموضع العاشر: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ... ﴾ [غافر: ٨٥] ٧٥

الموضع الحادي عشر: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ... ﴾ [الفتح: ٢٣] ٧٧

ثالثًا: بعض الكتب التي مست مفهوم السُّنَن ٨١
الفصل الثالث: من أنواع السُّنَن التي تحكم حركة الحياة..... ٨٥
النوع الأول: السُّنَن الكونيَّة المادِّيَّة الثَّابتة (سُنَن الطَّبيعة): ٨٦
النوع الثاني: السُّنَن الشَّرعيَّة ٩٠
النوع الثالث: سُنَن الاجتماع والعمران أو الاستخلاف ٩١
النوع الرابع: سُنَن التَّغيير الثَّابتة..... ٩٣
الفصل الرابع: أهمِّيَّة علم السُّنَن الإلهيَّة ٩٩
الفائدة الأولى: يؤدِّي علم السُّنَن إلى إعادة اكتشاف الثَّروة المعرفيَّة الهائلة..... ١٠٠
الفائدة الثانية: يؤدِّي إلى اكتشاف الوسائل اللازمة لتحقيق الأمن القوميِّ للأمَّة ١٠٢
الفائدة الثالثة: يغذي القيادات التَّربويَّة والمجتمعيَّة بأساليب القيادة الرَّاشدة المظفَّرة . ١٠٥
الفائدة الرابعة: يحقِّق علم السُّنَن مبادئ الإعمار الأرضيِّ ١٠٧
الفائدة الخامسة: أصل علم السُّنَن يؤدي إلى استكشاف آيات الأنفس والآفاق..... ١١٠
الفائدة السَّادسة: الاستبصار بالنِّظام الإلهيِّ الذي وضعه الله ﷻ في الحركة الكونيَّة ١١٣
الفائدة السابعة: الشعور بوجوب تكوين (الأمَّة الواحدة) ١١٤
الفائدة الثامنة: الفهم السُّنَنيُّ يؤدي إلى إدراك للقوانين التي تحقق الانتصارات..... ١١٦
استثمار السُّنَن مفتاح لامتلاك المجد القادم ١١٨
الفائدة التاسعة: فَهْمُ كيف يُصنعُ تفكير الأغلبيَّة في الواقع الإنسانيِّ ١٢٠
الوعي الزَّائف بالسُّنَن سبب الانحطاط إلى الدَّركات المظلمة السَّحيقة ١٢٢
الأنموذج اليمنيُّ المعاصر: مثالٌ أنموذجيٌّ من الأمثلة الكثيرة لعدم إدراك السُّنَن الإلهيَّة ١٢٤
الفصل الخامس: معرفة العلوم المتعلِّقة برصد السُّنَن، والاستثمار المعرفيِّ..... ١٢٨
العلم الأول: القرآن الكريم ١٢٩

العلم الثاني: السُّنَة النبوية ١٢٩
العلم الثالث: أصول الفقه ١٣٠
العلم الرابع: عِلم التَّارِيخِ المحضِ ١٣٠
العلم الخامس: علم التاريخ التحليلي ١٣١
العلم السادس: علم الاجتماع ١٣٢
العلم السابع: علم الجغرافيا السِّياسيَّة ١٣٣
العلم الثامن: علم (المستقبليات) وهو علم أشراط السَّاعة ١٣٣
الفصل السادس: وسائل معرفة السُّنَن الإلهيَّة ١٣٦
الوسيلة الأولى: البحث المباشر عن موارد السُّنَن في القرآن الكريم ١٣٧
الوسيلة الثانية: استخراج السُّنَن الرَّبَّانيَّة من البصائر القُرآنِيَّة ١٣٩
الوسيلة الثالثة: استخراج السُّنَن الرَّبَّانيَّة من السُّنَّة النَّبويَّة ١٤٠
الحقائق المتعلقة بالبصائر القُرآنِيَّة اللازمة لفَهْم السُّنَن الإلهيَّة ١٤٣
الحقيقة الأولى: القرآن المجيد مصدر فَهْم السُّنَن والنُّظُم التي يقوم عليها الكون ١٤٤
الحقيقة الثانية: أهم لوازم (البصيرة) وجود الحجَّة الواضحة عند اتخاذ القرارات ١٤٧
الحقيقة الثالثة: البصيرة شرطٌ في الدَّعوة إلى نُظُم القرآن الكريم المنيرة ١٤٩
الحقيقة الرابعة: تتفاوت البصيرة بين أصحابها ١٥١
الحقيقة الخامسة: يلزم العلمَ بالبصائر إيمانٌ حيٌّ بالبصائر يحرِّك الضَّمائرَ، ويثمر الصَّلاحَ في الباطن والظاهر: ١٥٤
الحقيقة السادسة: تنزيل الأحكام على الآيات، وطلب البصيرة فيها: ١٥٥
الوسيلة الرابعة: السَّير في الأرض: ١٥٧
مدى التَّطبيق الإسلامي لهذه المنهجية القُرآنِيَّة بالسَّير في الأرض: ١٦٣

الوسيلة الخامسة: أيَّام الله ﷻ في التاريخ: ١٦٧
زيارة آثار الأمم السَّابقة ودراستُها: ١٦٩
حكم زيارة آثار المعذَّبين أو الأمم الخالية: ١٧١
السِّياحة سيرٌ في الأرض، وتنميةٌ في المعرفة: ١٧٥
الوسيلة السادسة: اتباع المنهج التَّجريبيِّ لمعرفة السُّنَن التَّفصيليَّة التي تسخِّر الكون ١٨١
ضابط الوسائل السابقة: اتباع المنهج العلميِّ، واطِّراح التَّفكير الخرافيِّ: ١٨٦
الفصل السابع: خصائص السُّنَن الإلهيَّة ١٨٨
الخاصِّيَّة الأولى: الشمول ١٨٩
الخاصِّيَّة الثانية: الثبات: فلا تقبل السُّنَن التَّغيير، فلا تتبدَّل، ولا تتحوَّل ١٩٢
الخاصِّيَّة الثَّالثة: السُّنَّن ربَّانيَّة الإحاطة، ١٩٧
الخاصِّيَّة الرابعة: الاطراد والحياد فهي لا تحابي أحدًا، ولا تجامله ٢٠٠
الخاصِّيَّة الخامسة: التَّسخير، وقابلية الاستكشاف والكشف ٢٠٧
الخاصِّيَّة السَّادسة: ظهور الاعتبار والاستبصار بها؛ اجتنابًا للمَثُلات، وبناء للحياة ٢٠٩
الخاصِّيَّة السابعة: التَّوازن، والاتِّساق، والتَّقابل المتكامل ٢١٣
الخاصِّيَّة الثامنة: التداخل، والاشتراك ٢٢٠
الفصل الثامن: الأسس القيمية الكبرى لجريان السُّنَن الاجتماعيَّة والكونيَّة ٢٢٣
الأساس الأول (السُّنَّة الغائيَّة الأولى): الحقُّ ٢٢٣
اقتران سُنَّة النصر على الباغي بسُنَّة إيلاج الليل في النهار ٢٢٥
الأساس الثاني: العدل ٢٢٩
الأساس الثالث: الإحسان ٢٣٤
الأساس الرابع: الرَّحمة ٢٣٥

الأساس الخامس: الخير ٢٣٩

الفصل التاسع: قوانين عملية تطبيقية لإعمال السُّنَن في البناء، ومعالجة الأزمات ٢٤٣

القانون الأول: الدِّراسة والرَّصد للسُّنَن، وقياس واقع الأمَّة لـمعرفة السُّنَّة التي تعيشها . ٢٤٤

القانون الثاني: تواؤم الإنسان وانسجامه معها ٢٤٧

القانون الثالث: الـمجاراة، وعدم الـمصادمة لـما يعلـم عدم إمكانية تغييره (الـمسايرة) . ٢٤٨

القانون الرابع: مغالبة السنن بما يقابلها ٢٥١

القانون الخامس: الاستخدام، فننتقل بالسُّنَن الإلهيَّة من الفهم إلى الإعمال ٢٥٤

القانون السادس: التَّعضيد للسُّنَّة بالسُّنَّة ٢٥٥

القانون السابع: الانتقال من سُنَّةٍ إلى سُنَّةٍ أخرى لقرائن ترجح الإعمال للسُّنَّة الثانية ٢٥٧

القانون الثامن: ترقُّب لحظات الفلاح والانتصار بعد القيام بالعمل الذي يحقِّقهما ٢٥٨

فهرس المصادر والمراجع ٢٦١

فهرس الموضوعات ٢٧٦

للتعرف على
مؤسسة بصائر
المعرفة القرآنية

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، وجامعتي حضرموت وذمار سابقاً.
- شارك في تحكيم نحو **30** مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

المدخل إلى علم السُّنن الربَّانيَّة

هذه الدُّروسُ في سُنَنِ القُرآنِ تَنْشُرُ النَّورَ في الآفاقِ، ونَبْعُهَا لِمَن لَمَسَهُ زُلالٌ صافٍ دَفَّاقٌ، إنَّها تَسعى بجدٍّ لبعثِ التَّأمُّلِ المُستنيرِ في كلامِ الله العليِّ القديرِ، فما أَعْذبَ المَوْرِدَ وأصفاه! وما أحلاه وأنقاه!

في هذا الضِّياءِ الماثلِ بين يديك، المُشرقِ أمام عينيك كنزٌ معرفيٌّ خالدٌ يقدِّمه لك النَّصُّ القُرآنيُّ لتتعرَّفَ عَلَى السُّنَنِ التي تقومُ عليها الحضاراتُ.

ستتعرفُ أوَّلًا عن قُربٍ على نُصُوصِ القرآنِ المُشرقةِ فيُشرقُ في حَنَاياك ضياؤها، ثم تتعرَّفُ عَلَى أنواعِ السُّنَنِ التي تَحْكُمُ حركةَ الحياةِ فتَجِدُ السُّنَنَ الكونيَّةَ، والشَّرعيَّةَ، والاجتماعِ والعمرانِ والاستخلافِ، وسُنَنَ التَّغيرِ الثَّابتةِ.

في ثنايا هذه السُّطُورِ ستجدُ أهمِّيَّةَ عِلمِ السُّنَنِ، حيث يؤدِّي إلى إعادةِ اكتشافِ ثروةٍ معرفيَّةٍ هائلةٍ، وينظرُ في الوسائلِ اللَّازمةِ لتحقيقِ الأمنِ القوميِّ ومبادئِ الإعمارِ الأرضيِّ، وكيف يمكن أن تَسْتَثْمِرَ أمَّتُنا السُّنَنَ لتملكَ مفتاحَ المجدِ القادمِ.

فَصَّلْتُ لك أيضًا في معرفةِ العلومِ المتعلِّقةِ برَصدِ السُّنَنِ والاستثمارِ المعرفيِّ، ووسائلِ معرفةِ السُّنَنِ الإلهيَّةِ وخَصائصِها، والأُسُسِ القيميةِ الكُبرى لجريانِ السُّنَنِ الاجتماعيَّةِ والكونيَّةِ؛ لتخرجَ مِنْ هذه الدِّراسةِ بنظرةٍ ثاقبةٍ حول معرفةِ السُّنَنِ القرآنيَّةِ، وبديعِ نَظْمِها، وجمالِ سَبْكِها، وحُسْنِ تَقْعِيدِها، فتراها وقد الْتَقَتْ في قوانينَ عمليَّةٍ تَطبيقيَّةٍ.

9 786258 063820

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

UFUK neşriyat®
BASIN-YAYIN-DAĞITIM

www.arabfamilybs.com
+90 212 631 8109
+90 555 028 1155
info@arabfamilybs.com